١٩٦,١٩٧

مجلة الأزهر

يصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

مجلة شهرية جامعة

منشئ المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات

يشترك في تحريرها
عباس محمود العقاد

بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزءان الثالث والرابع — ربيع الأول وربيع الآخر سنة ١٣٨٠ هـ — المجلد الثاني والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

شهر ربيع الأول في حياة الرسول

بقلم : أحمد حسن الزيات

من الموافقات العجيبة في حياة الرسول صلوات الله عليه أن شهر ربيع الأول كان شهره من بين الأشهر ، وأن يوم الإثنين كان يومه من بين الأيام ، فيوم الإثنين من الأسبوع الثاني من شهر ربيع الأول كان يوم استهلاله في مكة ، ويوم الإثنين من الأسبوع الثاني من شهر ربيع الأول كان يوم هجرته إلى المدينة ، ويوم الإثنين من الأسبوع الثاني من شهر ربيع الأول كان يوم انتقاله إلى الرفيق الأعلى . ولهذه الموافقات سر يعلمه من اصطفاه على خلقه واصطنعه لحقه ، واختصه برسالته . ومن همسات هذا السر أن شهر ربيع الأول هو شهر اليمن والخصب والجمال في العام ، وأن يوم الإثنين هو يوم النمو عند القدامى وللقمر شأن مذكور في الإسلام . فهو ميقات للناس والصوم والحج ، وشعار للأمة والملة والدولة . وعلاقة الأقمار والحظوظ بالفصول والبروج والأيام لا تزال من الأسرار المغيبة في فطرة الإنسان . فلو أن شهر ربيع الأول جعل بدءا للسنة الهجرية ، وأن يوم الإثنين جعل يوما للراحة الأسبوعية ، لكان ذلك متفقا مع تاريخ

١٩٦,١٩٧

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

يشترك في تحريرها
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

منشئ الصحيفة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
السنوان
٤٦٢١٤

الجزءان الثالث والرابع — ربيع الأول وربيع الآخر سنة ١٣٨٠ هـ — المجلد الثاني والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

شهر ربيع الأول في حياة الرسول

بقلم: أحمد حسن الزيات

من الموافقات العجيبة في حياة الرسول صلوات الله عليه أن شهر ربيع الأول كان شهره من بين الأشهر، وأن يوم الإثنين كان يومه من بين الأيام. فيوم الإثنين من الأسبوع الثاني من شهر ربيع الأول هو يوم استهلاله في مكة، ويوم الإثنين من الأسبوع الثاني من شهر ربيع الأول كان يوم هجرته إلى المدينة، ويوم الإثنين من الأسبوع الثاني من شهر ربيع الأول كان يوم انتقاله إلى الرفيق الأعلى. ولهذه الموافقات سر يعلمه من اصطفاه على خلقه واصطنعه لحقه، واختصه برسالته. ومن همسات هذا السر أن شهر ربيع الأول هو شهر اليمن والخصب والجمال في العام، وأن يوم الإثنين هو يوم القمر عند القدامى وللقمر شأن مذكور في الإسلام، فهو ميقات للناس والصوم والحج، وشعار للأمة والملة والدولة. وعلاقة الأقمار والحظوظ بالفصول والبروج والأيام لا تزال من الأسرار المغيبة في فطرة الإنسان. فلو أن شهر ربيع الأول جعل بدءا للسنة الهجرية، وأن يوم الإثنين جعل يوما للراحة الأسبوعية، لكان ذلك متفقا مع تاريخ

الهجرة ، وجلالة الذكرى ، ومكانة الرسول ، وقداسة الشهر .

— ١ —

فى يوم الإثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول للسنة الثالثة والخمسين قبل الهجرة كان الفضاء الرحب الصافى بين بيت إبراهيم بالمسجد الحرام ، ودار السيدة آمنة بشعب بنى هاشم بمكة ، مسبحا لأجنحة الملائكة ومسبحا الأرواح الأنبياء ، يحمدون الله ويشكرونه على أن تدارك الخليقة من جديد ، باستهلال هذا العربى الوليد . وكان العالم قبل مولد محمد بن عبد الله يضطرب فى الباطل ، ويتخبط فى الضلال ، ويتبسط فى المنكر

كبهيمة عمياء قاد زمامها
أعمى على عوج الطريق الأعوج

كان يسوق هذه البهيمة من الشرق الفرس على ما هم فيه من انحلال وفساد ، ويقودها إلى الغرب الروم على ما هم عليه من إباحية وفسوق . وكان إيوان كسرى وبلاط القيصر يتنازعان الولاية على الأرض بالكفران والطغيان والقهر . فلما قام بينهما فى مكة مهد العربى اليتيم هزته يد الله فتصدع لهزته الإيوان ، وتطامن لهيبته القصر ، وهتف بالعاملين العظيمين من جانب الغيب هاتف يقول : أليوم ينتهى تاريخ ويبتدىء تاريخ . ليس بعد اليوم ملك ولا كاهن ولا سيد . إنما العبادة لله ، والقيادة للرسول ، والسيادة للدين ، والحكومة للعرب ، والدنيا للجميع !

ثم درج يتيم الأبوين فى دروب مكة وشعابها وأوديتها يتمرس بالحياة على أسلوب قريش ، فرعى على بعض أهله ، وسعى لبعض قومه . ثم اتجر بمال زوجه . وكانت عناية الله ترعاه فى كل طور وفى كل مرحلة . عاله وهو يتيم فقير . وكفله وهو راع صغير . ووفقه وهو تاجر أجير . ثم شاء الله لأمر يريده أن يصنعه على عينه . فأدبه بأدبه ، وعلمه من علمه ، وعصمه من أرجاس الوثنية وأوزار الجاهلية ، فلم يشرب الخمر ، ولم يأكل الربا ، ولم يلعب الميسر ، ولم يشهد اللهو ، ولم يعن وجهه لصنم ، حتى صار اليتيم العديم سيداً للجزيرة ، والراعى الصغير راعيا للعالم ، والتاجر المتجول فاتحا للأرض ، والطاهر النزيه مهيأ لتلقى الوحى وتبليغ الرسالة .

وحينئذ انفتح باب من السماء على غار حراء تنزلت منه الملائكة والروح على أهل الأرض ، وانبثقت فيه الشعاعة الأولى من وحى الله على قلب محمد . فهبط الصادق الأمين من فوق جبل النور يحمل المصباح بالهدى ، ويحمل على الشرك بالتوحيد ، ويحتمل فى سبيل الدعوة إلى الله أذى أئمة الكفر من قريش .

— ٢ —

وفى يوم الإثنين الثامن من شهر ربيع الأول للسنة الأولى من حادثة الفيل كان أذى قريش لرسول الله قد بلغ حد الائتمار به ليقتلوه . وكان صلوات الله عليه قد رأى قفار مكة المشركة قد جفت على غرس الدعوة فلم يخرج نباته إلا نكدا توشك السموم أن تأتى عليه ، فهاجر به تحت عين الله إلى البلد الطيب الذى اختاره الله ليكون قاعدة لصرحه وحقلا لغرسه ومجمعا لقوته ومناراً لهداه . وهنالك بالصبر والصدق والإيمان والثبات والجهاد والخلق والرجولة ، أثمر الغرس وتم النور واتحدت الكلمة واتسعت الرقعة ، فصارت المدينة دنيا ، والقلة ملة ، والقرى الثلاث وهى مكة والطائف ويثرب قارات ثلاثا هى آسيا وأفريقا وأوربا . وأصبح الإسلام الذى بدأ بخديجة وعلى وأبى بكر وزيد دين الناس ودنيا العالم ، يقف به فى آخر المغرب عقبة ابن نافع على شاطئ المحيط الأطلسى ويقول وقد خوض جواده فى الماء : « اللهم رب محمد ! لولا هذا البحر لفتحت الدنيا فى سبيل إعلاء كلمتك ، اللهم اشهد ! . ويتجه به إلى آخر الشرق قتيبة الباهلى ويأبى إلا أن يوغل فى بلاد الصين فيقول له أحد أصحابه محذراً : « لقد أوغلت فى بلاد الترك يا قتيبة ، والحوادث بين أجنحة الدهر تقبل وتدبر » فيجيبه قتيبة : « بثقتى بنصر الله أوغلت . وإذا انقضت المدة ، لم تنفع العدة » ؟ فرد عليه المشفق المحذر : « اسلك سبيلك حيث شئت ، فهذا عزم لا يفله إلا الله » .

* * *

كانت الهجرة المباركة حداً فاصلا من نور الله بين الإسلام والجاهلية ، وبين الوحدانية والوثنية ، وبين القومية والعصبية ، وبين الإنسانية والحيوانية . وبين ليل مظلم طال فى الهول والويل والضلال ، وصباح مسفر ضاء بالأمن والسلام والهداية .

تسنى بعدها للرسول بفضل الله أن يفطم المشركين عن الشر بالحكمة والقوة ، وأن يربى المسلمين على الخير بالموعظة والقدوة . فجادل المنكرين بمنطق القرآن ، وجاهد المكابرين بمنطق السيف ، حتى جاء نصر الله والفتح ورأى الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربه ، واطمأن على مصير دعوته وشعبه ، وأخذ يسن السنن ويوضح المعالم ويبين للناس ما لو اتبعوه من بعده لما ضلوا ولا ذلوا . فلم تمض عشر سنين على الهجرة حتى كان الدين قد كمل ، والنعمة قد تمت ، والقرآن قد ختم ، والعرب قد تهيأوا لولاية الأرض وحكم الدنيا . فحج صلوات الله عليه حجة التمام ، وخطب فى عرفة خطبة الوداع ، أشهد فيها الله على أنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة وخرج من العهدة .

وفى ذلك اليوم نزل عليه قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » فعلم أن الله قد نعى إليه نفسه واصطفاه لجواره .

— ٣ —

وفى يوم الإثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول للسنة الحادية عشرة من الهجرة لحق بالرفيق الأعلى . وكان قد حم عليه الصلاة والسلام منذ أسبوعين قضاهما فى برحاء الحمى بين وهجها وغشيتها لا يفتر عن ذكر الله ولا يغفل عن أمر دينه . وكان أشد عليه من وجعه أن ينقطع عن المسجد وأن يؤذنه بلال بالصلاة فلا ينهض لها . وفى آخر يوم من أيام المرض وجد صلوات الله عليه خفة فى جسده فعصب رأسه وخرج من بيت عائشة متثاقلا تخط قدماه الأرض وهو معتمد على على والفضل ابنى عميه ، حتى أتى المسجد والناس يقيمون الصلاة ، فلم يكادوا يرونه مقبلا حتى أخذتهم هزة الفرح وفرجوا صفوفهم له خطا بينها حتى جلس إلى يسار أبى بكر وصلى قاعداً وراءه . فلما قضيت الصلاة صعد المنبر ، وكان قد علم أن مرضه الشديد قد جرأ بعض المنافقين على الانتقاض والردة ، فوثب الأسود باليمن ، ومسيلمة باليمامة ، وطليحة فى بنى أسد ، فقال بعد أن حمد الله واستغفر لأهل أحد : « أيها الناس : سعرت النار ، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ! ألا وإنكم لا تمكثون على شيئا . إنى والله لم أحل لكم إلا ما أحل القرآن ، ولم أحرم عليكم إلا ما حرم . ألا وإن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله . ثم أمسك . فأدرك الصديق أن الرسول يريد نفسه فأجهش بالبكاء وفداه بالأنفس والبنين . ثم خرج من المسجد فدعا لأسامة بن زيد بالخير وأمره أن يسير بجيشه إلى غزو الروم . وارتد إلى بيته فنكس النكسة التى انخزل عنها العلاج ، وانطفأ منها السراج ، وغام بعدها الأفق ، ونجمت فى أرض السقيفة بذور الفرقة . فلم يبق بين أيدى الناس إلا كتاب الله يهتدى عليه الضال ، ويرجع اليه الشارد ، ويستقيم به الطريق .

هذا هو شهر ربيع الأول ، وهذه هى أثانينه الثلاثة ، لخصت حوادثها تاريخ الرسول ، وسجلت مواقيتها أطوار الرسالة . فكانت إطاراً للصورة القدسية التى صاغتها يد البارئ المصور لتكون جمالا للتاريخ ومنالا للإكبار . أو مشكاة للمصباح الإلهى السرمدى الذى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار .

من أجل ذلك وجب الاحتفال بذكرى هذا الشهر وهذا اليوم ، ومن أجل ذلك استحب فى أيام الإثنين الصدقة والصوم .

أحمد حسن الزيات

موالاة الأعداء وموقف الإسلام منها

لإمام المسلمين الأكبر
الشيخ محمود شلتوت

إن للأمة الإسلامية شخصية قوية كونها الإسلام عن طريق محو التعصب للجنس والاعتصام بمبدأ الخير العام والرحمة الواسعة والعدل المطلق، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم، وبذلك تكون الجماعة الإسلامية مهما اختلفت أجناسها، وتباعدت أقاليمها، وتباينت ألوانها وألسنتها، تدور في اتجاهاتها وأعمالها في مدار المبدأ الثابت الذي لا يتغير ولا يزول، ولا يعتريه نقص ولا أفول، فتسرى إليها روحه فتنشط في رفع شأنها والقيام بواجبها، تعمر ولا تخرب، وتصلح ولا تفسد، وتعدل ولا تظلم، وتعرف مالها وما عليها من حقوق وواجبات، وبذلك تسمو الحياة، ويسعد الناس. وفي سبيل هذا المبدأ الذي يدعو إلى الترابط على أساس من الخير أمر القرآن بالتضحية في هذا السبيل بالنفس والمال والولد، وجعل الأخوة الإيمانية هي الأساس، يحس كل إنسان بإحساس أخيه كما تحس كل أمة بإحساس غيرها فيعم السلام الأرض، وبهذا كله تتحقق للمسلمين شخصية بارزة لها هيبتها ومكانها، ولها سلطانها وآثارها، وتتحقق بها سعادة البشرية عامة.

وصونا لهذه الشخصية أن تتعرض للضعف والانحلال حرص القرآن على تقويتها وحذر التحذير كله من الميل إلى ما يضعفها أو العمل على ما يفسدها أو يقلل من شأنها.

ولقد كان من أبرز ما حرص القرآن على التحذير منه موالاة الأعداء الذين يكفرون بهذه الشخصية التي كونها الإسلام وبناها ودعم بناءها في رباط قوي وتماسك متين، ويجدر بنا في هذا المقام أن نسوق بعض الآيات التي عرضت للنهي عن موالاة الأعداء وحثت على البعد عنهم وعدم الاقتراب منهم «يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر».

وتقديراً لهذه الشخصية واحتفاظاً بها

وإحياء لهذه المعانى السامية التى تظل بها الأمة الإسلامية مرهوبة الجانب شديدة القوة نهى عن هذه الموالاة ولو لمن كانوا آباء يجب برهم أو إخوة تلزم صلتهم ومودتهم فقال : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان » . « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » .

ولكن الأهواء الذاتية والمصالح الفردية قد تسد على بعض الأشخاص طرق الهدى فتعميهم عن مواطن القوة والإيمان وتصم آذانهم عن دعوة الخير ، وذلك حين يتخلون عن الاعتصام بالله واتباع هداه ، فإن الاعتصام بالله دائما طريق الخير وسبيل الفلاح . فإذا ما طغت المصالح الفردية وسيطر الهوى على بعض النفوس ألقوا بأنفسهم بين أحضان الأعداء مسارعين إلى ما يرجون من تحقيق نفع خاص ، وبذا يتعاونون معهم على حساب دينهم وأمتهم . « فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين » .

إن من أشد الناس عداوة لنا اليوم فى مصطرع الحياة ومعتركها وفى ترابط المسلمين وقوتهم ، وفى وحدة العروبة وتماسكها ، هذه الشرذمة الطاغية الباغية التى طالما عاثت فسادا فى الأرض وتنكرت المبادئ وهدمت القيم .

هؤلاء هم الذين ألبوا الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم الذين أوجدوا الطائفة الثالثة بين المسلمين والكفار فكانت عبئا ثقيلا فى المجتمع ، هم نقضوا عهودهم مع الرسول وكفروا بالحسنى وحرفوا الكلم عن مواضعه ، ومالأوا الأعداء وتحزبوا معهم إطفاء لنور الله وخانوا الرسول ، وهموا بقتله ، ودسوا له السم فى الطعام فنبأه الله بنياتهم وعصمه من شرهم وسلطه عليهم فشردوا بما كسبت أيديهم وبما كانوا يفسقون . « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون . فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون » . وكم من شر أصاب المسلمين على أيديهم . وما غزوة الأحزاب التى زلزل فيها المسلمون إلا أثر من تفكيرهم وسوء تدبيرهم .

وهكذا فعل بهم الرسول صلى الله عليه وسلم .

فشردهم وأدبهم ثم خلفه أصحابه فتعقبوهم وأغمدوا سيوف الحق فى رقابهم لأنهم عوامل شر ومثيرو فتن ومجامع أحقاد وأضغان ، فلابد من كبتهم وقتل هذه النزعات الشريرة فيهم ؛ ليستقيم أمر الجماعة الإنسانية ويصلح شأنها ويسودها الأمن والاستقرار والسلام الذى تنشده الحكمة للبشرية جمعاء ، وإن يهود اليوم لأسوأ حالا من أسلافهم ، عادوا إلى أخلاقهم فتحركت كوامن الضغن فيهم فهم يحاربون الله ورسوله ويفسدون فى الأرض ، وإنهم ليجدون فى فترات متعاقبة من قوى البغى وعوامل الشر وسواعد الفساد ما يغريهم بقوى الحق والإيمان، ولكن الله وهو الغيور على عباده وضعهم من حيث لا يشعرون بين شق الرحى ، بين عوامل التهلكة من جانب ، وبين وحدتنا وتماسكنا وإيماننا بحقنا فى الحياة الكريمة من جانب آخر. إن القرآن الكريم ليسجل أن اليهود أشد الناس عداوة للمؤمنين ويجعل عدوانهم للمؤمنين فى مستوى عداوة المشركين الذين لا يعترفون بالخالق ولا يؤمنون به ، اقرأ قوله تعالى : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » .

ولقد اغتصب اليهود جزءاً من الوطن الإسلامى العربى عزيزاً علينا ، أخرجوا منه أهله وسلبوا أموالهم وشردوهم فى الصحراء فأصبحوا بلا مأوى ، أيموا النساء ، ويتموا الأطفال ، فأضاعوا حياة الملايين وحرموهم متعة الحياة ، والغصب فى طبيعته عمل مذموم حرمته الشرائع السماوية ورفضته القوانين الوضعية، فلا عجب أن يكون حكم الله فى موالاة هذه الشرذمة أو الاعتراف بها كدولة تقيم فى أراضينا المقدسة مهبط الوحى، وموقع المسجد الأقصى ومصلى الأنبياء لا عجب أن يكون حكم الله فى مثل هذا العمل أنه لا يتفق وإيمان من يقدم عليه أو يقوم به، وهو من أقوى أنواع الموالاة التى جاء القرآن بالنهى عنها وتحريمها والبعد عنها ضمانا لسلامة الأمة وحرصا على كيانها. إن المسلمين أمة واحدة تجتمع على رأى واحد وهدف واحد وغاية سامية واحدة ، وذلك مصدر قوتها فى كل حين تقوى فيه ويعلو شأنها ويتألق نجمها « ويد الله مع الجماعة، ومن شذ شذ إلى النار » فلئن حاول إنسان أن يمد يده لفئة باغية يضعها الاستعمار لتكون جسراً له يعبر عليه إلى غاياته ويلج منه إلى أهدافه ، لو حاول إنسان ذلك لكان عمله هو الخروج على الدين بعينه والنكوص الممقوت: « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من

دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء » ، ويقول تعالى : « بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا » .

هذا هو ديننا يضع الخطط أمامنا واضحة والمعالم ظاهرة والصراط مستقيما ونحن اليوم نبتلى ونختبر فهل نحن مضيعون هذه الخطط وتلك المعالم ؟

إن خصوم المسلمين اليوم هم خصوم دينهم ، حفدة اليهود الخائنين أخلاقهم من أخلاقهم ، كيد وإفساد . وقد ابتلانا الله بهم فخذوا حذركم منهم ولا تمدوا أيديكم لهم « ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين » .

إن إسرائيل لا تقف أطماعها عند حد ، تمتد خططهم المدبرة فيما بينهم وبين الممالئين لهم إلى امتلاك البلاد العربية الإسلامية ؛ ولذا كان واجب المسلمين والعرب أن تجتمع كلمتهم لدرأ هذا الخطر ، وأن يبتعدوا عن كل ما يقوى هذه العصبة الطاغية سواء أكان عن طريق الاعتراف بها أم المعونة الفكرية أو المساعدة المالية ، أو ترويج سلعهم بيعا وشراء . فإن ذلك كله موالاة لهم تثبت أقدامهم ، وذلك كله خطر يهدر في حكم الشرع والدين دم القائمين به ويجعلهم في حكم الخارجين على الجماعة الإسلامية .

إننا اليوم في حاجة إلى طرد هؤلاء الغاصبين وعودة أصحاب الأرض إليها فكونوا يدا واحدة ولا تتثاقلوا فإن التثاقل عن رد عدوانهم أو مد يد المعونة العملية في كبح جماحهم موالاة للأعداء .

أيها المؤمنون : « قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم » ، هدانا الله ووجهنا إلى الخير وحفظ أمتنا من دعاة الفرقة وموالاة الأعداء ، « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » ، « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » .

محمود شلتوت

خاتم الأنبياء

للأستاذ عباس محمود العقاد

محمد رسول الله وخاتم النبيين .

عقيدة يصدقها المسلم تصديقه بعقائد الدين ، ولكنه يفهمها كذلك فهم المرء للحقائق العلمية والقضايا المنطقية ، لأنه إذا فهم النبوة بصفاتها المقررة فى الإسلام علم أنها نبوة تختتم بها النبوات وتنفتح بها فى التاريخ الإنسانى رسالة الرشد والضمير والإلهام .

إن ختام النبوات خاصة محمدية . ولكنها خاصة لا يستأثر بها محمد عليه السلام لنفسه ، لأن الخاصة التى يقتضيها تاريخ الأمم جميعا تعم كل مؤمن بالدين وكل مجيب للدعوة ولا تخص صاحب الدعوة فى حياته ولا بعد مماته .

وقد يفهم المسلم ذلك بغير مشقة ، ولكنه على وضوحه للمؤمنين بالرسالة المحمدية يساق عند غيرهم من المتدينين ومنكرى الأديان مساق الغرابة . ويسىء بعضهم فهمه ، كما يسىء أدبه . فيزعم أنها أثرة لصاحب الدعوة يغلق بها أبواب النبوة على سواه كما يغلق صاحب السطوة أبواب الملك على من يليه من غير أهله أو من يصطفيه .

ولاحاجة فى هذا المقام إلى مناقشة المنكرين فى أمر الإيمان بختام النبوة دون غيره من أمور النبوات الدينية على تعددها واختلافها ، فإنهم يبدءون بإنكار كل نبوة فاتحة قبل أن ينكروها خاتمة ، ولا يقولون بضرورة النبوة ولا بنفعها فى زمن من الأزمان . فلا فرق عندهم بين الزمن الذى يستجاب فيه للأنبياء والزمن الذى لا يستجابون فيه ، وكلاهما عندهم زمن يستمع فيه لشىء لا يجوز الإصغاء إليه .

لكن المتدينين الذين يستغربون ختام النبوة إنما يستغربون فى الواقع أمراً ينساق إليه المصدقون بالنبوات سواء فطنوا إليه عن فهم وروية أو أخذوه مأخذ العادة التى لا تحتاج من معتادها إلى تعليل . فقد آمن بختام النبوة كل من آمنوا بنبوات التوراة ، وقد ختم بعض هؤلاء دعوات الدين جميعا بما دانت به سلالة واحدة لا يوحى الله إلى غيرها ولم يوح إلى أحد من قبلها فيما اعتقدوه ويعتقدونه حتى اليوم .

وليس إيمان المسلم بخاتم النبيين على نحو من هذه الغرابة فى التصديق ولا فى التفكير . لأن النبوة التى ختمت النبوات فى عقيدة المسلم هى الدعوة التى تدوم مدى الزمن ، لأنها تكل العقيدة إلى العقل وتقيم العقيدة على الإيمان برب واحد هو رب العالمين .

كانت الأمم - قبل البعثة المحمدية - تفهم أن النبوة استطلاع للغيب وكشف للأسرار والمخبآت ، يستعينون بها على رد الضائع وإعادة المسروق أو الدلالة عليه ، ويستخبرونها عن طوالع الخير والشر ومقادير السعود والنحوس .

وكان من تلك الأمم من يحسب أن النبوة وساطة بين المعبود وعباده للتشفع والتسليم القرابين .

وكانوا يطلبون وساطة الأنبياء دفعا للنوازل التى يستحقونها أو تنزل بهم لأنها قضاء مبرم يتوقعه الصالحون العارفون ويسألون المعبود فى رفعه قبل نزوله .

فجاءت نبوة الإسلام بجديد باق لم تسبق له سابقة فى الدعوات الدينية ، ولا حاجة بعده إلى جديد ولا استطاعة فيه للتجديد ، لأنه يخاطب فى الإنسان صفته الباقية وخاصته الملازمة ، وهى خاصة النفس الناطقة بين الأحياء ، وخاصة الضمير المسئول الذى يحمل تبعته ولا تغنيه عنها شفاعة ولا كفارة من سواه .

إنها نبوة فهم وهداية وليست نبوة استطلاع وتنجيم ، وإنها نبوة هداية بالتأمل والنظر والتفكير وليست نبوة خوارق وأهوال تروع البصر والبصيرة وتروع الضمائر بالخوف والرهبة حيث يعييها قبول الإقناع .

إنها نبوة مبشرة منذرة لا تملك لهم نفعا ولا ضرا ولا تعمل لهم عملا غير ما يعملونه لأنفسهم - بمشيئتهم إذا اهتدوا بهداية العقل المتدبر - والضمير السليم : « قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » .

نعم . ولا إغراء ولا مساومة على قربان أو جزاء بين الأخذ والعطاء : « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلى . قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » .

وقد جاءت سمة المعجزة ميسرة لصاحب هذه النبوة يوم مات ابنه ابراهيم وكسفت

الشمس فظن الناس أنها كسفت لموته وأبى النبي الصادق أن يسكت عليها فتكلم ليعلمهم (أن الشمس والقمر آيتان ... لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته) .

وخليق بذوى العقل ، وأولى الألباب ، أن يصدقوا هذا النبي حين يقول لهم : إن المعجزة لاتنفع من لا ينتفع بعقله وضميره « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » .

فإذا جاء النبي بهذه الرسالة التي تكل الإنسان إلى « خاصة إنسانية » لاتفارقه وتعطيه البينة من شهوده فيما يراه حوله ولا يغيب عن حسه وفكره ، فأين تنتهى هذه الرسالة ؟ وماذا تعمل الرسالة التي تأتى بعدها لتنسخها وتخلفها ؟ . . . إنها لا تعمل إلا أن تنسخ العقل أو تعود به كرة أخرى إلى القرون الأولى ، وليست هذه ولا تلك بدعوة يحتاج إليها إنسان من الراشدين بعد أن وكل إلى هداه ، فمن لم يكن من الراشدين فحاجته إلى المعلم الذى يدله على ما فاته من هداية النبوة ألزم من حاجته إلى نبي جديد معيد لما تقدمه ، كأنه يسقط واجب التعليم .

ولقد تقدمت نبوة الإسلام دعوات كثيرة من أكبر الدعوات شأنا فى تاريخ العقيدة ، ولكنك لو عرضتها على مؤرخ ينظر فى أدوار التاريخ ـ كائنا ما كان معتقده فى الدين ـ لم يستطع أن يختتم دور الذروة فى تاريخ الإنسانية بدعوة من تلك الدعوات على جلالة شأنها وبعد أثرها فى العصور اللاحقة بعصرها ؛ لأنها جميعا قد بدأت وانتهت قبل أن توجد فى أذهان الناس فكرة الإنسانية العامة وفكرة الإنسان المسئول المحاسب على أمانة العقل والضمير .

فنبوات بنى إسرائيل لم تزل مقصورة على سلالة بشرية واحدة تنعزل بحاضرها ووعود مستقبلها عن سائر الأمم : وعيسى عليه السلام قد نقل الرسالة نقلة واسعة حين أدخل أبناء إبراهيم بالروح فى عداد أبنائه بالجسد ولكنه أدى رسالته وبقى الإنسان بعده محتاجا أشد الحاجة إلى رسالة تخلصه من الاعتماد على غيره فى النجاة من أوزاره والتكفير عن سيئاته والنهوض بتبعات صلاحه وتربية روحه ، ولن تفرغ أمانة النبوة فى تاريخ الإنسانية قبل أن توجد للإنسانية فكرة عامة فى نفوس أبنائها ، ولن تختتم النبوات قبل أن يوجد الإنسان الذى يخاطب بخطاب العقل ويحاسب بحسابه ويحمل تبعاته على عاتقه ويشترك على سواء بينه وبين إخوته من البشر فى عبادة إله واحد هو رب العالمين أجمعين ، وليس بالرب الذى

يخلق لعمته لسلالة واحدة من خلقه أو لعشيرة واحدة يدركها الخلاص بفضل لم تفضله . وحساب لم تضعه فى موازينها بعمل يمينها .

فلما جاءت نبوة الإسلام صح فى حكم العقل أن تختتم بها النبوة لأنها حاضرة فى كل وقت يحضره الإنسان العاقل المسئول وتحضره آيات الله لقوم يعقلون : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » .

ونقول : إن ختام النبوة - بعد الدعوة المحمدية - قد صح فى حكم العقل . ولنا أن نقول كذلك : إنه قد صح فى حكم الواقع والتاريخ ، فإن العالم الإنسانى الذى تعاقبت فيه النبوات قبل محمد صلوات الله عليه لم تظهر فيه نبوة مسموعة بعده ، ولم يظهر فيه غير أدعياء النبوة الذين ذهبوا ولم يستمع إليهم أحد فى حياتهم أو بعد مماتهم ، ولم يظهر فيه من أولئك الأدعياء أنفسهم من يستند إلى رسالته لا يحيلها إلى النبوة الإسلامية بقواعدها وأركانها .

* * *

إن اختتام محمد للنبوات عقيدة يصدقها المسلم بوحى إيمانه ، ولكنها كذلك حقيقة علمية يفهمها بفكره ويشهد دلائلها فى العصور الغابرة كما يشهدها فى عصره مؤتمراً بأوامر دينه .

وإنه ليطيب للكثيرين من أبناء العصر الحاضر الفخورين بعلومهم ومخترعاتهم أن يهتفوا قائلين : (نحن فى عصر العلم . . نحن فى عصر العقل . . نحن فى عصر الحقائق الواقعة . . نحن فى عصر آيات الطبيعة) .

فليهتفوا بذلك ما طاب لهم أن يهتفوا ، وليذكروه ويعيدوه تحديا لما شاءوا من النبوات إلا النبوة التى ختمت جميع النبوات . لأنها هى قالت للناس قبل أربعة عشر قرنا ما يقولونه الآن . وهى أوحت إليهم أنهم يعيشون بعد اليوم بهداية بصائرهم ، وما يبصرونه من آيات تلك الهداية فى مشاهد الطبيعة ، وأسرار الخلق ، وبراهين العيان .

وكل أعجوبة من أعاجيب العلم فهى جزء من معجزات هذا الدين ، الذى جاء به خاتم النبيين : « وأبصر فسوف يبصرون » .

عباس محمود العقاد

موقف الإسلام من التطور الاجتماعى
وفقا لمقتضيات العصر

للأستاذ الدكتور محمد البهى

لكى يتضح الكلام فى هذا الموضوع يجب أن يشرح أولا : معنى التطور الاجتماعى ، ويشرح ثانيا : مقتضيات العصر .

معنى التطور الاجتماعى :

والتطور الاجتماعى هو تطور علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، بحيث يكون الجانب الاجتماعى ، أو بحيث تكون النظرة إلى رعاية الفرد للفرد لا تقل عن رعاية الفرد لنفسه . التطور الاجتماعى هو نمو علاقات الأفراد فى دائرة المشاركة الوجدانية ، والتعاون فى سبيل العمل المثمر والخير العام للجميع ، بدلا من استمرار « الفردية » وتحكم الأنانية التى توحى بها طفولة الفرد ، وطفولة المجتمع .

ولكى ندرك معنى التطور الاجتماعى إدراكا لا لبس فيه نعود إلى الجماعات البدائية ، التى لم تع بعد العلاقات المشتركة ، ولم تقر بعد بالوجود المشترك بين الأفراد ، ولم تقر كذلك بالهدف المشترك الذى يصح أن يجتمع عليه فريق من الناس . وجملة من الأفراد ، ويقيمون بسبب ذلك « مجتمعا » بينهم يسعون جميعا لتحقيق هدفه ، والتعاون جميعا فى سبيل بقائه .

إن الإنسان البدائى لا يكون مع إنسان آخر بدائى مثله « مجتمعا » وإنما يتكون منه ومن نظيره « مجموع » تخضع العلاقات بين الأفراد فيه للأنانية ، ولغريزتى حب البقاء ، والدفاع عن النفس دون سواهما من الغرائز الاجتماعية الكامنة فى الإنسان والتى لم تبرز بعد بتأثير التوجيه والإيقاظ . ومن ثم لا تعرف هذه العلاقات السلم إلا عند مواجهة ضعيف لقوى بين الأفراد ، أما قاعدة التعامل فهى الاحتكاك عند السعى نحو ما يسد حاجة البطن أو ينفس عن شهوة الفرج . ليست هناك علاقات فى واقع الأمر بين أفراد المجموع إلا بمقدار ما يقع بينهم من احتكاك واصطدام من أجل تحقيق ما أشرنا إليه من هدف : ليست هناك علاقات أسرية . أى ليست هناك علاقات أبوة وبنوة وأمومة ، وأخوة . إلى بقية أنواع القربى فى الأسرة ، التى تقوم على الدم المشترك ، والوراثة العقلية والمادية ، والوضع الذى لهذه الأسرة . نعم

ينسل الأفراد بصلة الذكر بالأنثى بحكم التفاعل الطبيعى بين الموجب والقابل . ولكن قلما يوجد الشعور بنوع القرابة الأسرية . على معنى أنه قلما توجد هناك رعاية من أب لابنه، أو رعاية من ذكر لأنثى أنتج منها ولداً . وعلى معنى أنه قلما يوجد هدف هو المحافظة على الأسرة ، بالسعى فى توفير العيش لها ، وبالدفاع عن أفرادها ، إن احتاج الأمر إلى الدفاع عنها، وصيانتها من الإبادة أو الإفناء . بل كثيراً ما يصطدم الذكر الأب بالأنثى الأم ، أو يصطدم الأب بابنه ، والأخ بأخيه فى سبيل الحصول على لقمة العيش . وكثيراً لا يعرف الذكر عند الاجتماع بالأنثى حرمة لأمه ، ولا لأخته ، ولا للأخريات اللواتى لا يقر « المجتمع » نكاحهن من أفراد معينين لأنهن محارم لهم . ولهذا ليس هناك حد لتعدد الزوجات . وليس هناك إطار للحل والحرمة فى التزاوج . بل ربما لا يوجد رقم معروف يحدد الأفراد الذين ينتمون إلى نسل رجل واحد فى علاقته بعدد من الإناث .

فإذا ما ابتدأ الأفراد يحددون علاقاتهم بعضهم ببعض . ويدركون الإطار الذى تدور فيه هذه العلاقات ـ هنا يبتدئ قيام « المجتمع » ، وكلما تحددت علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، وكلما وضح الإطار الذى تدور فيه هذه العلاقات ، وبالتالى وضحت الأهداف والغايات التى يسعى إليها هؤلاء الأفراد ـ كلما برز المجتمع ، وكلما وضحت الأمارات مع وجوده القوى .

فإذا أدرك أفراد الأسرة فعلا علاقات بعضهم ببعض ، وارتبطوا فيما بينهم على أساس من التعاون والرعاية المتبادلة عند الأزمات التى تجد بينهم ، أو تطرأ عليهم من غريب عنهم ، وعرفوا حدود ما يجب أن يفعل ، وما يجب أن يترك فى سبيل هذا التعاون وفى سبيل تلك الرعاية ، ووقفوا على أن لهم جميعا هدفا واحدا هو أن تبقى أسرتهم ، وتبقى قوية عزيزة ، فى مواجهة غيرها من الأسر ـ هنا يكون الوعى الاجتماعى قد تيقظ بين أفراد هذه الأسرة وأخذ طريقه نحو غايته ، ينتقل من مرحلة إلى مرحلة أقوى منها ، حتى يصل الأمر بينهم إلى تكتل أو وحدة .

وإذا ما تجاوبت أسرة مع أسرة فى العلاقات ، وارتبطت معها فى الهدف ـ هنا يكون المجتمع الكبير قد تأسس . فإذا ما اتسع نطاق العلاقات المشتركة ، والترابط إلى عدد من الأسر ، أو إلى كثير من الأفراد ـ عندئذ يكون المجتمع الإنسانى قد قطع جملة من المراحل فى سبيل وجوده ، وفى سبيل بقائه أيضا .

وهكذا : النمو الاجتماعى يسير فى اتجاهين: بينما يتجه نحو الامتداد والاتساع ، يتجه أيضا نحو العمق والغور . أى فى الوقت

الذى يسعى فيه إلى جمع أفراد كثيرين ، يسعى أيضا إلى تعميق العلاقات بين هؤلاء الأفراد ، وتقوية الروابط الإنسانية المشتركة بينهم . وعمق العلاقات بين الأفراد ، وقوة الترابط الإنسانى بينهم يبدو أولا : فى التعاون المثمر ؛ وثانيا : فى المحبة والأخوة . وبعبارة أخرى يبدو هذا وذاك فى تحقيق أهداف الإنسانية وهى التحرر من السيطرة الحيوانية ، وسيطرة الغرائز ، وسيطرة الطفولة ، على العلاقات بين الأفراد .

مقتضيات العصر :

وإذا كان التطور الاجتماعى هو التحرر من سيطرة الحيوانية ، والغرائز والطفولة البشرية ، أى التحرر من سيطرة الفردية والأنانية ـ فمقتضيات العصر إن كانت دافعة على هذا التحرر تكون من عوامله ويكون التطور عندئذ أخذ طريقه الطبيعى نحو غايته الأخيرة ، وهى الإنسانية فيما تتميز به من محبة ، وتعاطف ، وتواد بين أفرادها .

وبذلك تحدد مقتضيات العصر تبعا لتحديد معنى التطور الاجتماعى نفسه ، وليس تبعا لما يوضع من رغبات ، ويوجه المجتمع نحوها بعض الكتاب والمفكرين .

فالطائفية ، والحزبية ، والمذهبية ، والعصبية ، والقبلية ، لا تعد من مقتضيات العصر .

وتحرير المرأة ، على معنى تمكينها من أداء وظيفتها فى الأسرة كأم ، وفى المجتمع كعضو يقع عليه عبء تمليه طبيعته كأنثى ـ من مقتضيات العصر .

والدعوة إلى تعاون الزوجين ، وإلى منع التعسف ، والتحكم من القوى ضد الضعيف ، وإلى البر ، والتهذيب فى معاملة كل منهما للآخر من مقتضيات العصر .

والدعوة إلى عدم إساءة استعمال الحق ، فى الجوار والمعاملة ـ وبالأخص بين الزوجين ـ من مقتضيات العصر .

لكن الدعوة إلى تحرير المرأة ، على معنى أن تكون رجلا آخر فى صورة امرأة ، فذلك ليس من مقتضيات العصر ؛ لأنه ضد طبيعة المرأة نفسها ، وضد التطور الاجتماعى ذاته . إذ التآلف ، والتواد ، والمحبة بين الأفراد ، التى هى نهاية التطور الاجتماعى ، لا تتحقق إلا إذا وقع انسجام بين الأفراد وتحول فيما بعد هذا الانسجام إلى تآلف ، وتواد ، وتحاب . والانسجام لا يكون بين متشابهين تماما . بل كلما كانت هناك مفارقة بين الطرفين ، وكلما كان هناك خروج عن التشابه التام بينهما ـ كان ذلك أدعى إلى الانسجام بينهما . إذ عندئذ تكون حاجة كل منهما إلى الآخر أمراً واضحا . وبذلك يكون « التعويض » ، والتعويض مبدأ دورى

فى الحياة ، لأنه يتجاوب مع مبدأ آخر هو أصل الحياة نفسها وهو « الثنائية » : الفاعل والقابل . والموجب والسالب . فلولا هذه الثنائية ، ولولا هذا التقابل بين القابل والفاعل . والموجب والسالب لما اجتمع أمران . ولما وقع انسجام فى الحياة إطلاقا.

إن « التشابه » التام بين شيئين سبب من أسباب الاحتكاك والاصطدام ، وليس سببا من أسباب الالتقاء والانسجام . إذ عندئذ كلاهما لا يشعر بحاجة إلى الآخر . أو كلاهما لا يرى أن به فراغا يسده الطرف الآخر . فطبيعة الرجل والمرأة فى الإرادة أو عدم الإرادة مدعاة إلى التفرقة بينهما وليس إلى اللقاء والانسجام ، رغم أن هناك مفارقة أخرى بينهما هى الذكورة والأنوثة . والتشابه فى الصفات الجسمية وفى تكوين البدن ، وفى ملامح الوجه بين الرجل والمرأة . سبب من أسباب الفرقة ، وإن كانت هناك مفارقة أخرى هى الذكورة والأنوثة ، فالمرأة تريد رجلا. أى تريد إنساناً مقابلا لها فى الخصائص النفسية والبدنية . والرجل يريد امرأة ، أى يريد إنسانا مقابلا له فى الخصائص النفسية والبدنية . عندئذ يكون اللقاء بينهما أمرا طبيعيا ، ويكون الانسجام بينهما ظاهرة اللقاء الأول. أى رجل يريد امرأة تكون لها عضلات الرجل ؟ وأى رجل يريد امرأة تتجرد عن عاطفة الأنوثة. وتكون لها الإرادة الصلبة التى للرجل ، ذلك الإنسان الذى مارس الحياة ، وارتاد صعابها وأزماتها ؟ وأية امرأة تريد رجلا له التكوين الرقيق الذى للأنثى فى عضلاتها ؟ وأية امرأة تريد رجلا تسيطر عليه العاطفة فيكون مترددا فى قوله وفى تصرفاته؟ يميل حسبما تتجه به الريح ، وحسبما يكون التأثير عليه .

وهنا تكون « الرياسة » أو « القيادة » فى المجتمع [illegible] الطبيعية هذا المبدأ [illegible] الطبيعى [illegible] الأفراد جميعا أرادوا ان يكونوا رؤساء لما كان إلا احتكاك بينهم . ولو فرض أنهم جميعا مرءوسون بدون رئيس لما كان هناك مجتمع، ولما كان هناك سبب يحملهم على الانقياد فى اتجاه واحد ، وغاية واحدة . وعندئذ يكون الاحتكاك والاصطدام السائد على العلاقات بينهم إن كانت هناك علاقات .

وهنا ندرك : لماذا يعبد الله ؟ ولماذا يجب على الناس جميعا أن يخضعوا لقيادة موجه واحد ، هو الله سبحانه وتعالى : .

إن عبادة الله يفرضها هذا المبدأ الطبيعى للوجود . وهو مبدأ « التقابل » الذى هو

أصل الانسجام فى الحياة ، ومطلوب الإنسان فى حياته أن يكون منسجما مع نفسه ومع من عداه فى وجوده الخاص والعام :

والتطور الصناعى فى وقتنا المعاصر إذا كان فى خدمة الإنسانية فهو فى خدمة التطور الاجتماعى، وعندئذ يكون من مقتضيات العصر.

ومعنى كونه فى خدمة الإنسانية أن يبقى الإنسان ذا سيادة ، وألا تكون الآلة هى السيد . معنى ذلك أن يستخدم الإنسان الآلة فى رفع مستوى معيشته ، وفى وضعه الاجتماعى وفى تخفيف المرض ، وفى إزالة الجهل والأمية وفى التنوير والتبصير بالحياة والكشف عنها لا أن يكون عبدا ذليلا لها تفرض عليه الرق والعبودية ، ويكون مسخرا لها ، إذ عندئذ تصبح مصدرا للقلق والاضطراب ، وبذلك تكون معوقا له عن أن يصل إلى الهدف الأخير للتطور الاجتماعى ، وهو التعاون ، والتواد ، والتحاب بين الناس جميعا .

الإسلام وموقفه من التطور الاجتماعى وفقا لمقتضيات العصر :

الإسلام هو رسالة السماء إلى البشر على هذه الأرض ، هو رسالة الله للناس جميعا ، لا فرق بين عربى وأعجمى ، أى لا فرق بين فرد وآخر ، جاء ليهدى البشرية إلى الطريق الذى يصل بها إلى تحقيق معنى الإنسانية فى حياة الإنسان

فإذا كان معنى الإنسانية الأخير — كما شرحنا — هو لقاء الإنسان بالإنسان ، ومودة الإنسان للإنسان ، وأخوة الإنسان للإنسان . وتعاون الإنسان مع الإنسان ، ومحبة الإنسان للإنسان — فالإسلام جاء ليوقظ فى الإنسان هذه المعانى وينميها فيه ، ويحثه على رعايتها وعلى أن يتمثلها فى سلوكه وتصرفاته .

الإسلام جاء ليدفع الإنسان إلى الخروج من الطفولة البشرية إلى الرشد الإنسانى ، أى أنه جاء لتطوير المعنى الإنسانى فى الإنسان جاء لتطوير المعنى الاجتماعى فى الإنسان ، فليس المعنى الإنسانى إلا ذلك الترابط الاجتماعى . وإلا تلك العلاقات بين الأفراد التى تؤسس على التعاون ، وعلى شتى أنواع الرعاية بينهم . وقد رأينا أن معنى البدائية هو التفكك فى العلاقات بين الأفراد ، أو هو سيطرة الأنانية « والفردية » أو بعبارة أخرى سيطرة الحيوانية والغرائز ، دون ما يتميز به الإنسان من خصائص وينفرد به عن بقية الكائنات الأخرى الحية التى لها الحركة والتى لها السعى فى سبيل حب البقاء .

الإسلام جاء فحث على التعاون فقال . « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » حث على البر فقال : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق

والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » . حث على الإحسان فى المعاشرة فقال : « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها » وعلى الأخص بين الزوجين فقال . « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » حث على العدل فقال : « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا » حث على رعاية البشرية وصيانتها من الظلم والعسف فقال : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

كل هذا وغيره مما حث عليه الإسلام هو دفع لنمو العلاقات الاجتماعية ، والتطور الاجتماعى . ورسالة الإسلام تكاد تنحصر فى أمرين : ضغط الأنانية وكبت الفردية من جهة ، وإيقاظ المشاركة الوجدانية وتنمية العلاقات الاجتماعية من جهة أخرى . رسالة الإسلام هى إبعاد الطفولة الإنسانية عن تصرفات الإنسان ، وإحلال الرشد الإنسانى محل هذه الطفولة ليبقى الإنسان متميزا ، وتبقى له الكرامة والسيادة .

فالإسلام إذ يقول : « ولقد كرمنا بنى آدم » . لا يقصد بتكريمهم إلا أنه ميزهم عن غيرهم بالخصائص الإنسانية . والله إذ أرسل الرسل برسالته لم يقصد إلا أن يمكنهم من الطريق الذى يهديهم إلى تحقيق هذه الخصائص فى سلوكهم وتصرفاتهم .

وبهذا إذا فهم التطور الاجتماعى على نحو ما شرحنا ، وفهمت مقتضيات العصر فى ظل التطور الاجتماعى - كان الإسلام مصدر دفع لهذا التطور ، مصدر تقدير لهذه المقتضيات التى من شأنها أن تدفع إلى هذا التطور .

أما إذا أريد بالتطور الاجتماعى مذهب سياسى خاص ، أو مذهب سياسى معين فالإسلام نظام مستقل يتلاءم مع ما يتفق معه فى الهدف والخطة ، ويتنافر مع ما يختلف معه فى هذا وتلك .

وإذا أريد بمقتضيات العصر ضروب خاصة من التصرفات فى المجتمعات القائمة - فقبل أن يحدد موقف الإسلام : سلبا أو إيجابا منها ، يجب توضيحها أولا .

والإسلام على كل حال ليس إلا ذلك النور الذى يهدى إلى الصراط المستقيم . وليس الصراط المستقيم إلا ذلك الطريق الموصل إلى غاية الإنسانية . وهى التواد ، والتعاون ، والتآخى ، والمحبة ؟

الدكتور محمد البهى
المدير العام للثقافة الإسلامية

مقومات الروحية أمام المادية العالمية

بقلم الأستاذ محمد محمد المدنى

— ١ —

إن مقوماتنا الروحية ومقوماتنا المادية ، كلاهما متماسك مع الآخر ، متعاون معه ، غير منفك عنه .

وهما بهذا التماسك وهذا التعاون ، يسايران وضعا فطريا طبيعيا فى الإنسان وفى الحياة التى يجب أن يحياها ، ليؤدى الرسالة التى من أجلها خلق ، ومن أجلها جعل خليفة فى الأرض .

وهذه ميزة نمتاز بها عن كل الذين يفصلون بين المادية والروحية ، فيجعلون ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله . إننا نجعل المادة والروح كليهما لله ، وفلسفتنا فى الحياة قائمة على ذلك .

فالإنسان من حيث الخلق مادة وروح : مادة عناصرها الجسم بجميع أعضائه وأجهزته تحتاج إلى روافد مادية تغذيها وتنميها ، وتعينها على العمل والبقاء المقدر لها . وروح عناصرها النفس والعقل والشعور . تحتاج إلى معان . تكون روافد لها أيضا ، تغذيها وتنميها وترضيها .

فليست حاجة الإنسان إلى المعانى التى ترضى جانبه الروحى ، بأقل من حاجته إلى المواد التى ترضى جانبه الجسمى .

والحياة لا يستقيم أمرها بالمادة وحدها ، ولا بالروح وحدها ، ولذلك لم يستخلف الله فى الأرض ملائكة « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » أو — بعبارة أخرى — لم يستخلف هذا الخلق الروحانى الصرف ، كما لم يستخلف خلقا مادياً صرفا ، وإنما استخلف هذا الصنف من المخلوقات وهو آدم ونسله ، بعد أن هيأهم على نحو ثنائى ، أو طبيعة مزدوجة من المادة والروح .

* * *

وقد اشتهر بين الناس : أن المسيحية تجنح إلى الروحية ، وأن اليهودية تجنح إلى المادية ، أما الإسلام فيجمع بينهما

فإن كان المراد بهذا : أن الأديان نفسها تختلف فى سياستها نحو الإنسان ، فلست أعتقد أن هذا صواب ، فإن الدين واحد ، والديان واحد ، وهو الذى خلق الإنسان ، وخلق الحياة ، وشرع للإنسان ما يتفق وطبيعته ، وما تستقيم معه شئون الحياة .

ولكن ينبغى أن يصحح هذا القول فيقال:

إن المسيحيين هم الذين تصوروا المسيحية هكذا ، روحا فقط ، وذلك أن المسيح

أرسل من الله تعالى فى ظروف اقتضت أن يقاوم سلطان المادية العاتية السائدة فى الناس ، فبرزت التعاليم التى تتمشى مع ذلك ، وجرت على لسانه الأقوال التى تصوره داعية للون خاص من التسامح ، وطلب المغفرة للذين يسيئون ، والتطلع إلى السلام والهدوء ، فظنوا أنه لا شىء فى دينه إلا ذلك ، وأنه لا صلة للرسالات الإلهية بتنظيم الحياة المادية ، ورسخ هذا الظن فى الناس حتى استقر عليه الأمر فى فلسفة الغرب عامة ، وبذلك فصل بين الكنيسة والدولة. وقيل اتركوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله .

أما اليهودية فقد جاءت والخوف مسيطر على المجتمع الذى أرسل موسى إليه ، فقد كان فرعون يكثر الأنفاس ، ويقتل الأبناء ، ويستحيى النساء ، يزعم أنه هو الإله الذى يجب على الناس أن يعبدوه ويطيعوا أمره فى إخلاص وصدق .

ولذلك نجد ألفاظ «الخوف» تتردد كثيراً فى قصة موسى : فأمه قد أصبح فؤادها فارغا من شدة الخوف حتى قال الله لها : «فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى» وموسى حين يتلقى رسالة ربه يرى العصا تتحرك فيخاف فيقول الله له : «يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين» . «إنى لا يخاف لدى المرسلون» ويقول لربه : «فأخاف أن يقتلون . فأرسله معى ردءا يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون» ويقول الله له ولأخيه : «لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى» ومن قبل ذلك قال الله عن موسى : «فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب» . إلى غير ذلك من الآيات التى تتحدث عن مواطن اشتد فيها الخوف نتيجة لما كان منبثا من الظلم والطغيان .

وقد اقتضى ذلك انصراف الناس عن المعانى الروحية ، واشتغالهم بالنواحى المادية التى من شأنها أن تقيهم غوائل الظلم والبغى ، فبرزت فى حياة أتباع موسى هذه الجوانب المادية التى جاءت فى الأصل كتعويض ومقاومة ، فظن الناس أن اليهودية مادة صرف ، واشتهر هذا عند اليهود أنفسهم وعملوا به فاصطدموا بالعالم ، واصطدم بهم العالم ، فازدادوا خوفا وتصوروا أنهم مظلومون وأن العالم عدو لهم ، فنقموا عليه ، وعملوا على حذق جميع الأساليب المادية التى قدروا أنها تحميهم من العالم ، وعملوا فى الوقت نفسه على بث وسائل الحرب والتدمير والتخريب فكانوا هم تجار الأسلحة ، ودعاة الحروب ، وعناصر الفتنة فى كل جانب من الأرض .

وما كانت اليهودية فى أصلها كذلك ، وإنما كانت دينا هاديا ، وكتابا سماويا يتضمن رسالة إلهية ، وفى القرآن الكريم : «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا» .

* * *

أما نحن - المسلمين - فقد فهمنا ديننا على ما هو

عليه من رعاية لجانبي الروح والمادة جميعا ، فهمنا ذلك وأقررناه وسرنا فى شئون حياتنا عليه ، وأيدتنا تجاربنا التاريخية حيث رأينا كل من أهمل الروح إلى المادة أو المادة إلى الروح ؛ لم يصب خيراً ، ولم يأت بإصلاح ذى بال .

أما الذين زاوجوا بين الروح والمادة ، وأخذوا من هذه بقسط ومن تلك بقسط ، حسب تشريع الله وما استحبه لعباده ؛ فهم الذين نجحوا وأفلحوا وقادوا وسادوا ، وأفادوا واستفادوا .

ولذلك كان السيد الرئيس جمال عبد الناصر ـ أيده الله تعالى ـ موفقا تمام التوفيق حين قال فى بعض خطبه : إننا نقيم صرح نهضتنا على أساسين : هما المادة والروح ، ونعطى كلا منهما حقه من الاعتبار ، فكما يجب علينا أن نبنى المصانع ، ونفتش عن الحديد والبترول ، يجب علينا أيضا أن نبنى الرجال ، ونفتش عن الأخلاق ، ونعرف للدين منزلته ودوره العظيم فى بناء المجتمع .

إن هذا المعنى الذى أشار إليه الرئيس جمال منبثق من القرآن الكريم ، وحسبنا أن نقرأه لنجده فى مئات المواضع يقيم الحياة على هذين الأساسين ، ويدعو المؤمنين إلى أن يطيروا فى آفاقها بهذين الجناحين ، ولنضرب لذلك مثلا فى آية مشهورة ، هى قوله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين » . فهذه الآية تذكر نصيب الآخرة ، ونصيب الدنيا ، أى نصيب الروح ، ونصيب المادة . ولكنها تخرج الأمر فى ذلك على نحو من الإدماج بينهما فتقول : « فيما آتاك الله » فالمادة معبر عنها بلفظ « ما آتاك » والروح هى فى إسناد الإيتاء إلى الله حيث قال : « فيما آتاك الله » .

وقوله تعالى : « وأحسن كما أحسن الله إليك » هو أمر بالإحسان المادى ، سواء أكان صدقة ، أم صدقا فى الحديث ، أم حسن معاملة أو سلوك . . إلخ . . ولكن فى تسميته « إحسانا » إشعار بالمعنى الروحى ، وكذلك قوله تعالى « كما أحسن الله إليك » هو تذكير بأن المحسن حين يحسن إنما هو مستند فى إحسانه إلى ما أحسن الله إليه ، شاكر له تعالى على الإحسان بالإحسان .

وقوله تعالى « ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين » فيه نهى قوى عن الفساد ، من حيث إنه قال « ولا تبغ » أى لا تقصده ولا تحبه فضلا عن أن تفعله . ومن حيث إنه سماه فسادا ليصرف عنه النفوس ، ومن حيث إنه أعلن فى تأكيد أن الله لا يحب مرتكبيه ، ونفى الحب مؤذن بشديد المؤاخذة ، دون أية رحمة .

فالآية تتحدث عن الجانبين ، ولكنها لا تسمح بأن تتسرب إلى هذا الحديث روح

تشعر بالانفصالية حتى فى الجملة التى تذكر فيها المادة وحدها ، وفى الجملة التى تذكر فيها الروح وحدها ! .

* * *

من هذا يتبين أن مركز الإسلام هو المركز الوسط بين الانفصالية فى هذا الجانب أو ذاك .

وأنه هو المركز الطبيعى الفطرى الملائم لخلق الإنسان ، ولخلق الحياة على طبيعة الازدواج .

وأن الإسلام هو إصلاح فى ذلك لما انتهت إليه المسيحية ، ولما انتهت إليه اليهودية .

وأن مصلحة البشرية جمعاء فى أن تأخذ بالمبدأ الذى أتى به الإسلام . دون أن يصرفها عنه تعصب دينى ، فإن الإسلام فى هذا مطابق لغيره فى الواقع :

« وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق » .

* * *

وبعد أن عرفنا حقيقة الوضع الفطرى والدينى والحيوى للإنسان وأنه لابد من مادية بجانب الروحية ، أو من روحية بجانب المادية ، فإننا نذكر « مقوماتنا الروحية » موازنين بينها وبين ما عليه العالم من مادية مظلمة تكاد تفضى به إلى الدمار .

ومقوماتنا الروحية يمكن إرجاعها إلى ثلاثة مقومات هى الينابيع التى تستقى منها سائر المقومات :

(١) الإيمان بالله .

(٢) الإيمان بالنفس .

(٣) الإيمان بالمثل العليا .

ولنتحدث عن كل واحد من هذه الثلاثة حديثا إجماليا :

(١) الإيمان بالله قوة عاصمة هادية ، فوق أنها تمد الإنسان بالسعادة والطمأنينة .

إن بعض الناس يتصور أن الإيمان بالله وما يقتضيه هذا الإيمان من التزام بالدين : عقائده وشرائعه ، إنما هو تكبيل للنفس وتقييد لها ، وأن الناس قد وجدوا ليكونوا أحرارا ، ولينطلقوا فى الحياة على طبيعتهم ، فليس من مصلحتهم أن يقيدوا بقيد خارج عنهم وعن آفاق تفكيرهم ومراحل تجاربهم ، وإلا فما معنى أن نفرض على الإنسان ذاتا يجب عليه أن يرهبها وأن يراقبها فى كل صغيرة من الأمر أو كبيرة ، أو أن يتملقها ويترضاها ويعمل من أجل ثوابها ؟ إن الرهبة مضعفة للإنتاج والتثمير ، وأن الرغبة والملق مفسدان للشخصية مضعفان لها .

ولذلك يقول هؤلاء : اتركوا الناس لأنفسهم ولا تحاولوا أن ترهقوهم بملاحظة القوة الخفية المخيفة التى أعدت دار العذاب ، أو القوة المانحة المنعمة التى أعـــدت دار الثواب .

وإننا نقول لهؤلاء : لقد أثبت علماء

النفس عن طريق الملاحظة والتتبع أن الفراغ محال ، ومعنى ذلك أن العقل البشرى لا يمكن أن يفرغ ويخلو من الشيء وضده ، فإذا خلا من الإيمان بالله ، اشتغل تلقائيا بالإيمان بسواه ، فلا تتصوروا أن الذى يخلو قلبه من الإيمان بالله يظل خاليا من الإيمان بشيء آخر ، ولكنه سيؤمن بنواح أخرى تضاد الإيمان بالله ، سيؤمن مثلا بهواه فيشبع هذا الهوى على نحو بهيمى ليس له ضابط ، وسيجر بذلك على نفسه وعلى غيره ألوانا من الشقاء والبلاء .

سيؤمن مثلا بالمال فيجعله إلهه المعبود ، فيكون كهؤلاء اليهود الذين يتهيجون فى سبيل المال كل شيء ويهدمون فى سبيل الحصول عليه كل معنى شريف .

سيؤمن باللذة ، فيشرب ويفسق ويتحلل فتضيع بذلك شخصيته ويصبح مصدر خطر على المجتمع أو مصدر ضعف وانحلال فى هذا المجتمع .

والقرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى فيقول : « فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ؟ » أى أنه لا فراغ ، ولا يمكن أن يرتفع النقيضان .

ويقول : « أرأيت من اتخذ إلهه هواه ؟ أفأنت تكون عليه وكيلا ؟ . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » .

وهذا تقرير لحقيقة ثابتة ، أو سنة من سنن الله التى لا تتحول ، وهى أن الذى يضل سبيل الله يقع من حيث يريد أو لا يريد فى مهاوى التخبط ويصبح كالحيوان الأعجم ، بل أضل من الحيوان الأعجم سبيلا ؛ لأن الحيوان الأعجم محكوم إلى حد ما بسنن فطرية فيه ، تجعله يقف عند حد فى تلبية دواعى خلقته .

ثم إن المؤمن بالله يشعر بعزته وكرامته بين بنى جنسه ؛ لأنه مؤمن بأنه (لا إله إلا الله) وهذه قضية معناها : ليس فى الوجود من يستحق أن يخضع له بحق دون شك ، ودون أية محاولة للعصيان ، إلا الله ، وليس فى الوجود من يجوز أن يذل له الإنسان ، إلا الله .

وإذا كان هذا هو معنى قضية التوحيد فلا يجد المؤمن بنفسه حاجة إلى أن يذل لما سوى الله ، بل يشعر بأنه هو وجميع المخلوقين عباد الله متساوون أمام ربوبيته ، خاضعون لألوهيته ، وبذلك يحتفظ بعزة نفسه ، وكرامته بين بنى جنسه .

ثم إن المؤمن الذى يشعر بأن عليه رقيبا يراه فى كل حال ، ويعلم ما تنطوى عليه نفسه ، وما تؤديه جوارحه ، يندفع إلى العمل الصالح ، وينتهى عن العمل الضار ، وليس صحيحا أن هذا الاندفاع إلى العمل الصالح ، أو الانتهاء عن العمل الضار من شأنه أن يفسد شخصية الإنسان ، لأنه صادر

عن رغبة أو رهبة ، فإن هذه سطحية فى التفكير ؛ إذ الإنسان مخلوق مفطور بطبعه على الانسياق وراء عوامل الرغبة والرهبة ، والذى خلقه وفطره عرف كيف يسوسه سياسة ملائمة لطبيعته ، وماله من غرائز ، وهؤلاء وأمثالهم إنما يتشدقون بمثل قولهم تضييع شخصيته ، أو « تتحطم إرادته » أو نحو ذلك ، ولو تأملوا فى أنفسهم ، وخبروا أحوالهم . لعرفوا أن الواحد منهم لا يكاد يؤدى عمل بر إلا وهو منتظر عليه جزاء من الناس فإذا قطع بأنه لا جزاء عليه من الناس لم يفعله ، أما المؤمن فإنه ينتظر فى كثير من الحالات جزاء ربه فقط ، لأنه يحسن فى حالات لا يراه فيها إلا الله ، وفى حالات لا يستطيع أحد أن يكافئه فيها إلا الله .

وفى العالم الآن دعوة متحللة إلى ما يسمونه (الوجودية) هدفها الخروج بالناس عن دائرة الإيمان بالله . على أساس ما ذكرناه من فلسفتهم الباطلة التى تريد من الإنسان أن يحيا للحياة ، وألا يعترف إلا بوجود نفسه ، ومقتضيات هذا الوجود المادى فقط ، وقد تناسوا طبيعة الإنسان المزدوجة التى شرحناها ، ولو كانوا منطقيين مع أنفسهم ومع ما يزعمون من مراعاة « وجود الإنسان » لأخذوا هذا الوجود من الناحيتين كليهما ، ولعرفوا أن الإنسان يجب عليه أن يلبى دواعى فطرته فى كل من المادة والروح لا فى أحدهما فحسب ، وإلا كان وجوده نصفياً أعرج

وأغلب الظن أن هذه الدعوة الانحلالية دعوة صهيونية هدفها تحطيم الإيمان بالقوى المعنوية ، ثم جر الناس إلى المادية الإباحية ليسهل شراء الأفراد من حكام ومحكومين بالثمن البخس من المال أو المراكز أو الشهوات فإنه لا يقف أمام هذه الصفقات الخاسرة إلا الإيمان بالله ، فإذا زال الإيمان بالله زالت جميع مراكز المقاومة فى الإنسان أو تزلزلت وسهل انهيارها .

وكذلك شأن المجتمعات التى تقوم على المذاهب المادية حتى لو أحرزت تقدما فى ميادين العلم والصناعة .

ولا أقول ذلك تفضيلا لمبادئ « الرأسمالية » والدول الغربية ، كلا فإن لها أيضا عيوبها ، ولكنها عيوب يمكن علاجها والتفاهم على تطهير العالم منها ، وهو ما اتجه الناس إليه بعد الحربين العالميتين من محاولة لإيجاد رأى عام دولى تمثله هيئة الأمم أو ما يشبهها .

وهذا النظام قد سبق به الإسلام ، إذ أمر بأن يصلح بين المختلفين ، فإن بغى أحد على أحد كان على الجماعة كلها أن تتعاون على رده عن بغيه . فإذا فاء إلى الحق كان عليها ألا تتخذ فيئه سببا فى ظلمه واهتضامه : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى

(البقية على ص ٢٨٦)

والمراءون المنافقون فى الدرك الأسفل من النار (١) .

فهل يحاسب كل مسلم نفسه ويستفتى سريرته وقلبه . . . ليعلم مكانه .

على المسلمين أن يحتفلوا بذكرى نبيهم ونبى الإنسانية فى يوم مولده . ولكن عليهم أن يعملوا فى كل يوم ، عمل أهل الإسلام كما وصفهم الله فى كتابه العزيز وكما توحى لهم به سيرة النبى الكريم وشمائله الطاهرة .

ولعل المسلمين ، وهم يحتفلون فى بقاع الأرض بمولد صاحب أعظم النبوات وآخر الرسالات وأكرم الصفات ، أن يؤوبوا لنفوسهم ، وأن يفيئوا لأمر الله . فيعلموا أنهم سيكونون مسلمين حقا حين يجدون فى سرائرهم وقلوبهم وضمائرهم أثر هذه النبوة والرسالة والخلق ، كما أمرهم الله أن يكونوا : خير أمة أخرجت للناس .

حين يعرفون أن الإسلام حقيقة وجوهر ، وحين يحرصون على هذه الحقيقة وهذا الجوهر فيحققوها - أو يحاولوا تحقيقها - فى حياتهم ومجتمعهم .

« أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ، إنما يتذكر أولو الألباب (١) .

محمود الشرقاوى

سكرتير التحرير

(١) ١٩ : الرعد

(١) يقول الأستاذ الإمام محمد عبده فى تفسير هذه السورة : « إن كثيرا من الناس ، بل الأغلب فيهم ، يقولون إنهم يعتقدون بالدين ويصدقون بالله وبما جاء به رسله وبالحياة الآخرة وينتحلون لأنفسهم المزايا على غيرهم ويظنون أنهم المصطفون ، وأن من يخالفهم قد حقت عليه كلمة الشقاء ويكتفون فى هذه الدعوة ببعض أعمال رسمها الدين وإن لم يكن لها فى قلوبهم أثر . . مما لا ينقص مالا ولا يجشم مشقة . ثم يقول . . : فإن الحكم واحد لا محاباة فيه للأسماء المنتحلة التى لا قيمة لها إلا بمعانيها الصحيحة . فالمكذب بالدين هو المحتقر لحقوق الضعفاء كبراً وعتوا ، والذى يبخل بماله على الفقراء ويبخل بسعيه عند الأغنياء لإغاثة أهل الحاجة » : « ص ١٦١ - ١٦٤ من تفسير جزء عم ، المطبعة الأميرية ١٣٢٢ »

(بقية مقال مقوماتنا الروحية)

تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » .

كما يتبين أن هناك شوائب تشوب إيمان هؤلاء (الرأسماليين) الذين يعبدون الدينار والدرهم ويريدون أن يستعبدوا الأمم والشعوب ويستلبوا خيراتها باسم الاستعمار أو التمدين أو نحو ذلك ، فهؤلاء أيضا فقدوا الإيمان بالله عمليا كما فقده أولئك نظريا .

والعلاج الوحيد هو العودة إلى الله : عقيدة وعملا ، فإن العالم حينئذ يهدأ ، ولا يبقى محل لطغيان قوى على ضعيف ، ويكون صوت الرأى العام فيه حاجزا عن كل بغى وكل ظلم .

والبحث موصول إن شاء الله ؟ .

محمد محمد المدنى

عميد كلية الشريعة

فى ذكرى صاحب الرسالة:

الإسلام حقيقة وجوهر

للأستاذ محمود الشرقاوى

فى هذا الشهر : ربيع الأول يحتفل المسلمون فى بقاع الأرض بذكرى مولد الرسول الكريم صاحب أعظم النبوات وآخر الرسالات وأكرم الصفات .

وكان المسلمون إلى عهد قريب حين يحتفلون بهذه الذكرى الكريمة الخالدة يرددون فى ذلك سيرة محفوظة تذكر انطفاء نار الفرس عند مولده عليه السلام ، ونحو ذلك من العلامات . ولعل بلاداً كثيرة من بلاد المسلمين . مايزال أهلها يرددون ذكر هذه العلامات ويكتفون بترديدها فى ذكرى صاحب النبوة والرسالة الذى بعث ليتمم مكارم الأخلاق . ثم ظهر بين علماء المسلمين والفاقهين منهم لدينه ورسالته من أدرك أن الإسلام حقيقة وجوهر وأن المسلمين لكى يكونوا « مسلمين » يجب أن يعرفوا حقيقة دينهم وجوهره ويتمسكوا بأخلاقه ويتأدبوا بأدبه ، وأن يحققوا ، فى ذوات نفوسهم ، مبادئه وغاياته ومثله .

لكى يكون المسلمون « مسلمين » يجب أن يتيقنوا أن وراء « الانتساب للإسلام » حقائق بعيدة المنال وعليهم أن يحصلوها فى قلوبهم ونفوسهم وأخلاقهم وضمائرهم . وأن يحرصوا عليها ويلتزموا حدودها آمرة وناهية وملزمة ، ومهيمنة آسرة مسيطرة . وأن تكون ضمائرهم وسرائرهم وراء أحاديثهم وأقوالهم . وأعمالهم متساوقة متلائمة مع هذا « الانتساب للإسلام » : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين » (١) .

• • •

يحفظ المسلمون أو يتلون أو يسمعون قول الله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » (٢) .

والآية الكريمة - فى أقوم مفاهيمها - لاتريد من المسلمين أن يكون « بعضهم » دعاة إلى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر . بل تريد أن يجعل المسلمون من أنفسهم جميعاً هؤلاء الدعاة للخير ، الآمرين بالمعروف ، الناهين عن المنكر . وأن يكون كل واحد منهم على هذه الصفة وبهذه المثابة والمنزلة . كما يقول

(١) فصلت : ٣٣ (٢) آل عمران : ١٠٤ .

الرجل لابنه : سأحسن تربيتك ليكون منك رجل أى رجل .

فهل يحاسب كل مسلم نفسه ، وهو يردد هذه الآية الكريمة أو يتلوها أو يسمعها ، هل يحاسب نفسه ويمتحن طويته وضميره عن مدى صدقها عليه ..؟ وتحققها فيه .. ؟

ويحفظ المسلمون أو يتلون أو يسمعون قول الله تعالى وهو يصف الذين كفروا من بنى إسرائيل ويلعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » (١) .

فهل يحاسب كل مسلم نفسه ، وهو يردد هذه الآية الكريمة أو يتلوها أو يسمعها ، ليعرف أمانة أخيه وصديقه وجاره ومجتمعه فيؤدى لهؤلاء جميعا حقهم ، بل واجبهم ، فى التناهى عن المنكر والتناصح بالخير .. ؟

والمسلمون يحفظون أو يتلون أو يسمعون من قول الله تعالى وصية لقمان لابنه وهو يعظه : « يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور . ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » (٢) .

فهل يحاسب كل مسلم نفسه ، وهو يردد هذه الآية الكريمة أو يتلوها أو يسمعها ، على إيمانه بهذه الوصية واستمساكه بآدابها وفضائلها وما تلزم به نفسه وخلقه وضميره ..؟

والمسلمون يعرفون من قرآنهم الكريم أن عباد الرحمن هم : « الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما ، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، إنها ساءت مستقراً ومقاما ، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ، والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما » (١) .

فليضع كل واحد منا نفسه حيث تضعه المقاييس الصادقة من عباد الرحمن هؤلاء .

والمسلمون يحفظون أو يتلون أو يسمعون قول الله تعالى : « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين » (٢) .

---

(١) المائدة : ٧٩ .

(٢) لقمان : ١٧ ـ ١٩ .

(١) الفرقان : ٦٣ ـ ٦٩ .

(٢) المؤمنون : ١ ـ ٦ .

فهل يحاسب كل مسلم نفسه ، وهو يردد هذه الآيات الكريمة أو يتلوها أو يسمعها ، وهل يستفتى سريرته : أين هو من هؤلاء المفلحين المؤمنين ؟ .

وهل هو من أولئك المؤمنين « الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون » (١) فلا يخشون غير الله ولا ينافقون يميلون أو يمالئون .

والمسلمون يحفظون أو يتلون أو يسمعون نهى الله تعالى عن المن بالبر والصدقة . وأنه يريد منهم أن يبروا ويتصدقوا مريدين وجه الخير المطلق وحده ، فلا يتبعوا صدقاتهم بالمن والأذى ، فهم عند ذلك قد أبطلوها وجعلوها رياء أو كالرياء الذى يرده الله فلا يقبله ولا يثيب عليه ولا يبقى منه لصاحبه إلا كما يبقى من التراب على الصخر الأملس قد غسله المطر الشديد المتدفق .

ويريد منهم أن يحفظو الكرامة الإنسانية حتى على السائل المحتاج الذى يطلب الصدقة . فليردوه من غير صدقة ولا عطاء . ولكن ليقولوا له قولا معروفا وليغفروا له إلحافه إن ألحف فى السؤال ، وشططه إن شط فى الطلب . فحفظ هذه الكرامة الإنسانية والاستمساك بهذه الفضائل والآداب خير من الصدقة يتبعها أذى أو منكر أو مكروه (١)

فهل يحاسب كل مسلم نفسه ويستفتى سريرته عن ذلك كله وعن مكانه منه وحرصه عليه ؟ .

والمسلمون يحفظون أو يتلون أو يسمعون قول الله تعالى وتأكيده : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » (٢) .

فهل يجد كل مسلم نفسه ، وقد انفلت من صلاته وأن صلاته تلك قد صفت بها روحه ، وطهرت نفسه ، واستقام ضميره . وأنها أصبحت له حاجزا عن الفحشاء والمنكر له منه وقاء وحصن .

والمسلمون يحفظون أو يتلون أو يسمعون آية فى كتاب الله الحكيم تجعل الذى يدع اليتيم ويزجره ويستضعفه ويجفوه ، والذى لا يبذل ولا يطعم المسكين أو يحض غيره على إطعامه . تجعل الآية الكريمة هذا وذاك : « مكذبا بالدين » وتنذر بالويل من يصلون وهم ساهون عن ذكر الله غير مستحضرين خشيته أو محبته . فلا يعرفون للصلاة حقها وأدبها ولم تؤثر فى قلوبهم وضمائرهم أثرها : الذين هم يراءون ويمنعون الماعون .

---

(١) ٨ : ٢ الأنفال .

(١) ٢٦٤ : البقرة .

(٢) ٤٥ : العنكبوت .

والمراءون المنافقون فى الدرك الأسفل من النار (١) .

فهل يحاسب كل مسلم نفسه ويستفتى سريرته وقلبه . . . ليعلم مكانه .

على المسلمين أن يحتفلوا بذكرى نبيهم ونبى الإنسانية فى يوم مولده . ولكن عليهم أن يعملوا فى كل يوم ، عمل أهل الإسلام كما وصفهم الله فى كتابه العزيز وكما توحى لهم به سيرة النبى الكريم وشمائله الطاهرة .

ولعل المسلمين ، وهم يحتفلون فى بقاع الأرض بمولد صاحب أعظم النبوات وآخر الرسالات وأكرم الصفات ، أن يؤوبوا لنفوسهم ، وأن يفيئوا لأمر الله . فيعلموا أنهم سيكونون مسلمين حقا حين يجدون فى سرائرهم وقلوبهم وضمائرهم أثر هذه النبوة والرسالة والخلق ، كما أمرهم الله أن يكونوا : خير أمة أخرجت للناس .

حين يعرفون أن الإسلام حقيقة وجوهر ، وحين يحرصون على هذه الحقيقة وهذا الجوهر فيحققوها - أو يحاولوا تحقيقها - فى حياتهم ومجتمعهم .

« أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ، إنما يتذكر أولو الألباب (١) .

محمود الشرقاوى

سكرتير التحرير

(١) ١٩ : الرعد

(١) يقول الأستاذ الإمام محمد عبده فى تفسير هذه السورة : « إن كثيرا من الناس ، بل الأغلب فيهم ، يقولون إنهم يعتقدون بالدين ويصدقون بالله وبما جاء به رسله وبالحياة الآخرة وينتحلون لأنفسهم المزايا على غيرهم ويظنون أنهم المصطفون ، وأن من يخالفهم قد حقت عليه كلمة الشقاء ويكتفون فى هذه الدعوة ببعض أعمال رسمها الدين وإن لم يكن لها فى قلوبهم أثر . . مما لا ينقص مالا ولا يجشم مشقة . ثم يقول . . : فإن الحكم واحد لا محاباة فيه للأسماء المنتحلة التى لا قيمة لها إلا بمعانيها الصحيحة . فالمكذب بالدين هو المحتقر لحقوق الضعفاء كبراً وعتوا ، والذى يبخل بماله على الفقراء ويبخل بسعيه عند الأغنياء لإغاثة أهل الحاجة » : « ص ١٦١ - ١٦٤ من تفسير جزء عم ، المطبعة الأميرية ١٣٢٢ »

(بقية مقال مقوماتنا الروحية)

تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » .

كما يتبين أن هناك شوائب تشوب إيمان هؤلاء (الرأسماليين) الذين يعبدون الدينار والدرهم ويريدون أن يستعبدوا الأمم والشعوب ويستلبوا خيراتها باسم الاستعمار أو التمدين أو نحو ذلك ، فهؤلاء أيضا فقدوا الإيمان بالله عمليا كما فقده أولئك نظريا .

والعلاج الوحيد هو العودة إلى الله : عقيدة وعملا ، فإن العالم حينئذ يهدأ ، ولا يبقى محل لطغيان قوى على ضعيف ، ويكون صوت الرأى العام فيه حاجزا عن كل بغى وكل ظلم .

والبحث موصول إن شاء الله ؟ .

محمد محمد المدنى

عميد كلية الشريعة

نفحات القرآن

توجيهات علوية
من جانب الله إلى عباده

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

(ا) ادعو ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين .
(ب) ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها .
(ح) وادعوه خوفا وطمعا . إن رحمة الله قريب من المحسنين .

(ا) هنا دعوة من جانب الله إلى عباده : تتألف من كلمات معدودة . ولكنها نمط فسيح ذو توجيهات حيوية للإنسان فى توثيق صلته بربه ، وفى تنسيق مسلكه فى الحياة بين الناس ... وحينما يتاح للمرء أن يكون على الجادة فى حياته آخذا نفسه بالعدل والاعتدال روحا ، ومسلكا ، وعزيمة ، وقصدا ؛ يكون حقا فى وضعه اللائق به ، والكفيل بأهدافه الإنسانية حاضرا ، ومآلا .

وذلك هو المسطح الذى ينشده الدين الحق لمن استمع إلى دعوة الدين .

ولدينا أمر مقرون بالزجر مرتين ، وأمر آخر مقرون بالوعد الصادق ، وبالحث على انتهازه والتعلق بغاياته .

الأمر الأول : ادعو ربكم تضرعا وخفية فالمفروض أن للناس دعاء ينبعث فى خواطرهم ويجيش فى صدورهم ، وهو وسيلة يتخذونها إلى استيفاء ما تتعلق به آمالهم ، وإلى تحصيل ما تكمل به رغباتهم .

فيكون الدعاء على هذا التحديد ترجمة عن شعور الإنسان بنقصه عن الكمال ، وعجزه عن الوصول ، وبحاجته إلى قوة عليا تدنيه من غاياته ، وتحقق له ما يقعد عن تداركه .

وهذه ظاهرة طبيعية تخالج كل امرئ منا عندما تواجهه الأزمات ، أو تغريه المطامع فيجد نفسه بين دوافع ترغبه ، وموانع تحجبه .

فمن ذا الذى ينقذه من أزماته ، أو يكفل له تحصيل غاياته سوى ذى قوة قادرة على ما يعجز

عنه الإنسان ، وإن كان ذا جبروت ؟ هو الله وحده وتعالى شأنه !! .

غير أن المرء لسبب طارئ قد يضل عن جهة عائه ، فيلقى برجائه فى غير موضع الرجاء ويلتمس مبتغاه من غير سبيله : وهنا مزلة الفكر ، وخطأ التقدير ، وتبعات الضلال .

لذلك : تفضل الله علينا فأمرنا أن نجعل دعاءنا لربنا وحده ، حتى لا نزل ، ولا نخطىء ولا نكون فى ضلال .

وفى التعبير بالرب غناء عن التعليل ، وعن الشرح ... إذ ما دامت الربوبية لله دون غيره وما دامت النعمة كلها من جانبه وحده ، فلا خير فى دعاء غيره . ولا أمل يرجى من سواه ولا صحة لما يعزى إلى من دونه من سائر خلقه .

وكل ما يجازف به الناس ورا هذه الدائرة فباطل مطروح ، وضلال محظور ، وأمل ضائع ، وإثم ولا جرم .

ومن تمام الرجاء وحسن الاتجاه به إلى رب الناس أن يكون الدعاء ذكرا باللسان لا مجرد خاطر محبوس فى النفس ، فإن الخاطر لا يتعلق به حكم الشريعة ، ولا يعتبر فيه ثواب ، ولا عقاب .

والدعاء بالخير عبادة ، بل هو كما قال الرسول — مخ العبادة — والعبادة بصفة عامة تكون قولا ، أو عملا ، فيثاب عليها صاحبها بما شاء الله من أضعاف مضاعفة وإذا كانت مجرد عزيمة على فعل الخير ولم تنفذ لسبب مانع فثوابه عليها تفضل من الله ونعمة

وكذلك الخواطر النفسية حول أعمال سيئة ، إذا لم تتجاوز حديث النفس المستتر فيها فإن الله — سبحانه — لا يؤاخذنا عليها .

وكأن الله تعالى يعتبر من الإيمان وسلامة الاعتقاد شفيعا للإنسان فى حديث نفسه العابر ، وفى هذا أفادنا النبى صلوات الله وسلامه عليه : أن تجاوز لأمته عما حدثت به أنفسها .

هذا — ومن صفة الدعاء المنشود فى الآية أن يكون فى ضراعة وخفية ، فى الضراعة : وهى المسكنة ، والأدب ، وفى الخفية : وهى عدم الجهر [illegible] الدعاء ويبعد به عن الرياء [illegible] الإخلاص المطلوب فى الدين كله .

ومن هذا نكون الضراعة والخفاء وصفين معتبرين فى سلامة الدعاء من آفات الابتداع ، ومن وسائل قبوله عند الله .

وقد مر النبى عليه السلام بقوم يدعون الله فى مجاهرة وإلحاح ، فقال لهم صلوات الله عليه « اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا أبكم ، وإنما تدعون سميعاً بصيراً » أى :

أشفقوا على أنفسكم وخففوا الجهد فإن الله يسمع ويرى ويعلم وليس بحاجة إلى هذه المشقة .

وقد لا يكون الدعاء لاجتلاب الخير ، بل يكون شراً على أحد ، والتماسا لمكروه ينزل بالغير دون سبب يبيح ذلك . وهذا اعتداء . وتحامل غير مشروع ، وحيث أمرنا بالدعاء تقربا إلى الله فى ضراعة فلا ينبغى أن نتحرف به عن بغية الخير . ونستخدم أمر الله به فى طلب التنكيل الذى هو وليد الخصومة ومظهر السخط ، لذلك جاء الأمر بالدعاء فى هذه الآية مقرونا بالزجر مرتين إحداهما : الإعلان بأن الله لا يحب المعتدين فهذا خبر فيه نهى وتهديد على الاعتداء كله وعلى الاعتداء فى الدعاء خاصة .

(ب) والزجر الثانى قوله تعالى عقيب هذا ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها يعنى إذا كان الدعاء مطلوبا لالتماس الخير فلا تصرفوه عن هذه الناحية ، ولا تجعلوه مجلبة للشر فإن هذا يكون فسادا وإفسادا لما بينكم والفساد كله منهى عنه فإن الله يجمع بينكم على دينه الحق ، وشرع لكم روابط الإخاء ورسم معالم المجتمع الذى يعيش فى ضوء الدين وآدابه ، وجعل من أسباب الألفة بينكم أن يكون دعاؤكم بالخير عاما ، ورجاؤكم شاملا حتى يكون فى هذا تأليف للقلوب وتمكين للمحبة ، وهذا ما أفصح عنه النبى صلوات الله عليه وسلامه - بقوله « إذا دعوتم فعمموا » فالتجاوز لهذه الآداب فساد ولا شك — والله لا يحب الفساد .

ومع هذا التوجيه إلى الخير ، ومع التحذير من مقارفة الشر ولو بمجرد الدعاء السلبى ، فهناك حالة ينفعل فيها الإنسان ، ويستعجل الشر بالثأر لنفسه من الغير حينما يلاقى ظلما من سواه أو استهانة بحقه ، أو محاولة للإضرار به عن قصد .

وتلك حالة يقف المرء فيها بين طبيعة ثائرة من الإساءة ، وبين دين يزجر عن دعوة السوء ، والجنوح إلى الشر ، فلا يكون أقرب إلى الإنسان حينئذ من اللجوء إلى ربه ، والاستعانة بقوته وعدله .

فالقرآن الكريم لا يحمل الإنسان على غير ما يطيق ، ولا يغفل أحاسيسه بما يتصل به ، بل يأخذه بما له وما عليه فى حدود قدرته .

لذلك جعل الله للمظلوم أن يجأر إلى الله بدعوة السوء على من ظلمه ، وفى هذه تنفيس للضائقة . وتخفيف للكربة ، وكف للنفس عن الثورة والانتقام الذى يفسح مجال الشر ، ويضرم نار الخصومة . ويجعل الفساد مستشريا فى الأرض بعد إصلاحها .

والدعاء بالسوء على الظالم أخف الضررين فأباحه الله للمظلوم ، بل أباح له الجهر به ، مع أن الجهر بدعاء الخير مرغوب عنه « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم » فهذا استثناء من النهى ، وهو تنصيص على تخويل المظلوم حق المجاهرة بدعائه على ظالمه : ترضية لنفسه ، وإيضاحا لشكواه ، ولعل فى المجاهرة بذلك زجرا للناس عن تماديهم فى ظلم بعضهم بعضا ، ويؤكد هذا قول النبى صلوات الله عليه (اتقوا دعوة المظلوم ، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب) .

(ح) وفى الآية أمر آخر أن يكون الدعاء كله تابعا من قلب خائف وطامع « وادعوه خوفا وطمعا » . وفى الخوف معدلة عن الشطط ، وعن شغل الإنسان نفسه بما يلهيه عن جانب العمل ، والاكتفاء بالتمنى كما كان يفعل السفهاء من قبل ، وفى الطمع المأمور به ثقة بالله ، وإيمان بقدرته على الاستجابة ، وبين الخوف والرجاء مقام الاعتدال ، وحسن القصد ، وترويج للدعاء فى باب القبول : إذ المفروض أن الطمع فى القبول يكون مسبوقا بالطاعة ، والاهتداء ، ما أن يدعو الداعى دون خوف وخشية من جانبه أن يسرف ويتكاسل ، ويحرم من مبتغاه ودون طمع وثقة فى الله وطاعة له فيما طلب ، فذلك هو الأمل الكاذب الذى لم يقم على أسبابه ، والذى لم تتوافر له مؤهلات القبول كما شرط الله فى قوله « إنما يتقبل الله من المتقين » .

نعم ! ! قال الله : « ادعونى استجب لكم » وهذا إطلاق فى الطلب دون تقيد فيه ، ولكنه محمول على الطلب المشروط بأن يكون الداعى غير ملوث بالحرام فى مطعمه ومشربه وملبسه وإلا كان دعاؤه هباء ، وقد قال النبى صلوات الله عليه « يقول أحدكم : يارب ، يارب ، ومطعمه من حرام وملبسه من حرام فأنى « يستجاب له ؟ ؟ » فالأصل أن يكون دعاء ، والشرط أن يكون صحيحا إذا راعينا الأوصاف المذكورة فى آية الموضوع وجدناها أربعة :

التضرع والخفية .. وهذان يتعلقان بوصف الدعاء وصورته شكلا . ثم الخوف والطمع . وهذان يتعلقان بمنبع الدعاء ومبعثه وجوهره ، وإذا اكتمل للدعاء وصفه الكامل فى شكله وحقيقته كان - بحق - عبادة ، بل كان مخ العبادة كما تحدث الرسول ، وكان دعاء المتقين وهو المقبول وسياق الآية واضح فى أن سرية الدعاء أحب من الجهرية . إلا إذا كان دعاء مشتركا بين إمام ومأمومين أو فى حالة

عامة ، أو كان مقصوداً معه تعليم من يتعلم ، فإن ذلك كله يكون الجهر به خيراً من السرية ، والاشتراك فى الدعاء من وسائل قبوله عند الله ... وحين لا يكون مقتض للجهرية تكون السرية عن أسماع الغير تنزها عن الرياء ، وما دام الدعاء حينئذ مناجاة لله ، وضراعة إليه فلا حاجة بنا إلى إعلانه وقد نرى فى آيات أخرى ما يشعرنا بترجيح السرية فى الدعاء وفى التسبيحات عامة : مثل قوله تعالى (سورة ق) « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسبحه وأدبار السجود » . فهنا توجيهات إلى التسبيح لله قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وهذه أوقات يغلب فيها الصمت قبل أن ينهض الإنسان إلى عمله الدنيوى ، وبعد أن يفرغ من يومه ، ويخلد إلى الراحة آخر النهار ، وكذلك أوقات الليل وعقب سجدات الصلوات كلها ساعات خشوع والتسبيح فيها أقرب إلى الكمال ، ومظنة القبول .

وكذا قوله تعالى فى سورة الطور « وسبح بحمد ربك حين تقوم . ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » فالعبادة بالصلاة أو بالتسبيح مطلوبة حين القيام من نوم الليل وفى جوف الليل وعقب إدبار النجوم من مطالعها ، وهذه أوقات تكاد تكون أوقات خلوة والدعاء فيها مناجاة لله وحده .

وكذا قوله تعالى فى سورة طه : « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » . إلخ وهكذا نجد الكثير من التوجيهات إلى أدب الدعاء والإسرار به .

وليس حتما أن يكون القبول بتحقيق نفس المطلوب فقد تكون حكمة الله فى تحقيقه بالذات . وقد تكون فى تحقيق شىء غيره لمصلحة العبد ، وقد تكون نتيجة الدعاء ثوابا عليه ، أو تكفير ذنب بسببه ، والعبد لا يدرى من أمر نفسه ما يكون خيراً له والله هو الأعلم بأمورنا ، ثم قد يكون الدعاء من إنسان لإنسان والله تعالى يستجيب للصالحين من عباده ويحقق رجاءهم ، ويثيبهم على ذلك ولكن هذا لا يجعل الأدعية بضاعة وتجارة يصطنعها المحترفون للدين ، فإن الله لا تخفى عليه خافية ؟ .

عبد اللطيف السبكى
عضو جماعة كبار العلماء

المدائح النبوية فى شعر شوقى

للأستاذ على العمارى

لعلها من أسعد اللحظات تلك التى نعطرها بقراءة المدائح النبوية ، وأن الرجل المؤمن ليجد فى هذه الأشعار لذة ومتعة ، وكلما مضى فى القراءة نسى شيئا فشيئا هذا العالم المادى الذى يعيش فيه ، وعاش فى ذكريات مجيدة ، وماض جميل ، يحس فيه بصفاء الروح ، وهدوء النفس ، ويقظة العواطف ، ومغالبة الأشواق .

وإن أشد ما يأسرنى ، ويبلغ من نفسى فى شعر المديح ، هذا الحنين المشتاق الوثاب إلى زيارة الرسول فى طيبة ، أو إلى مشاهدة الأماكن المقدسة فى مكة .

والناس يختلفون فى تذوق الأشعار ، والتأثر بها ، فمنهم من يتصباه الغزل ، ومنهم من يستميله شعر الجود والكرم ، ومنهم من يستفزه شعر الحماسة والشجاعة والحروب ، وقد يكون فى المديح الصادق . وفى الشكوى الأليمة ما يحرك بعض النفوس ، ولكن الذى لا أشك فيه أن شعر الحنين إلى الأحبة ، وإلى مشاهدة الديار التى حلوها ، والبقاع التى طيبوا ثراها بعبير أنفاسهم ، لا أشك أن هذا الشعر يفعل فى كل نفس صافية سليمة الفطرة فعل السحر .

وأنا ما نظرت فى أشعار المديح ألا بكيت مع هذا الصوفى المحب ، الصادق الصبابة ، عبد الرحيم البرعى ، وكثيراً ما استوقفتنى أبيات الشهاب محمود التى يصف فيها رحلته إلى الحجاز ، ويعبر أجمل تعبير عن شوقه إلى لقاء الرسول :

وصلنا السرى ، وهجرنا الديارا
وجئنا [illegible] إليك القفارا
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
وسرى مع الشوق أثر سرى
وتتبع حادى السرى حيث سارى
ونسأل والدار تدنو بنا
عن الدار فى كل يوم مرارا

وما ذاك أنا ملنا السرى
ولكن دنونا فزدنا انتظاراً
وكيف القرار إلى أن نرا
ك وتدنى المطى إليك المزارا
ومن كان يأمل منك الدنو
و ، أيملك دون اللقاء اصطبارا
ترى تنظر العين هذا البشـ
ير يرينى على البعد تلك الديارا
لأعطيه روحى سروراً بها
وأوطيه طرفى وخدى اعتذارا
وأمسح عن أرجل النعملا
ت بأجفان عينى ذاك الغبارا
وأهدى على القرب منى لسلا
م وحسبى بها دونه وافتخارا
ترى هل أناجى هناك الرسو
ل جهاراً كما أناجى أو سرارا
وأعلم أنى على بابه
وقفت وقبلت ذاك الجدارا

ولفتة وامضة إلى الوراء ترينا ما كان يلاقيه زوار الرسول عليه الصلاة والسلام من الصعاب والمشاق وخوف انقطاع الطريق ، والقلق من فوات الأمل الحبيب . ومن هنا ندرك صدق هذا الشاعر وأضرابه ، ممن جاشت عواطفهم ، ووقفوا بين اليأس والأمل ، ما ملوا السرى ، ولكن دنوا فزاد انتظارهم وهذا من أدق وأروع ما يعبر به عن قرب الحبيب الذى يخشى أن تحول الحوائل دون لقائه .

أما الشاعر البرعى عبد الرحيم فلا أعدل به أحداً فى صدق العاطفة ، وإشراق النفس إلا عمر بن الفارض ، ولعل البرعى هو الشاعر الوحيد الذى صور لنا أبلغ تصوير وأتمه عواطف المحب الصادق حين تضعه الحياة بين الرجاء واليأس .

بعد هذه المقدمة القصيرة ، نأخذ فيما أردناه من كتابة هذا المقال ، وهو الحديث عن مدائح شوقى ، وربما كانت هذه المقدمة التى أسلفناها ذات صلة وثيقة بما نريد أن نشير إليه من رأى فى مدائح شوقى .

لشوقى ثلاث قصائد طوال فى مديح الرسول ، وهى - على حسب ترتيبها فى ديوانه - الهمزية النبوية ، ومطلعها :

ولد الهدى فالكائنات ضياء
وفم الزمان تبسم وثناء
الروح والملأ الملائك حوله
للدين والدنيـــا به بشراء

وثانيها (ذكرى المولد) ومطلعها :

سلوا قلبى غداة سلا وتابا
لعل على الجمال له عتابا
ويسأل فى الحوادث ذو صواب
فهل ترك الجمال له صوابا

وثالثها (نهج البردة) ومطلعها :

ريم على القاع بين البان والعلم
أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم
رمى القضاء بعينى جؤذر أسدا
يا ساكن القاع أدرك ساكن الأجم

وقد عرض للإسلام كحادث تاريخى فى قصيدته (كبار الحوادث فى وادى النيل) بمقطوعة مبدؤها :

أشرق النور بالعوالم لما
بشرتها بأحمد الأنبياء
باليتيم الأمى والبشر المو
حى إليه العلوم والأسماء

وقصائد شوقى هذه طويلة وجيدة ، وقد ابتدأ اثنتين منها بالغزل ، وهو - فى ذلك - يترسم خطى شعراء المديح منذ كعب بن زهير إلى البارودى ، وشوقى وإن لم يصرح بأنه يتغزل متابعة للقدامى فقد صرح بذلك أستاذه البارودى فقال غير موارب ولا متخف :

صدرتها بنسيب شف باطنه
عن عفة لم يشنها قول متهم
لم أتخذه جزافا بل سلكت به
فى القول مسلك أقوام ذوى قدم
تابعت كعبا وحسانا ولى بهما
فى القول أسوة بر غير متهم

ويشير البارودى بكلمة (فى عفة) إلى ما يراه العلماء فى الغزل الذى تبتدأ به المدائح النبوية - كما قال ابن حجة الحموى فى خزانة الأدب - : يتعين على الناظم أن يحتشم فيه فيتأدب ويتضاءل ، ويطرح محاسن المرد والتغزل فى ثقل الأرداف ورقة الخصر وبياض الساق وحمرة الخد . وخضرة العذار وما أشبه ذلك ، وقل من يسلك هذا الطريق من أهل الأدب .

وهذا التقليد - كما هو معروف - ليس قصراً على المدائح النبوية ، بل هو تقليد جاهلى قديم ، صحب الشعر العربى منذ نشأ إلى يوم الناس هذا ، وقد ثار عليه الحسن بن هانئ فى أول العصر العباسى ، ولكن ثورته لم تمنع شعراء عصره ولا الشعراء الذين جاءوا فى عصور بعد عصره أن يتغزلوا فى بدء قصائدهم ، وقد سخر من هذا التقليد المتنبى أيضا فقال :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم
أكل أديب قال شعراً متيم

ولكننا لم نر القصيدة العربية تتحرر من هذا القيد إلا فى أيامنا هذه ، وربما وقع لأفراد من الشعراء فى العصور السابقة أن يتخلوا عن هذه السنة ، ولكن ما زال فى الأقطار العربية وفى مصر من يلتزم هذا التقليد فى بدء القصائد ولا سيما قصائد المديح ، وشعراء السودان بصفة خاصة مولعون بالغزل فى بدء مدائحهم .

وهنا ملاحظة عابرة ، هى أن شوقى بدأ ميميته بالتغزل كما فعل البوصيرى فى البردة ،

وابتدأ بائيته بالغزل أيضا كما فعل البوصيرى فى بائيته المنصوبة القوافى وإن لم تكن القصيدتان من بحر واحد ، ومطلع قصيدة البوصيرى :

أزمعوا البين وشدوا الركابا
فاطلب الصبر وخل العتابا

فى حين أنه لم يبتدئ الهمزية بالنسيب كما فعل البوصيرى أيضا فى همزيته فإنه ابتدأها بقوله :

كيف ترقى رقيك الأنبياء
يا سماء ما طاولتها سماء

فهل بلغ حب التقليد بشوقى هذا الحد ؟

وملاحظة ثانية وهى أن شوقى لم يختص المدائح النبوية بهذا الصنيع بل نراه يفتتح قصيدته فى مشروع ملنر المشهور بهذه الأبيات :

أثن عنان القلب واسلم به
من ربرب الرمل ومن سربه
ومن ثنى الغيد عن بانه
مرتجة الأرداف عن كثبه
ظباؤه المشكسرات الظبا
يغلبن ذا اللب على لبه

وقد بدا لبعض الكتاب أن يعلل افتتاح الشعر بالنسيب بأنه نوع من الرياضة لقرائح الشعراء ويعتذر الدكتور زكى مبارك عن النسيب فى قصيدة البوصيرى فيقول : والنسيب فى البردة يتصل بالشوق إلى المعالم العربية ، وكنت لمت البوصيرى على هذا فى كتاب الموازنة بين الشعراء ثم تبينت أنه اختار تلك المواطن لصلتها بمولد الرسول ، وخاصة إذا لاحظنا أن النسيب لم يقصد لذاته حتى يتحدث الشاعر عن هواه فى بلبيس أو فاقوس وإنما هو نسيب وقع موقع التمهيد لقصيدة دينية ، ولولا حرص الشاعر على متابعة القدماء فى افتتاح القصائد بالنسيب لما كان للتغزل فى مثل هذه القصيدة مكان .

وأحب هنا أن أجهر برأى طالما راودنى أن أعلنه ذلك أن صنيع الجاهليين فى ابتداء القصائد بالنسيب إنما هو أجمل تقليد شعرى وأن هذه الفطرة الجاهلية هى أهدى سبيلا ، وأصفى موردا ، وأقرب إلى طبائع النفوس من كل أولئك الذين عابوا على العرب تقليدهم الجميل ، والشعر تعبير عن خطرات النفس ، وأشواق الروح ، وليس شىء يهئ النفوس لتلقيه بالرضا أجمل من استثارة عواطفها ، وهدهدة مشاعرها ، ومن من الناس ليس له هوى ؟ !

فلست أعيب العرب ، ولست أعيب شوقى بأن ينتهج هذه الطريقة ، ويسير على هذا الدرب الجميل المفروش بالورد والريحان .

وعندى أن العربى فى باديته الأولى أشف روحاً ، وأصفى نفساً ، وأقوم فطرة من ألف أبى نواس ! .

وقد أطلت النظر فى المدائح النبوية وأطلت التفكير فى مسالك الشعراء فيها ، وقد اهتديت إلى أن هذه المدائح ترجع إلى منبعين أساسيين فمنها مدائح مصدرها العاطفة الصادقة المشبوبة القوية الدافقة ، وآية ذلك هو ما نحسه فيها من الطبع والصدق ، وقوة الانفعال وجيشان المشاعر ، وترك النفس على سجيتها ، وأمراء هذا اللون من المدائح ثلاثة شعراء هم عندى على هذا الترتيب . عبد الرحيم البرعى ، والبوصيرى ، والشهاب محمود ، ومنها مدائح مصدرها العقل . وفى هذا اللون تتجلى الصنعة والتكلف كما نراه فى مسالك الشعراء الذين اتخذوا من المديح وسيلة لإظهار براعتهم فى النظم كمن ينظم قصيدة يلتزم فى كل بيت منها حروف المعجم أو يلتزم أن يكون أول حرف فى كل بيت كحرف القافية ، أو يلتزم أن تكون جميع القصيدة من حروف مهملة .

ومن ذلك الصنيع المشهور فى اتخاذ المدائح وسيلة لإظهار القدرة على الإتيان بالمحسنات البديعية وأبعد من ذلك فى التكلف ، وكذب العاطفة أن تتخذ هذه المدائح وسيلة لتسمية فنون البديع فيشتمل البيت على النوع البديعى مثالا وتسمية ، ومن أبطال هذا الفن صفى الدين الحلى ، وابن حجة الحموى ، ولهذا الأخير بديعية شرحها بكتابه خزانة الأدب وهى فى اثنين وأربعين ومائة بيت وهذا العدد هو عدد ما عرضه من ضروب البديع .

كما إنى أعد من هذا النوع - أعنى المدائح التى مصدرها العقل - هذا الشعر الذى تتجلى فيه قوة الشاعرية ولكنه يفقد الروح الدينية الخالصة العميقة ، وكثير من قصائد المديح من هذا القبيل ومن ذلك مدائح شوقى . وهذا الرأى الذى يشاركنى فيه كل ذواقة للشعر ، وكل ذى إحساس صادق بمواطن الصدق والتزييف فى العواطف ، يريحنا من خبط النقاد والكاتبين فقد أرادوا أن يوفقوا بين انكباب شوقى على الملاهى والملذات ، وأخذه منها بالنصيب الموفور ، وبين قوله فى مدح الرسول ، أو فى الأغراض الدينية بعامة ، فقال قائل إن ذلك من ازدواج الشخصية ، يريد أن لشوقى شخصيتين ، فهو قد يخرج من الحان إلى المسجد ، ثم يعود من المسجد إلى المقصف ، وهو - فى زعمهم - صادق العاطفة فى الحالتين .

وقال آخرون : إن شوقى قال هذه القصائد بعد أن ودع طيبات الحياة وتقدمت به السن وهذا فيما أعتقد جهل بالتاريخ ، فما أعرف أن هذا الشاعر تخلى عن طيبات الحياة ، وأعرف أن بعض هذه القصائد قالها وهو يغذى شاعريته بالصغير وبالكبير .

ولست أستبعد أن يتوب المذنب وأن تصدق توبته ، ولا أن يكون الإنسان بشخصيتين ، ولكن شعر شوقى لا يضطرنا إلى هذه الافتراضات ، فهو لا يدل على أن

الرجل متدين . ولكنه كان شاعراً كبيراً يمجد بطلا عظيما .

وبائية شوقى فى ذكرى المولد نحو السبعين بيتاً ليس منها فى هذا الغرض إلا خمسة عشر بيتا . ولم يبتدئ فيه إلا فى البيت السابع والأربعين . وإن كان شاعراً صادق الحب تعجل بذكر المولد [illegible] ولكنه استنفد أكثر قصيدته فى [illegible] والحديث عن الدنيا وعن الإحسان إلى اليتامى . فلما جاء إلى ذكر الرسول [illegible] وأشار إلى قربه من الله حين عرج به ، ووصفه بأنه صاحب البيان الذى هدى الناس إلى سواء السبيل . وصاحب الخيل التى كانت [illegible] للحق ثم تحدث فى خمسة أبيات عن المولد النبوى ، وبلغ ذروة الإجادة الفنية فى قوله :

أبا الزهراء قد جاوزت قدرى
بمدحك بيد أن لى انتسابا
فما عرف البلاغة ذو بيان
إذا لم يتخذك له كتابا
مدحت المالكين فزدت قدرا
فحين مدحتك اقتدت السحابا

أما الهمزية ، فقد ضمنها شمائل الرسول ، وأشار إلى نسبه الطاهر الشريف وإلى يوم مولده وإلى الإرهاصات التى صحبت هذا المولد الكريم . وقد أبدع وأجاد فى قوله :

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا
منها وما يتعشق الكبراء
لو لم تقم دينا لقامت وحدها
دنيا تضىء بنوره الآناء
زانتك فى الخلق العظيم شمائل
يغرى بهن ويولع الكرماء

ولم ينس أن يتحدث عن القرآن وأنه الآية الكبرى، وعن دعوة الرسول لعقولهم وحاهم عند الدعوة ، فقال :

لما دعوت الناس لبى عاقل
وأصم منك الجاهلين نداء
أبوا الخروج إليك من أوهامهم
والناس فى أوهامهم سجناء
ومن العقول جداول وجلامد
ومن النفوس حرائر وإماء

وقد كان المداح الأقدمون يضمنون مدائحهم السيرة النبوية وشمائل الرسول والحنين إلى زيارته والتوسل به . والشكوى من الذنوب ورجاء العفو والمغفرة ، والحديث عن القرآن . وعن الصحابة . وقد قال شوقى فى كل ذلك ما عدا الحنين إلى زيارة الرسول ، لكنه زاد أمورا على جانب كبير من الأهمية .

فمدائح شوقى يشيع فيها الحديث عن الأخلاق ، كما يشيع هذا الحديث فى كل شعره ويشيع فيها الحديث عن الفقراء ، وعن الزكاة ، ويمتدح الشريعة الإسلامية بأنها

راعت حق الفقراء ، ولكن الناس لا يستجيبون لداعى الله :

عجبت لمعشر صلوا وصاموا
ظواهر خشية وتقى كذابا
وتلفيهم حيال المال صما
كأن الله لم يحص النصابا

ويبلغ ذروة الإجادة فى هذا المعنى حين يقول :

الاشتراكيون أنت إمامهم
لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئدا وداوو طفرة
وأخف من بعض الدواء الداء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى
فالكل فى حق الحياة سواء
فلو أن إنسانا تخير ملة
ما اختار إلا دينك الفقراء

والشكوى من حال المسلمين وتأخرهم وتفكك الروابط بينهم والاستغاثة بالرسول أن يدعو الله أن يهدى قومه ويبصرهم طريق السداد من الجوانب النبيلة التى عرج عليها شوقى فى مدائحه :

ماجئت بابك مادحا بل داعيا
ومن المديح تضرع ودعاء
أدعوك عن قومى الضعاف لأزمة
فى مثلها يلقى عليك رجاء
متفككون فما تضم نفوسهم
ثقة ولا تجمع القلوب صفاء
رقدوا وغرهم نعيم باطل
ونعيم قوم فى القيود بلاء

كما يتحدث شوقى عن أسرار الشريعة الإسلامية ، ويقف بصفة خاصة عند سر حروب النبى ، ويرد على أولئك الذين يعيبون الإسلام باتخاذ الحرب وسيلة لنشر الدعوة ، ويطيل فى ذلك ، ومن قوله :

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا
لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة
فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
والشر إن تلقه بالخير ضقت به
ذرعا وإن تلقه بالشر ينحسم

وفى معنى هذا البيت الأخير جاء قوله فى الهمزية .

الحرب فى حق لديك شريعة
ومن السموم الناقعات دواء

هذا ، وقد امتد بنا نفس القول وموعدنا بالنظر فى نهج البردة على حدة حديث يأتى إن شاء الله ، وأصدق ما نختم به هذا الحديث قول شوقى يخاطب الرسول :

أنت الذى نظم البرية دينه
ماذا يقول وينظم الشعراء

وقول البوصيرى :

إن من معجزاتك العجز عن وصـ
ـفك إذ لا يحده إحصاء
ليس من غاية لوصفك أو
غيها وللقول غاية وانتهاء

وأفضل الصلاة وأطيب التسليم على صاحب الذكرى .

على العمارى

مولد رسول ورسالة :

الدين حرية

للأستاذ محمد فتحى عثمان

(يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم)

أغلى حقائق الإنسانية ... الحرية !

فالإنسان لا يسير وفق نواميس آلية مطردة كالجماد ، ولا يسير بتوجيه الغريزة وحدها كالحيوان .

لكن الإنسان يتمتع بإرادة ... تتجلى مظاهرها فى الاختيار ، ومن هنا قد تتوفر مقدمات بعينها فى ظروف بعينها ولكنها لا تعطى النتائج نفسها بالنسبة لتصرفات الإنسان ! .

وأداة ممارسة الاختيار ومباشرة الإرادة هى العقل والتفكير ... وهذه الأداة من خصائص الإنسان المتميزة .

فإذا أردنا أن نعبر عن الإنسانية بخصيصة واحدة مفردة تكون علما على الإنسان وصورة لطبيعته لقلنا : إن الإنسانية حرية ...

* * *

تلك حقيقة قررها الفلاسفة بمنطقهم ، وتغنى بها الفنانون بمختلف أساليبهم وألوانهم ... وهى حقيقة سجلتها الوثائق الدستورية ، بعد أن استخلصتها دماء غالية وأرواح عزيزة ... فى كفاح ما أقدسه من كفاح !!! .

والدين ... ما باله فى هذه القضية الكبرى ؟

الدين ... لا يذكر إلا ويذكر الانقياد والخضوع ، والطاعة والاستسلام ! .

فهل يكون للدين شأن فى قضية الحرية ؟

شأن الدين فى مزاعم قوم ، أن يسد منافذ الحرية ، وأن يطبع الإنسان على المهانة والاستكانة ويكون أفيون الجماهير !

والدين الصحيح براء ... من هذا الهراء !

* * *

إذا كانت حقيقة الإنسانية هى الحرية ، فإن مهمة الدين هى تقرير هذه الحقيقة وتقديسها ... إنه يعمق مشاعر الحرية فى مسالك النفس والعقل ، وفى أغوار الفرد والمجموع ، وفى جذور الأمة والدولة ، وفى أصول العقيدة والشريعة ... فتتجاوب فطرة الله فى نفس الإنسان مع دين الله المنزل

على رسله والمودع فى كتبه ، وتتجاوب نواميس الله الكونية مع نواميسه الشرعية ، ويتجاوب كتابه المشهود مع كتابه المقروء !

إن الله يريد أن يستخلص النفس الإنسانية حرة كريمة عزيزة كما برأها ... وهو يؤكد هذه الحرية والعزة والكرامة أيما تأكيد ...

يؤكدها فى قصة خلق الإنسان أصلا ... فإن فيه من روح الله مالا ينبغى أن يذل أو يهون ، بل ما استوجب من أطهر خلق الله الإجلال والتكريم « فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » .

حتى إذا ماخلق الإنسان وهبط إلى الأرض أكد الله مكانه فى الكون بين المخلوقات ، « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » ، « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

والله يؤكد حرية الإنسان واختياره ، « وهديناه النجدين » ، « بل الإنسان على نفسه بصيرة » ، « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ...

وعلى أساس هذه الأصول الكبرى عرض الإسلام نفسه على الناس ... فدعا بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادل بالتى هى أحسن ، ونفى - أقطع نفى - أن يكوم الإلزام والإرغام طريقا لسوق العقائد إلى القلوب « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » .

« أنلزمكموها وأنتم لها كارهون » ، « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » ...

ونزل الله العظيم آيات كتابه يناقش ويبرهن ويورد الاعتراضات ويرد ، سبحانه تقدست أسماؤه وجل فى علاه ! ! ! .

تقرأ قول الله العظيم : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » ...

وتقرأ قول الله العظيم : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » ...

وتقرأ قول الله العظيم : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ...

وتقرأ قول الله العظيم : « أم خلقوا من غير شىء ، أم هم الخالقون » ، « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون » ! ! !

وتعجب من هذا النقاش الرائع الأمين ، والجدل الذى يجريه رب العزة مع مخلوقه العزيز . وتطرب لهذا المنهج الربانى الأقدس فى تربية المؤمن المفكر الحر ! ! ! .

وتسمع فى كتاب الله العظيم تسجيلا دقيقا لكل دعاوى المنكرين والمتشككين ، وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » ، « قال الذين كفروا

للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » ، « وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون : هل لنا من الأمر من شيء ؟ ؟ قل إن الأمر كله لله ، يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك ، يقولون : لو كان من الأمر شيء ماقتلنا ها هنا ... » ! ! ! .

ثم تقـــرأ بعد ذلك آية الآيات فى أدب الخطاب والجدال ، فترى التحدى الذى لا يتخلى عن الذوق السامى الرفيع « قل لا تسئلون عما أجرمنا ، ولا نسأل عما تعملون » !.

* * *

هذا الإنسان الحر الكريم ... هل يكون غنيا عن العالمين ؟ ؟

إنه مخلوق يأنس ويستوحش ، يقوى ويضعف ، يستكبر ويستخذى ... فتحريره وإطلاق قواه لن يلغى طبيعته كمخلوق ... ،

إنه دائم الإحساس بالحاجة إلى استمداد القوة والقدرة [illegible] الإنسان يبحث أبدا حتى يرضى [illegible] احتياجاته جمالا لا ينال من قوته وطاقته وحقيقته الكبرى .

والدين هنا ينقذ الإنسان من أن تستهلكه الشكوك والأهواء الباطلة ، ويعلمه : من يعبد ، وبمن يستعين ! .

إنه يشفق على الإنسان من أن تستعبده الطبيعة الجميلة الجليلة بمواميسها الصارمة البديعة المذهلة ، فيتصاغر المخلوق الحر العزيز أمام الشمس التى تبعث الضوء والحرارة والحياة ، أو أمام القمر الذى ينشر النور والجمال ، أو أمام أعاصير الريح ، أو غيث المطر ، أو أمام ما يسخر بين يدى الإنسان من نفاثات وذريات وصواريخ الفضاء ! !

ويشفق الدين على الإنسان من أن تستعبده الأهواء ... من أن يسببه إيماء الأفراد ، أو استهواء المجموع ... من أن يجرى المخلوق الحر العزيز الكريم خلف مطالب جزء منه . فيجر جر كيانه كله تبعا للقمة ، أو شهوة ، أو انقياداً لإنسان سواه من عباد الله ! !

ويفجر الدين الطاقة الإنسانية العارمة البناءة ، حين يربط الإنسان ـ فى استعلامه واستسلامه بالله الواحد القهار ! ! .

إن الله وحده ـ هو الذى « ليس كمثله شيء » ، « ولم يكن له كفواً أحد » ...

والله ـ وحده ـ هو الذى له الحكم والأمر وهو ـ وحده ـ إذا قضى أمرا فلا يكون لمؤمن خيرة من أمره . بل عليه الطاعة والامتثال ...

والله ـ وحده ـ هو الذى لا يسئل عما يفعل . وهو ـ وحده ـ الذى يحمد على السراء والضراء ولا يحمد على مكروه سواه ...

والناس ... ؟؟ .

الناس جميعاً ـ أيا كانت منازلهم ـ أنداد

وأمثال وأشباه ، فالعباد سواء لا يستعلى عليهم إلا الإله المعبود ، والخلق سواسية يتعاونون ويتحاسبون - وهم يسيئون ! .

هذه هى الحرية فى أبعد أعماقها ، ومن هنا تنطلق الطاقة الإنسانية فى أضخم إمكانياتها . إن الحرية عند المؤمن لم تعد صرخة بشريته ونداء فطرته فحسب ، إنها دينه الذى يعبد الله به ويلقاه عليه ، فيرضى نزعته فى الانقياد والاستسلام لقوة كبرى فى الوقت الذى ينطلق فيه إلى أرحب الآفاق ...

إسلام لله ... بالانطلاق فى الكون .

وتعبد لله ... بالتحرر من كل سلطان سواه .

وهكذا يكون نداء الكون هو نداء الدين ، ونداء الخضوع هو نداء العزة ، ونداء الإنسان هو وحى الله « فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم - ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً » .

هذه القوة الكبرى التى يدين لها المؤمن فيعتز ، ويسلم فيتحرر ، هى أكرم قوة وقدرة يخضع لها الإنسان ، فضلا عن أن تكون أجدر قوة وقدرة بوجوب الخضوع لها والتسليم .

إنها قوة الغيب ... علت عن كثافة الحس ومطالبه ، ونطاقه العاجز القاصر ! ! ! إنها ترضى فى الإنسان أشواق الروح للإيمان بالغيب ، فى الوقت الذى تطلقه فى عالم الشهادة يعبد الله بالتجانس مع الكون والناس ...

إنها لا تتطلب من الإنسان (أتاوة) خضوع « ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون » . لا تتطلب عصبية هوجاء ولا أحقاداً عمياء ، فالله لن يزيد ملكه بطاعة الطائعين ولن ينقص بمعصية العصاة . فليس الخضوع لله إعلاء لدكتاتورية فرد ، أو سيطرة حزب ، أو احتكار طبقة ، أو تغلب جنس أو أمة ، أو تحكم قبيلة أو أسرة ...

وليس فى الخضوع لله محاباة للخاضعين كطائفة ، ولا تحامل على المنكرين كطائفة « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » .

هذا هو رب العالمين بحق ، رب المؤمن والكافر على السواء ، رب كل الأفراد والأجناس والأقوام والطبقات والطوائف على السواء .

لا عجب أن كانت قوته ... أنزه قوة كبرى يخضع لها الإنسان ، وأكرم قوة كبرى يخضع لها الإنسان ، فضلا عن أن تكون أجدر قوة بأن يخضع لها الإنسان ...

« أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار !!! ؟؟ ؟ .

* * *

هذا الإله العظيم الذى يدين له الإنسان الحر العزيز فتنطلق طاقاته المذخورة من مكانها دون أن يتبذل فى مراسم خضوع تمسخ بشريته وتشوه معالمه وتبدد قواه ...

هذا الإله العظيم الذى يرعى الناس جميعاً والخلق جميعاً بربوبيته الرحيمة ، يعلم أنه ما من فرد أو جمع يطيق أن يعيش منفرداً فى الكون ، فلا بد لرعاية حرية فرد أو مجتمع من تمكين كل الأفراد والمجتمعات من ممارسة حرياتهم ، ومن هنا كان لا بد أن تتقابل الحقوق والواجبات وأتت شريعة الإسلام تنظم ما فجرته عقيدة الإسلام من طاقات الإنسان وقواه ... جاءت عقيدة الإيمان تعز الضعيف بعزة الله ، وتطامن القوى أمام جلال الله وجاءت شريعة الإسلام ترعى حق المجموع ولا تهدر اعتبار الفرد ، وتقرر المساواة ولا تغفل الحرية .

وقال الخليفة المسلم الصديق (والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه) .

فإذا ما دعت الضرورات التنظيمية إلى المساس بحرية الفرد من أجل حريات الآخرين ، فما أسرع ما يعود الشرع إلى الأصل المقرر فى الحرية - هذه الحقيقة الإنسانية الكبرى ...

قد يمس التشريع مال الفرد لصالح المجموع ... فلا يكاد ميزان العدل يستوى حتى تعود للفرد حرماته وحرياته « وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون » .

ويعلن التشريع الحرب على الفئة الباغية صيانة لحق جماعة المسلمين ... ولكنها ليست حرب إبادة واستئصال « فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين » .

وتقاوم دولة الإسلام المحاربين من المخالفين فى الدين ، فإن كفوا عن العدوان عادت لهم حرماتهم الإنسانية ولو كانوا مخالفين . « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » .

فما أولى الأحرار بالاحتفال برسالة الحرية الكبرى ... التى لا تغتفر للإنسان أن يفرط فى حريته ، فهى إنسانيته وهى عقيدته فى الوقت نفسه :

« إن الله لا يغفر أن يشرك به ... ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » . ؟

فتحى عثمان

من القيم الإنسانية في الإسلام: حرية العقل والفكر والإرادة

للدكتور محمد يوسف موسى

مستشار الشئون الدينية والثقافية بوزارة الأوقاف

لا أريد أن أتجنى على التاريخ أو الواقع في شيء، ولا ان أزكي على الله أحدا، ولكنه سبحانه وتعالى - وهو العليم الخبير بمن خلق، والحكيم فيما قضى وقدر - هو الذي يقول في كتابه العظيم عن العرب المؤمنين: «كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله».

ولهذا جعل الله البلد العربي الأمين مهداً للإسلام، وجعل العرب - بعد أن هدوا إلى الحق - حماة رسالته العظمى، ومبلغيها وناشريها للناس جميعا عبر المكان والزمان؛ وذلك لما يعلمه سبحانه وتعالى من سلامة فطرهم، وكريم خلالهم، وقيامهم بالقسط، ونصرتهم للحق.

ومن ثم، كانوا أهلا لحمل هذه الأمانة، أهلا للقيادة والإمامة، أهلا لأن يقول العليم الخبير فيهم: «وكذلك جعلناكم أمة وسطا؛ لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدا».

وقد صار العرب الذين آمنوا بالله ورسوله، حاملي النور إلى العالم كله، والهداة إلى الحق والخير في كل زمان ومكان؛ وذلك بفضل القرآن الذي أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور، وبفضل ما في الإسلام من قيم إنسانية نبيلة، هذه القيم التي أوفت على الغاية وبلغت أرقى مراتب السمو والكمال.

وهذه المعاني والنزعات الإنسانية التي قامت عليها دعوة الرسول، صلوات الله وسلامه عليه. ودعت إليها، وعملت على تحقيقها بمختلف الطرق والوسائل، لا سبيل إلى حصرها، ولا إلى الإشارة إليها جميعا في هذه الكلمة.

وإذن ليس لنا في هذا المقال إلا أن نكتفي

بالكلام عن بعض هذه القيم الإنسانية التى جاء بها الإسلام ، فكرم بها الإنسان، وأنار السبيل للناس جميعا ، بادئين منها بالحرية والمساواة على اختلاف معانيها ، وتعدد مجالاتها وتطبيقاتها .

* * *

الإسلام هو دين « الحرية » بلا ريب بكل ما لهذه الكلمة من معان ومدلولات ، سواء فى ذلك الغربيون والشرقيون ، وقد أعطى لهذه الكلمة من المعانى ما لم يسبق إليه ، كما قدرها تقديراً لم يقاربه فيه دين أو نظام فلسفى اجتماعى سبقه أو جاء بعده .

ذلك بأن « أوجست كونت » الفيلسوف الاجتماعى المعروف . يقول فى بيان معنى الحرية : إن أحسن ما يكون انسانا من حرية هو أن [illegible] لتسود المواطف والشهوات [illegible] العواطف والميول السفلية .

ويرى « هيمون Hemon أن الحرية هى سيادة الإنسان لنفسه ، وسيطرته على شهواته وهذا يكون بعمل العقل المفكر والإرادة الطيبة ضد الشهوة والهوى .

وفى العصر القديم ، يقول « إبيكتيت » ، الفيلسوف الرواقى المعروف : إن على من يريد أن يكون حراً ألا يخاف أو يرجو شيئا يملكه غيره ، وإلا فلن يكون حتما إلا رقيقا .

ولكن الحرية تشمل أيضا ، بجانب تلك المعانى ، تحرير العقل من الضلالات والتقاليد الباطلة التى ترين عليه وتمنعه من الانطلاق ، وتشمل تحرير الإرادة والعمل فيما لا يتعارض والصالح العام ، وتحرير المستضعفين من سلطان الأقوياء المستبدين وظلمهم وجبروتهم وتحرير المرء نفسه من أسر شهواته وهواه .

وهذا وذاك كله نراه ماثلا فى نزعة الحرية العامة الشاملة التى جاءت بها دعوة محمد صلوات الله وسلامه عليه . فقد جاء الإسلام يقرر للناس جميعا، على اختلاف أجناسهم وأزمانهم ، هذه الحرية على اختلاف أنواعها وضروبها : حرية العقيدة ، وحرية العقل والفكر ، وحرية الرأى والإرادة والعمل ؛ وكل ذلك لم يكن للإنسانية عهد به من قبل ، حيث كانت الحرية أمر طبيعى ، وأول حق إنسانى يحرص عليه كل إنسان .

* * *

بدأ الاسلام بتحرير العقل من سلطان ما توارثه الناس من العقائد الباطلة ، هذا السلطان الذى دفعهم إلى عبادة ما يصنعون بأيديهم من أوثان وأصنام ، ويقدمون لها

من القرابين وشعائر العبادة ما يعرفه التاريخ الصادق الأمين .

يعبدون هـــذه الأوثان والأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى عنهم شيئا ، وإنما يعبدونها بحكم التقليد للآباء والأسلاف الذين لم يكونوا فى هـذه الناحية يعقلون شيئا ولا يهتدون ، حتى إنهم كانوا إذا سمعوا القرآن يقول « اتبعوا ما أنزل الله » ، كانوا يقولون : « بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا » !

حتى إذا رفع هذا الحجاب عن قلوبهم ، وعرفوا بطلان ما كانوا عليه فى ناحية العقيدة وظفروا بحرية العقل والفكر ، هدوا بفضل ذلك إلى الحق الذى جاء به القرآن وأصبحوا يدخلون فى دين الله أفواجا ، وصاروا بعد هذا هم الهداة للحق الذى عرفوه وآمنوا به .

والإسلام حين حرر العقول من الأساطير والأوهام . وحرم عبادة الأوثان والأصنام وأمر بعبادة الله وحده ، قرر حرية العقيدة للناس جميعا بعد أن بين تماما ما هو حق فى هذه الناحية ، وبين ما يكون للمؤمن وغير المؤمن من جزاء عند الله فى الدار الأخرى .

ولهذا نجد القرآن العظيم يقول : « وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » ، ويقول : « لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى » ، ويخاطب رسوله الحريص الحرص كله على أن يؤمن جميع من توجه إليهم برسالته بقوله تعالى : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » !

وكذلك يأمره صلى الله عليه وسلم ، فى آية أخرى ، أن يقول : « قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل » .

* * *

وبعد هذا ، إن للبعض أن يتساءل : لماذا إذا كانت الحروب بين المسلمين والكافرين ، ألم يكن الدافع إليها إكراه هؤلاء على الإسلام فيكون الإسلام قد علا أمره وانتشر بحد السيف لا بالإقناع والدليل ؟ .

الجواب عن ذلك كله يجب عند الباحث المنصف أن يكون بالسلب لا بالإيجاب .

فإن الذى يستعرض آيات القتال فى القرآن ويستقرئ التاريخ الثابت الصحيح ، يتبين له بلا ريب أن القتال كان لحماية الدعوة حتى تأخذ سبيلها من الذين يكيدون لها ويقفون ظالمين فى طريقها .

كما كان للدفاع عن المستضعفين من المؤمنين الذى آذاهم المشركون أذى كبيرا ونالهم منهم بلاء شديد ، وذلك رغبة فى فتنتهم حتى يرتدوا عما آمنوا به من الدين الحق بعد أن

استقر فى عقولهم ، وامتلأت به نفوسهم وقلوبهم . ويكفى أن تذكر فى هذا أو ذاك هذه الآيات من سورة البقرة (١٩٠-١٩٣)

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ، فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » .

إن فى هذه الآيات من الصراحة ما لا يحتمل اللبس ، وهى دليل - أى دليل ! - على أن الإسلام جاء بحرية الاعتقاد ، وأن ما كان من قتال بين المسلمين وأعدائهم إنما كان بعد أن بدأ هؤلاء بالعدوان الشديد الذى كان لابد من رده ، ولهذا يقول الله تعالى بعد ذلك فى سورة الأنفال : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .

إن الإسلام هو دين السلام ، ودين العقل والفكر ، فليس به من حاجة إلى القوة لحمل الناس عليه ؛ ومن ثم جاء بالحرية بأوسع معانيها ، ومنها حرية الاعتقاد والرأى ولهذا أمر الله رسوله بالدعوة إليه بالدليل الصحيح المقنع والموعظة الحسنة ، لا بالشدة ، والغلظة فما كانت الشدة ولا القتال فى أى عصر سبباً فى تثبيت ما ليس صحيحا أبداً .

ولتسمع فى هذا قوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ؛ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين » .

ومن المثل الرائعة للدعوة إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة ، هذا المثال الذى نجده فى هذه الآية التى أمر الله رسوله أن يتوجه بها لأهل الكتاب الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله وصموا آذانهم وقلوبهم عن دعوة الحق ، وهى :

« قل يا أهل الكتاب ، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ؛ ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولوا ، فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

* * *

ومع هذا وذاك ؛ نرى الإسلام يقرر حرية الفكر والرأى بأوسع معانيها . ويفتح باب المعرفة والعلم على مصراعيه ؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول : طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وآيات كثيرة من القرآن

تختم بأمثال هذه الجمل : « إن فى ذلك لآيات لأولى الألباب » ، « لقوم يعقلون » ، « لقوم يتفكرون » ، « لقوم يذكرون » .

والقرآن أيضا يبين لنا فى كثير من آياته أنه سخر لنا مافى السموات والأرض . ويطلب منا أن نعمل عقولنا وحواسنا فى فهمه . بل ويجعل من يهمل فى ذلك ولا يستعمل عقله وحواسه فى سبيل المعرفة أدنى من الحيوانات وذلك إذ يقول الله تعالى :

« ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » .

ومن شأن طلب القرآن العلم والمعرفة بكل سبيل ، أن يجعل حرية الفكر والرأى أمرا لا بد منه ، لأن ذلك يستلزم هذا ، ولا يطلب من الباحث إلا بذل الوسع فى استعمال عقله وحواسه كما ينبغى ، ولا عليه بعد ذلك من بأس إذا أخطأ فى بعض مايصل إليه ، بل إن لكل مجتهد بحق نصيب من الأجر .

وفضلا عن هذا ، فإن تاريخ الإسلام لم يعرف (محاكم للتفتيش) ، (ولا مجامع مقدسة) ، تحجر على العلم والمعرفة ، وتحكم على آلاف وآلاف من العلماء بالحرق وهم أحياء ، أو بالإعدام شنقا ؛ لأنهم وصلوا إلى بعض الآراء التى لا تتفق والمذهب الرسمى كما هو معروف فى التاريخ .

* * *

وبعد ! إن مجال القول ذو سعة فى الحرية التى جاء بها الإسلام ، الحرية العامة الشاملة . ويكفى أن نشير بعدما تقدم إلى حرية الرأى فى شئون السياسة العامة والحكم التى كانت من الصحابة رضوان الله عليهم أيام الرسول نفسه ، وبخاصة فى الأمور التى لم يجئ فيها الوحى الإلهى بالرأى الحاسم والقول الفصل ، وذلك أيام غزوة بدر وغزوة أحد وغيرهما

كما نشير إلى قولة سيدنا عمر بن الخطاب إلى سيدنا عمرو بن العاص : يا عمرو ، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ هذه القولة التى لا تزال تدوى أبد الدهر ، ومنها نعلم أن الإسلام هو الذى وضع أسس الحرية والإخاء والمساواة لا الثورة الفرنسية كما يزعم الجاهلون بالإسلام وتاريخه ، أو المغرضون الذين يكذبون عليه وهم يعلمون .

بهذه القيمة الإنسانية النبيلة ، أحس الإنسان بأنه إنسان حقا ، وعرف لنفسه منزلتها وكرامتها ، وصار آمنا مطمئنا عزيزاً كريماً فى كل حال .

(الحديث موصول إن شاء الله)

محمد يوسف موسى

تأليهية القرن الثامن عشر
وهل معتنقوها مؤمنون؟

للدكتور محمد غلاب

من بين العبارات المشهورة فى البيئات العقلية قول أحد الباحثين الغربيين : (كان القرن السابع عشر مؤمنا ، والقرن الثامن عشر ملحداً . والقرن التاسع عشر مرتابا . ولا ندرى كيف يكون القرن العشرون ؟)

ولقد نزلت هذه العبارة من المثقفين فى الشرق منزلة الحقيقة اليقينية التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . ونحن حين نمعن فى دراسة إنتاج ذلك القرن المفترى عليه من جهة . وفى البحوث التى كتبها الأدقاء من معاصرينا عن إنتاجه وروحه وأهدافه من جهة ثانية . تبين لنا فى وضوح أن تلك العبارة سطحية أو عائمة . وأن الملحدين فى ذلك القرن لم يكونوا سوى عدد ضئيل وأن الأكثرية الساحقة من أعلامه وأفذاذ مفكريه ، كانت مؤلهة . وقد حملنا هذا التباين فى الحكم على أن ندرس هذه المفارقات . الهامة آملين أن نصل من وراء ذلك إلى الكلمة الحاسمة فى هذه المرحلة الخطيرة من تاريخ العقائد البشرية . ولكى يتيسر لنا القيام بهذه المهمة ينبغى أن نضع على بساط البحث هنا ثلاث معضلات :

أولاها كيف نمت التأليهية فى القرن الثامن عشر إلى حد أن اختصمت معها المسيحية وجعلت تناوئها مناوءة الند للند ؟ وثانيتها كيف خلط بعض المؤلفين بين التأليهية والإلحاد ؟ .

وثالثتها كيف كانت تلك التأليهية فى حقيقة أمرها ؟ وما هى المبادئ التى كانت تمثلها إذ ذاك وهل يعتبر معتنقوها من المؤمنين أو من الملاحدة ؟ .

ولكى تتيسر الإجابة على هذه الأسئلة ، ينبغى إلقاء شئ من الضوء على الناحية العقلية فى القرن الثامن عشر ، وإبانة الاتجاهات التى لعبت فيه أدوارا هامة كان لها فى العقائد وغيرها آثار بارزة . وإليك البيان :

مما لا ريب فيه أن القرن الثامن عشر هو الذى منح التطورات الغربية تلك الصور المتجلية التى نشاهد اليوم نتائجها واضحة المعالم

وأن تلك الحقبة من تاريخ أوروبا ، هى الآونة الحاسمة التى فصلت بين ماضيها ومستقبلها ومن ثم كان من المألوف أن يقرأ الباحث فى منتجات المؤلفين المحدثين — سواء أكانوا من العلماء أم من النقاد أم من المرتابين أم من الماديين — هذه العبارة (نحن الورثة المباشرون للقرن الثامن عشر)

وفى الحق أن عددا ضخما من المؤلفات قد خصص لدراسة اتجاهات المدنية الغربية فى تلك الحقبة ، وأنها جميعها عنيت بأن تقف وقفة المتمعن عند تلك الثورة العقلية والدينية التى سبقت الثورة السياسية وأعدت لها النفوس والعقول . والتى كانت شعار ذلك القرن الذى أطلق عليه أعلام مفكريه اسم (عصر الأنوار) لأنهم كانوا يهدفون إلى « تبديد تلك الكتلة الكبرى من الظلام الذى غمر الأرض » على حد تعبير « ديدرو » .

وفى الواقع أننا نرى فى جلاء أن ذلك القرن كان عصر العقليين وذوى الحجج المقنعة والفلاسفة التجريبيين أى أن أفذاذه كانوا أرباب عقول حادة قاسية ونفوس جافة لا تعرف سوى المكافحات والمناضلات ؛ والنقد الحازم الحاسم ، وأنهم كانوا يأخذون على أسلافهم أنهم ورثوهم مجتمعا سيئا رديئا اضطهد الطبيعة واستهان بالعقل ، وجعل السعادة غير ممكنة الاقتناص وقد زعموا أنهم هم الذين سيجدون العلاج الناجع المبرأ من كل هذه الأدواء الخطيرة . وأنهم سيلاحقون السعادة حتى يستولوا عليها بمعونة العقل وحده — ولكنها سعادة بشرية فقط تلك التى يعدون وراءها ذلك العدو المتواصل.

غير أنه ينبغى أن نشير هنا إلى أن تعقلية القرن الثامن عشر ، تختلف كل الاختلاف عن تعقلية المدرسة الديكارتية التى لم تكن تعتمد إلا على الجانب الأسمى من العقل ، أى أنها لا تسمح لغير النظر المحض بأن يتدخل فى تشييد قضاياها ، بينما أن تعقلية القرن الثامن عشر كانت تعول — فى استخراج قواعد الفكر والعمل — على التجربة والاستنباط الفرديين ، وفى هذا يقول « لوك » الذى كان يعتبر أستاذ العصر : (إن أفكارنا بل عقلنا نفسه هو نتيجة الأحاسيس التى تسجلها النفس وثمرة العمل الذى تجريه على ذاتها ، أى أنه ليست هناك أفكار فطرية فى النفس) .

ومعنى هذا أن الإنسان بجهوده الخاصة ، هو الذى يجب أن يكون مرشد نفسه فى وسط هذا الخليط المظلم وأن ينشئ معارفه وينظمها وأن يختار تصرفاته حسبما يريد ويستطيع .

ولقد نجم عن هذا المبدأ الصريح الذى

قويت حوله الدعايات ، أننا رأينا أولئك الجرآء ـ منذ طليعة ذلك القرن ـ قد بدءوا أعمالهم بحملة قاسية من النقد اللاذع تناولوا فيها كل شيء ، فلم تنج من أقلامهم وخطبهم، بل من هدمهم وتقويضهم أية ناحية من تراث أسلافهم ، فهاجموا العلم والفلسفة والأخلاق والمسيحية والسياسة والحقوق واضعين نصب أعينهم هدم ما هو مألوف من كل تلك الجوانب وإعادة بنائه على أسس جديدة يزعمون أنها غير قابلة للتزلزل ، وإن كانت الأيام قد أثبتت فيما بعد أن كثيراً منها ممكن التزلزل ، بل قد تزلزل فعلا وسقط خاوياً على عروشه . وما أبدع تصوير الكاتب العصرى الفرنسى (پول هازار) لهذا الغرور فى كتابه القيم : (الفكر الأوربى فى القرن الثامن عشر) إذ يقول :

(سنعالج هنا أوضح ما وجد من العقول المستنيرة وإن كانت قد خلفت فى فلسفتها الشفافة متناقضات سيفيد منها الزمن عند ما تقع هذه الفلسفة تحت فعله القارص) .

ومهما يكن من الأمر ، فإن إنتاج القرن الثامن عشر مشتمل ـ ككل نواحى الحياة ـ على الخير والشر ، والحسن والسوء . فمن محاسنه أنه سما بحقوق الإنسان ، كالعدالة والمساواة أمام القانون ، والحرية والتسامح وفكرة الإنسانية . ومنها ما قدمه إلى البشرية فى محيط العلوم التجريبية التى جعلت تخطو نحو الكمال خطوات متمهلة حينا ، وسريعة أحيانا .

أما فيما يتعلق ببحوثهم الدينية ، فإننا نعتقد أن أكثرها قد أخفق ، بل كان عنصر فناء مذاهبهم كما يسجل الأستاذ (پول هازار) هذه الحقيقة فيقول :(والآن نصل إلى أخطر أنواع سوء التفاهم الذى فكك مذاهبهم مادام أن الأمر فيه يتعلق بالصلات بين الإنسان والإله) .

كان هذا الخصام أو سوء التفاهم الذى أشار إليه ذلك العالم السالف الذكر ناشئا من حملة المفكرين على المسيحية لا على الألوهية من حيث هى ، إذ أنهم كانوا على الضد من ذلك يكادون يجمعون على أن العقل الذى يدينون به ، يحتم أن يكون لكل فعل فاعل ، ولكل نظام منظم حكيم . وفى هذا يقول فولتير : (كنت أتأمل فى هذه الليلة وكنت منغمسا فى مشاهدة الطبيعة ، وكنت أعجب بعظم وسير وعلائق هذه الكرات غير المتناهية التى لا يعرف الدهماء كيف يعجبون بها وكنت أعجب أكثر من ذلك أيضاً بالعقل الذى يرأس تلك المحركات الواسعة ، وكنت أقول لنفسى ينبغى أن يكون المرء أعمى لكى لا يبهره

هذا المظهر ، وينبغى أن يكون غبيا لكى لا يقر بمنشئها ، وينبغى أن يكون مجنونا لكى لا يعبده) (١) .

من هذا النص وأمثاله يتبين جليا أن أولئك المفكرين لم يكونوا ملاحدة . وأنهم كانوا فى جميع المناسبات يدفعون عن أنفسهم بكل مالديهم من قوة تهمة الإلحاد . غاية مافى الأمر أن غلبة روح التسامح عندهم قد جعلتهم أقل من معاصريهم قسوة على الملحدين الذين كان الرأى العام حتى ذلك الحين يعتبرهم مفسدين مجرمين . وسر هذا التسامح هو أنهم - بدلا من اعتبار الملحد كأنه مجرم - كانوا يغتبطون بأن يمنحوه شيئاً من (الظروف المخففة) كأن يقولوا مثلا : قد لا يكون الملحد إلا رجلا مخدوعا .

على أنه إحقاقا للحق ، كان هناك نوعان من الملحدين . أولها الملحدون الفاسقون الذين لا أخلاق لهم ، والذين هم ضد الدين ، لأن الدين يشهد ضد حياتهم ، وهؤلاء يستحقون الذم . وهناك أيضا ملحدون فضلاء يحبون ما هو خير ومعقول وجميل . وكان هؤلاء يعزون الإنسانية . ويبدون اجتماعيين ، وهم لم يهووا فى الإلحاد إلا بسبب شرفهم الطبيعى ولكنهم رضعوا الخرافات مع لبن مراضعهم وحينئذ خلطوا بين الخرافات والدين وذلك سوء فهم خليق بالصفح ، ومع ذلك فإن إصلاح الملحد أيسر من إصلاح المتحمس أو المتعصب .

غير أن المسيحيين قد نظروا إلى هذه الرحمة على أنها تودد إلى الملاحدة وانعطاف نحوهم (وشبيه الشيء منجذب إليه) كما يقولون . وقد امعن أولئك المتدينون فى اتهام هؤلاء الأعلام إلى حد أن أعلنوا فى صراحة أن التأليهية ليست سوى إلحاد مقنع ، وأنه لافرق بين معبودى المؤلهين والماديين إلا فى التسمية فالأول يدعى بالإله ، والثانى يدعى بالطبيعة .

ومما لا ريب فيه أن هذا الخلط بين الحق والباطل والافتئات على أولئك المفكرين ، والتهم الجزافية التى صوبت إليهم بغير حساب كل ذلك يدفعنا إلى أن نقف هنيهة عند هذه التأليهية المظلومة ، لنتبين الفرق بينها وبين الإلحاد إحقاقا للحق ووضعا للأمور فى نصابها ولكن ينبغى قبل ذلك أن نشير إلى أن الملاحدة والماديين والمؤلهين - وإن اختلفت عقائدهم وتباينت مبدئهم . كانوا جميعا متفقين فى شيء واحد وهو الهجوم العنيف على المسيحية ، ولعل أهم

(١) انظر مادة الدين من « أسئلة حول دائرة للمعارف » فى سنة ١٧٧١ . تأليف فولتير .

الأسباب الدافعة إلى هذه الحملة هو أن المسيحية فى ذلك العهد لم يكن لها مدافعون عباقرة كأولئك الأعلام الذين استطاعوا فى القرن السابع عشر أن يسحقوا خصومها من الملاحدة والزنادقة والمتحللين ، وأن يأخذوا بيدها إلى عرش الغلبة والانتصار أمثال : باسكال ، وبوسويه ، وفينيلون ، وماسيون ، وبوردالو ، ومن إليهم . وهذا الضعف من جانب المدافعين هو الذى سمح للتأليهية بأن تقوى وتقف من المسيحية موقف المخاصمة ، وبالتالى هذه هى الإجابة على سؤال المعضلة الأولى كما أن تعبير المتدينين بأن (التأليهية إلحاد مقنع) هو سر الخلط بين المبدأين ، وهذا كله يدفعنا إلى إلقاء الضوء على التأليهية كما وعدنا بذلك آنفا وإليك البيان .

كان المؤمنون من أعلام القرن الثامن عشر يرتفعون بإلههم عن أن يكون محليا أو موضوعيا ، أو خاصا بجنس معين من البشرية ، ويجزمون بأن أولى خصائص الألوهية الصحيحة هى العمومية ، وأن الدين الحق هو الذى لا ينبذ أحداً ولا يدين طائفة ، والذى يسمح لجميع أفراد البشرية بأن يسهموا فى الإيمان به وإليك الخطوط العريضة التى رسمها أولئك المفكرون ، لإلههم إذ يقولون : فى الواقع إن نظرة واحدة تلقى على الخلق تكفى لملاحظة نتائج جديرة بالإعجاب . ولما لم يكن من المستطاع تصور نتائج بلا علة ، فإنه ينبغى إذن فرض علة أولى ، ولأنه لا توجد ساعة بلا (ساعاتى) وأن لدينا أمام أعيننا ساعة جيدة الضبط فانه يوجد إذن عامل ماهر قد صنعها ، وأنه هو الذى ينظم ضبطها وهو الإله :

لأية غاية انتزع الإله العالم من العدم ؟ حقاً إن الإجابة محيرة ، ولكنه يكون أشد مدعاة للحيرة أيضاً أن يقر الإنسان فرض عالم لم ينشئه أحد ، وهو يسير بالمصادفة ، ولا يتجه نحو أية غاية . ولاجرم أن هذا يساوى القول بأن كائنات عاقلة يمكن أن تخلق بلا تدخل العقل . وإذن فيجب علينا حسب المنطق القويم ، أن نفضل العسير على المستحيل ، وأن نقر العلل الغائية ، وذلك حل يمكن أن يكون مرضيا .

إن التأليه يحقق نوعا من التطهير ، ففى الواقع أننا إذا محونا كل ما يبدو لنا خرافيا فى كل مذهب ، فإنه فى نهاية هذه الانمحاءات ، سيبقى الإله ، ولكنه إله غير معروف وغير ممكن المعرفة . ومن ثم فإنه لا يكاد يحتفظ له بغير الكينونة ولا يعطى من بين جميع

النعوت الممكنة سوى أشدها إبهاما وأكثرها إجلالا ، وقد دعى بالموجود الأسمى . وهو لا بد من إجلاله ، ولا يمكن إجلاله إلا بالعبادة الباطنية التى تثوى فى النفس . وقصارى القول : إن إقرار المرء فى العموم بموجود أول ، وتوجيهه قلبه من وقت إلى آخر نحوه ، وامتناعه عن الأفعال التى تخل بالشرف فى البيئة التى يقيم فيها ، وتأدية بعض الواجبات فى المجتمع ، هذا هو الضرورى الوحيد ، وكل ما يبقى بعد ذلك هو عرضى .

ذلك هو مجمل العبارات التى صور بها المؤلهون إلههم العام ، وهى كفيلة بإبراز الفرق الواضح بين التأليهية والإلحاد . وصريحة فى الإيمان بإله هو قمة السمو ، ولكن هل حسبنا هذه النتيجة الضئيلة ؟ وهل كان من الممكن حقاً أن تكتفى الإنسانية بدين عام أجرد بلا وحى ولا أوامر . ولا نواه ، ولا تعاليم ولا طقوس ولا معابد ؟ بل هل وصل أولئك المفكرون إلى الهدف الذى كانوا يرمون إليه من تحقيق دين عام ، أو وحدة اعتقادية شاملة للإنسانية جمعاء ؟ إننا سنجد الرد الشافى الذى يلخص إجابات أدق الباحثين على هذه الأسئلة فى كتاب الأستاذ پول هازار وإليك هذا التلخيص :

(الواقع أنه - بدلا من العمومية التى كان يراد الوصول إليها - قد انتهت الحالة إلى التشتت ، وإلى العزلة وإلى تباينات قابلة للإنقاض حتى إزاء الجزم البسيط وهو (إننى أومن بالإله) لأنه كان ينبغى معرفة أى إله ذلك الذى يجب الإيمان به ، إذ أن المرء حين ينظر عن كثب ، يلاحظ أنه لم توجد تأليهية واحدة ، بل تأليهيات متعددة متباينة ، بل متعارضة ، بل متنازعة . فمثلا : تأليهية پوب ليست هى تأليهية فولتير ، وتأليهية فولتير جد بعيدة عن تأليهية ليسينج . وحيث كان الأمر كذلك ، فإن وحدة الإيمان كانت قد تقلصت قطعا » .

والآن - لإيضاح هذا كله ، ولإبانة كل من تلك التأليهيات المختلفة فى حقيقتها وشرح مبادئ كل منها على حدة ومعرفة الفروق الدقيقة بينها وتوضيح النقط الأساسية التى تبعد صاحبها عن الدين الموحى به يجب أن نمر ولو مسرعين ، بتأليهيات أولئك المفكرين ، وموعدنا العدد المقبل إن شاء الله .

دكتور محمد غلاب

إفريقيا الجديدة والإسلام

للدكتور جمال الدين الرمادى

أصبحت إفريقيا تضم بين جنباتها دولا مستقلة كثيرة بعد أن كانت قارة المستعمرات التى يستغلها الأجانب استغلالا رهيبا و يستولون على ثمراتها و يستأثرون بخيراتها و يستعبدون الأحرار فيها ، فقد شهدت الشهور الماضية استقلال غانا وتوجولاند والسكونغو والكميرون وصوماليا واتحاد مالى وغيرها من المستعمرات القديمة فى القارة البيضاء التى أطلق عليها الدخلاء اسم القارة السوداء . وقد استقلت فى ٢٦ يونيو الماضى جزيرة مدغشقر القريبة من الساحل الشرقى لإفريقيا وأصبحت تعرف باسم جمهورية ملجاس وعدد سكانها خمسة ملايين ومساحتها ٧٤ ألف ميل مربع ، كما أعلن استقلال داهومى وساحل العاج والنيجر وفولتا العليا وسيعلن فى أكتوبر المقبل استقلال نيجيريا و يجرى قبل مارس عام ١٩٦١ استفتاء بين أهلها الذين يبلغ عددهم مليون وربعمائة ألف نسمة . يقررون فيه ما إذا كانوا ينضمون إلى نيجيريا المستقلة أم جمهورية الكميرون ، وفى سبتمبر الحالى تنال تنجانيقا الحكم الذاتى كما تتطلع أوغندة نحو هذا الحكم .

اتحاد مالى :

أما اتحاد مالى (فكان قبل الخلاف الذى حل) يضم السنغال والسودان الفرنسى الذى كان أهم مستعمرة لفرنسا فى غرب إفريقيا ، وقد كانت فرنسا لا تألو جهداً فى سبيل محو الثقافة العربية فى هذه البلاد ومنع البعثات الدينية من السفر إلى القاهرة لطلب العلم فى الأزهر الشريف كما كانت تحارب الجزائريين بجنود هذه البلاد فيحارب المسلم أخاه المسلم .

استقلال توجو :

كما استقلت توجو ، توجولاند سابقا ، فى ابريل عام ١٩٦٠ ورفعت الوصاية الفرنسية عنها . وقد احتلت توجولاند منذ تسعين عاما وظلت السيادة الألمانية عليها حتى الحرب العالمية الأولى حيث استطاعت انجلترا وفرنسا احتلال جزء منها وأقرت عصبة الأمم حكم الأمر الواقع وأصبح لكل من الدولتين الحق فى الحكم فى ظل الانتداب الذى تحول إلى الوصاية بعد الحرب العالمية الثانية وجرى استفتاء شعبى فى توجولاند البريطانية وتم بعد ذلك انضمام القسم البريطانى ومساحته ١٣ ألف ميل إلى غانا . أما القسم الفرنسى فقد اقترح إجراء انتخابات جديدة تحت إشراف الأمم المتحدة وتمت الانتخابات بفوز حزب الوحدة الذى تزعم حركة الاستقلال

وفشل أتباع الانضمام إلى فرنسا، وتقع توجولاند بين نيجيريا وغانا ومساحة الجزء الفرنسى حوالى ٢٢ ألف ميل مربع ، ويعيش فى توجولاند مليون إفريقى إلى جانب ألف أوربى والعاصمة هى لومى وعدد سكانها ٧٠ ألف نسمة وبها ثروة كبيرة من الحديد والفوسفات وكثير من المعادن غير منتجات غرب إفريقيا الزراعية مثل الكاكاو والبن وجوز الهند . وقد كان المستعمرون يحاولون أن تدفع إفريقيا ثمن تعمير أوربا وما خربته الحرب وأن تقدم مواردها من أجل هذا التعمير

والكونغو :

أما الكونغو فقد استقل فى ٣٠ يونيو سنة ١٩٦٠ بعد أن ظل فترة طويلة تحت حكم بلجيكا منذ أن اكتشفه ستانلى الرحالة البريطانى عام ١٨٨٢ وهو يعمل فى خدمة الملك ليوبولد الثانى ملك بلجيكا وباستقلال الكونغو تتحطم سلطة بلجيكا على هذه البقاع بعد أن ظل الملك ليوبولد مالكا شخصيا لأرض الكونغو ثم آلت ملكيته إلى الحكومة .

والكونغو من أكبر البلاد الإفريقية وأغناها إذ تبلغ مساحتها ٩٠٠٠٠٠٠ كم أى مثل مساحة الهند كلها وأكبر من مساحة غرب إفريقيا وبها نهر الكونغو سادس نهر فى العالم طولا وأوسعها على الإطلاق وتعمل البعثات فيها على نشر الكاثوليكية . وبين سبعين ألف أوربى يعيشون هناك يوجد عشرة آلاف من هذه البعثات ، وهذا يدل دلالة قاطعة على خطورة مهمتها وليس من شك فى أن الإسلام سوف يعود إلى صولته القديمة باستقلال هذه البلاد .

والكميرون :

وقد استقل كذلك الكميرون فى أوائل هذا العام وهو الجزء الأكبر من مستعمرة الكميرون الألمانية القديمة التى حصلت عليها ألمانيا عام ١٨٨٤ ثم تقاسمته بريطانيا وفرنسا فيما بينهما فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ونالت فرنسا الجزء الشرقى وبريطانيا الجزء الغربى ثم وضع الجزء الشرقى تحت وصاية الأمم المتحدة منذ ١٣ عاما .

استقلال الصومال :

انتهت الوصاية الإيطالية على الصومال وانتهت الحماية البريطانية قبلها فى شهر يوليو على الجزء الثانى من الصومال وأعلن ميلاد اتحاد جديد فى إفريقيا هو اتحاد الصومال الذى يبلغ عدد سكانه مليونين .

أما اتحاد الصومال الكبير فيشمل ثلاثة أقاليم أحدها يخضع لفرنسا والآخر ضم إلى كينيا والثالث هو إقليم أوجادين بأثيوبيا

وهذا الإقليم كانت بريطانيا قد أعدته إلى الحبشة مكافأة لها على اشتراكها فى إخماد ثورة المهدى فى الصومال، ثم عادت فأكدت هذه المكافأة بمعاهدة ١٨٩٧ وقد اعترفت فيها بالمصالح الحبشية فى أوجادين وهو إقليم يضم ٣٠٠٠٠٠ صومالى كلهم من المسلمين ويعد أغنى جزء فى الصومال، من الناحية المعدنية وثروة الغابات، كما يقال إن به بعض آبار زيت البترول وقد بدأ الاستعمار الإيطالى بالصومال منذ ٧٢ عاما بالاتفاق بين سلطان زنجبار وإيطاليا على تأجير موانئ بنادر لمدة خمسين عاما وبعد عشر سنوات تقريبا احتاج السلطان إلى مال فباع هذه الموانئ لإيطاليا مقابل ١٤٤٫٠٠٠ جنيه وكانت هذه هى بداية الاستعمار الإيطالى وقد أيدت انجلترا فكرة الوحدة على شريطة أن تتم بين الصومال الإيطالى والبريطانى فقط وتعتبر فرنسا الصومال الفرنسى جزءا من الاتحاد الفرنسى وقد تمت الوحدة فى الصومال على هذا الأساس.

نسبة كبيرة من المسلمين:

ومما يثلج صدر المسلمين أن هناك نسبة كبيرة من المسلمين فى هذه الدول وأن الإسلام وصل إليها منذ أبعد الحقب والأزمان، وقد اعتنق ملوك الماندونجو الإسلام فى كنجابا وفى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى، ثم بدءوا يوسعون مملكتهم فى الجنوب والجنوب الشرقى، ولما آل الملك إلى ساندياتا استطاع أن يجعل من مملكته الصغيرة امبراطورية عظيمة هى « امبراطورية مالى » وقد اتسعت رقعة هذه الامبراطورية وبلغت درجة كبيرة من الجاه والسلطان فى عهد الخليفة منسى موسى الذى استطاع قواده أن يستولوا على تمبكتو وأن يضموا جوا فى أواسط النيجر، كما امتدت مملكته من بلاد التكرور غربا إلى ولدى شرقا ومن ولاتا فى الصحراء إلى فوتاجالون جنوبا وكانت القوافل الآتية من مراكش وبرقة ومعدن زور مالى بانتظام وكانت زيارة « منسى موسى » للأراضى المقدسة تحدث دويا كبيرا وصدى عظيما لأنه كان يحج مع عدد كبير من أتباعه ويصحب معه نخبة كبيرة من العلماء نذكر منهم أبا إسحاق الساحلى أو السهلى من أهل غرناطة فى الأندلس وقد بنى مسجدا فى جوا ومسجدا آخر فى تمبكتو ويقول ابن بطوطة: إن المسلمين من أهل مالى يحافظون على أداء صلواتهم ويرتدون الثياب البيض يوم الجمعة ولو لم يكن لأحد إلا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة كما أنهم يعتنون بحفظ القرآن الكريم ويضعون لأولادهم القيود إذا قصروا فى حفظه ولا تفك عنهم القيود حتى يحفظوه. كما أنهم يواظبون على الصلاة ويلتزمون أداءها فى الجماعات ويضربون أولادهم إذا انصرفوا عنها، وإذا

جاء يوم الجمعة هرعوا إلى المساجد لأداء الصلاة فلا يجد المصلى مكانا له إلا إذا بكر بالذهاب إلى المسجد .

الإسلام فى الصومال :

ويوجد فى الصومال عدد كبير من المسلمين ويقال إن عربيا عريقا فى الأصل أجبر على أن يغادر بلاده فعبر البحر إلى (عدل) وأخذ يدعو للإسلام فى تلك البلاد . وفى القرن الخامس عشر الميلادى جاءت من حضرموت جماعة مكونة من أربعة وأربعين عربيا نزلوا فى بربرة على البحر الأحمر ، وتفرقوا فى بلاد الصومال وأخذوا ينشرون الإسلام ، وقد شق أحد هؤلاء اللاجئين وهو الشيخ ابراهيم أبو زباى طريقه إلى هرر فى حوالى سنة ١٤٣٠م واستطاع أن يجعل كثيرين من أهلها يدخلون فى الإسلام ، ولا يزال قبره موضع إجلال وتعظيم من أهل هذه المدينة ، وبالقرب من بربرة جبل سمى جبل الأولياء تخليداً لذكرى هؤلاء الدعاة الذين يقال إنهم كانوا يجلسون هناك فى خلوة قبل أن ينتشروا فى هذه البلاد للدعوة إلى دين الله ، وفى أوائل القرن السادس عشر كان كل سكان الصومال قد تحولوا إلى الدين الإسلامى عن طريق استقرار العرب من اليمنيين وغيرهم فى المراكز التجارية الساحلية .

مجاهد مسلم :

وقد قام أحد الزعماء الصوماليين وهو محمد ابن عبدالله بشن الحرب ضد الانجليز ، فالتف حوله نفر كبير من الصوماليين ، وانضمت إليه قوات ضخمة من الدراويش الذين تدفقوا من المناطق الشرقية والجنوبية الشرقية ومن مناطق الصومال الخاضعة للإيطاليين وأهل الحبشة ، وأعلن نفسه خليفة للطريقة الصالحية وهى إحدى الطرق الصوفية التى اعتنق مبادئها أثناء تأدية فريضة الحج ، فالتف حوله عدد كبير من الصوماليين وتحمسوا لها تحمسا شديدا وأصبحت شوكة فى جانب البريطانيين الذين أرسلوا الحملات تلو الحملات لإخمادها فكلفتهم كثيراً من الأرواح والأموال ، وقد انتشر التعليم الإسلامى فى الصومال فى القرن العشرين ، وقام المشايخ بتأسيس جميع أنواع المدارس فى المراكز الإسلامية ويطلق على المعلم شيخ أو فقيه .

ويمتلك بعض الشيوخ قطعا من الأراضى يوقفونها على هذه المدارس ، وعلى تحفيظ الصبية القرآن الكريم والحديث الشريف ، ولتخريج عدد من علماء الدين .

ولكن هذه الدول الجديدة لاتزال فى حاجة ملحة لرعاية الإسلام فيها بإرسال البعوث لنشر الدين وبث التعاليم الصحيحة التى تخرج الناس من الظلمات إلى النور .

دكتور جمال الدين الرمادى

كلا، لاينتفع الميت بعمل الحى

للأستاذ عمر الجندى البهتيمى

نشرت مجلة الأزهر فى عدد رجب من سنة ١٣٧٩ هـ مقالا للأستاذ محمد عبد الحميد البوشى رداً على كلمتى التى نشرت فى عدد جمادى الأولى بعنوان (هل ينتفع الميت بعمل الحى ؟) وقد أيد فيه الرأى القائل بأن الميت ينتفع بعمل الحى .

وللأستاذ البوشى العذر لأن البدعة إذا اعتيد العمل بها تمكنت فى النفوس وصارت ملكة يصعب تركها فتكون هى السنة .

واليوم أعود للكتابة فى هذا الموضوع متناولا الأمر من ناحيتين :

أولا : الرد على الدعوى التى اقتبسها الأستاذ البوشى من كلام بعض المتأخرين المقلدين من الفقهاء .

ثانيا : النظر فى أدلته التى استند إليها فى تأييد دعواه .

أما عن الناحية الأولى فأقول : إن الشريعة ليست إلا ما بينها النبى عليه الصلاة والسلام بقوله (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى كتاب الله وسنة رسوله) والكتاب والسنة ينقضان هذه الدعوى على ما سنبينه بعد : وقبل أن أبين ما قرره القرآن والسنة العملية أبين ما قرره الفقهاء وأئمة الحديث من القواعد المسالمة التى ستكون أساساً للرد وهى أولا : قرروا أن الرأى والقياس العقليين وهما اللذان لا يستندان إلى دليل شرعى لا يكونان فى العقائد والعبادات لأنها لا تعلم إلا من الشارع .

ثانيا : قرر أئمة الحديث بأن من علامات وضع الحديث مخالفته لظاهر القرآن مع عدم إمكان التوفيق بينهما بتأويل تجيزه القواعد الشرعية والأوضاع اللغوية .

ثالثا : المقرر عند الفقهاء أن العبادات البدنية المحضة كالصلاة والصوم لا تصح فيها النيابة فى الحياة ولا بعد الممات .

رابعا : ثواب العبادات يكون لفاعلها ولا ينتقل منه إلى غيره بأى نوع من أنواع التمليك لأنه معنى من المعانى غير معلوم المقدار لاعينا من الأعيان التى تملك وتعين .

وهاك ما قرره القرآن : قرر القرآن قاعدة عامة من قواعد الإسلام ، هى مسئولية كل إنسان عن عمله : قال الله تعالى « أم لم ينبأ بما فى صحف موسى ، وإبراهيم الذى وفى ، ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس

للإنسان إلا ما سعى » . الآية وقال تعالى : « هل تجزون إلا ما كنتم تعملون » وقال : « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » إلى غير ذلك من الآيات الدالة بطريق أدوات الحصر التى هى أقوى الدلالات على أن الإنسان لا ينفعه ولا يضره إلا عمله لنفسه دون عمل غيره ، وهذا هو ما فهمه الصحابة رضى الله عنهم من نصوص القرآن حتى قال ابن عباس لا يصلى أحد عن أحد ولا يصوم أحد عن أحد ، وقالت مثله السيدة عائشة وهذا هو ما تقتضيه العدالة الإلهية وتستسيغه العقول السليمة ، وقد استثنى الشارع من هذه القاعدة عمل البر ممن كان الشخص سببا فى وجوده وهم الأولاد بالنسبة للوالدين ، فعمل البر من الأولاد للوالدين مشروع فى أمرين متفق عليهما وهما الدعاء لهما والصدقة عنهما وأمور مختلف فى مشروعيتها لهما وهى الصلاة والصوم والحج وغيرها من العبادات التى كانت عليهما لله ولم يؤدياها فى حياتهما كما يعلم ذلك من وقائع فتاوى النبى عليه الصلاة والسلام لمن سألوه فإنها كلها كانت منه للأولاد عن والديهم وهذا لا ينقض القاعدة العامة التى قررها القرآن .

روى عن النبى عليه الصلاة والسلام (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له) .

وأما عمل القرب للأموات من غير الأولاد كقراءة القرآن والصدقة والذكر فلم يرد بمشروعيته نقل عملى ولا حديث صحيح .

ولو كان عمل القرب للأموات غير الدعاء والصدقة من غير الأولاد لوالديهم مشروعا لفعله النبى عليه الصلاة والسلام ولو مرة تشريعا لأمته ولتوفرت الدواعى على نقله والعمل به ممن شهده من الصحابة وانتشر ذلك فى سلف الأمة .

كما أن جعل الإنسان ثواب عمله لغيره لا يكون إلا بالهبة أو الإهداء وكلاهما يقتضى وجود المهدى له أو الموهوب له حتى يتحقق القبول والقبض اللازمان للهبة أو الإهداء والمهدى له أو الموهوب له وهو الميت معدوم فلا يتحقق القبول والقبض ولا التسليم والتسلم ولو شرعت الهبة أو الإهداء فى الثواب لصح بيعه وشراؤه ولتسابق الفقراء إلى بيعه للأغنياء ، ولم يقل بذلك أحد .

ثم ننتقل إلى الناحية الأخرى . وهى الأدلة التى اعتمد عليها الأستاذ فى رأيه : أما تضحية النبى عليه الصلاة والسلام بكبش عن فقراء أمته الأحياء فى زمنه فقد أقام النبى نفسه نائبا عنهم فى أمر عينى تجوز النيابة فيه فى الحياة وبعد الممات جبرا لخاطرهم ورفعا لشأنهم أمام الأغنياء فالنبى عليه الصلاة والسلام ثواب التضحية وللفقراء شرف

النيابة عنهم . على أن هذه واقعة حال مما اختص به النبي عليه الصلاة والسلام .

وحديث عائشة رضى الله عنها (من مات وعليه صوم صام عنه وليه) يتعين أن يراد من الولى الولد جمعا بين الروايات لأنها القائلة لا يصلى أحد عن أحد أى من غير الأولاد كما قال ابن عباس رضى الله عنه فهى من المسائل المستثناة من القاعدة العامة التى قررها القرآن وشملتها آية « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » . فالاحتجاج به ساقط

وحديث إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه المروى عن ابن عمر قال الأستاذ : إنه إذا كان الميت يعذب ببكاء أهله عليه أفلا يسر وينعم بقراءة القرآن له ؟ وهذا فضلا عن كونه قياسا عقليا فى أمر تعبدى فقد أنكرت هذا الحديث السيدة عائشة وخطأت ابن عمر فى سماعه للفظه أو فهمه لمعناه وقالت وفى القرآن مايكفيكم « ولا تزر وازرة وزر أخرى » وحديث اقرءوا يس على موتاكم قال الدار قطنى هذا الحديث ضعيف الإسناد والمتن وفيه جهالة أبى عثمان وأبيه وقد قال ابن العربى : كل ماروى من الأحاديث مرفوعا فى سورة يس لا أصل له .

ثم يقول الأستاذ : قال العلماء (إن قضاء الدين عن الميت يسقطه من ذمته ولو كان من أجنبى أو من غير تركته وإذا كان الميت ينتفع بإسقاط الدين عنه من الحى وإبراء ذمته منه فكذلك ينتفع بإهداء الثواب أو هبته له ولا فرق بينهما وهذا مردود بأمرين أحدهما أن هذا قياس عقلى فى أمر تعبدى . ثانيهما : قوله ولا فرق بينهما غير مسلم لأن الدين من الأعيان الموجودة المعلومة المقدار كالذهب والفضة فتصح النيابة فيه فى الحياة وبعد الممات بوصية وبدونها من تركة الميت أو من تركة غيره بخلاف الثواب فإنه عدم وغير معلوم المقدار إلا لله فالفرق بينهما ظاهر ، وما نقله من كتاب الروح لابن القيم من أن ثواب القراءة ملك للقارئ يتصرف فيه كيف يشاء . فإذا أهداه إلى الميت يصل إليه كما يصل ثواب الصوم والحج ، خطأ ابن القيم فيه العلماء بأن هذا ، على فرض تسليم وصول ثواب الصوم والحج إلى الميت ، قياس عقلى فى الأمور النقلية وبأن ثواب الصوم والحج لا ينتقل إلى غير فاعله بأى نوع من التصرفات التى تفيد الملكية لأنه عدم وبأنه ليس عينا حتى يملك . وبأن هذا القول مخالف لظاهر القرآن فلا يعول عليه - انظر تفسير القرآن الحكيم لآية ولا تكسب كل نفس إلا عليها من سورة الأنعام - وما نقله عن الشوكانى من أن أهل السنة قالوا إن للإنسان أن يجعل ثواب عمله لغيره مردود بما قررناه من أن السنة العملية التى جرى عليها النبي عليه الصلاة والسلام وسلف الأمة على خلاف ذلك و بأن الثواب عدم فلا ينتقل

(البقية على صفحة ٣٢٦)

فى كل مكان على حين أنكم استفتحتم التأليف فى كتب العربية بشرشر ومشمش وملء حشوها اللغة العامية . إننا نريد تيسيرا ينفذ إلى الصميم . أما أن يكون غمغمة لا تبين ، ومجمجة لا تتضح ـ فذلك ما لا نرضاه لكم فى عهد الثورة البناءة .

وقالوا أيضاً : ولكن راعينا أن يكون أيسر وأسهل لتناول التلميذ وأكثر اتصالا بالنظريات النفسية والتربوية الحديثة .

اللهم ـ إن كانت هذه البلبلة من وحى النظريات النفسية والتربوية الحديثة فإنى أحمدك على أنى لم أعرف عنها شيئا .

ويؤسفنى أن أقول : إن هذه البلبلة قد سرت إلى مقاييس البلاغة . وسأكتفى هنا بمثال واحد :

قمين بمعنى جدير كلمة خفيفة على اللسان مقبولة فى الأسماع جاءت فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى كلام العرب ، فما استثقلها أحد ، حتى جاء مؤلفو كتب البلاغة للثانوى فقالوا عنها إنها ثقيلة الظل متنافرة الحروف مثل مستشزرات !

ويا بعد ما بين قمين ومستشزرات .

إن فى القرآن الكريم كلمة بمعنى قمين وعلى وزنها وهى قوله تعالى : «حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق» .

فلو ترفعنا إلى أذواق هؤلاء الأساتذة ، واحتكمنا إلى قواعدهم لكانت كلمة حقيق فى القرآن الكريم أكثر ثقلا وأشد تنافرا ؛ لأن فيها ، قافين والقاف من حروف القلقلة .

هل يرضى مثل هذا أساتذة جامعاتنا المؤلفين للكتاب وبينهم عميد لكلية الآداب ؟ وماذا يقول عنا إخواننا فى الأقطار الشقيقة ؟ ؟ .

محمد عبد الخالق عضيمة
مدرس بكلية اللغة العربية

(بقية مقال كلا لا ينتفع الميت بعمل الحى ؟)

بأى نوع من أنواع التصرفات التى تفيد التمليك (انظر باب القرب المهداة إلى الموتى فى الجزء الربع من نيل الأوطار) .

وقال الأستاذ البوشى أن الإمام أحمد ذهب إلى أن ثواب قراءة القرآن يصل إلى الميت وهى دعوى غير صحيحة ، بل المروى أن سائلا سأل الإمام أحمد أن الرجل يفعل الشىء من الخير فيجعل نصفه لأبيه أو أمه فأجاب الإمام بقوله يرجى أن يقبل ولم يجزم بالجواب .

هذه كلمة عمادها الكتاب والسنة وماجرى عليه سلف الأمة وكل تشريع يخالف تشريعها يخشى أن يرجع بالأمة إلى الوثنية التى جاء الإسلام لمحوها وعبادة الله وحده ؟

عمر الجنزى البهجى
شيخ معهد دسوق الأسبق

النحو بين التجديد والتقليد

للأستاذ عبد الخالق عضيمة

قواعد النحو ثمرة لجهود صادقة موفقة بذلها النحويون فى سبيل استقراء كلام العرب ومشافهة الفصحاء .

وقد حرص كل واحد منهم على أن يستدرك على سابقه وما زال باب الاجتهاد فى النحو مفتوحا على مصراعيه لم يزعم أحد أن النحويين فوق مستوى الشبهات أو أن قواعدهم لها قداسة وحرمة .

فهذا أبو الفتح يقول فى الخصائص فى باب القول على إجماع أهل العربية متى يكون حجة ١ — ١٨٩ : لم يرد ممن يطاع أمره فى قرآن ولا سنة أنهم لا يجتمعون على الخطأ كما جاء النص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله أمتى لا تجتمع على ضلالة ...

وإنما هو علم منتزع من استقراء هذه اللغة فكل من فرق له عن علة صحيحة وطريق نهجة كان خليل نفسه وأبا عمرو فكره .

ويقول أبو حيان فى كتابه البحر المحيط ٢ — ٣١٧ : وليس العلم محصورا ولا مقصوراً على ما نقله وقاله البصريون

ويقول أيضا ٤ — ٢٧١ ولسنا متعبدين بأقوال نحاة البصرة وينبغى أن يكون نقد النحو قائما على الاستقراء والاستقصاء فيكشف عما فى قواعده من قصور وما وقع فيه النحويون من تقصير أما المهاجمة عند سنوح أول خاطر أو عروض نزوة من نزوات الفكر فهذا مما ينبغى ألا يكون عرض لنقد النحويين ابن مضاء القرطبى المتوفى سنة ٥٩٢ هـ فى كتابه الرد على النحاة(١).

ولم ينفذ فى نقده إلى جوهر النحو وإنما أدار حديثه فى كتابه على أمور ثلاثة لم يتجاوزها وهى العوامل — التعليلات — التمارين الفرضية .

والعوامل فى صناعة النحو إنما هى أمارات ودلالات فوجود إن فى الكلام يحمل المتكلم على نصب الاسم ورفع الخبر وهكذا غيرها ، هذا هو اعتبار النحويين لتأثير العوامل فى الكلام .

وقد بالغ ابن مضاء فى تصوير العوامل عند النحويين ونسب إليهم ما لم يصدر عنهم

---

١ نقدت هذا الكتاب فى مقال سابق .

كما نسب إلى ابن جنى أنه أنكر العوامل وكتب ابن جنى تنطق بغير ذلك .

على أن ابن مضاء قد اعترف فى مقدمة كتابه بأن النحويين قد بلغوا الغاية فيما أرادوا قال :

وقد وضع النحويون صناعة الكلام لحفظ كلام العرب من اللحن وصيانته عن التغيير فبلغوا من ذلك الغاية التى أموا ، وانتهوا إلى المطلوب الذى ابتغوا .

ثم ألف الأستاذ ابراهيم مصطفى كتابه إحياء النحو سنة ١٩٣٧ ، وسلك طريق ابن مضاء فى نقد نظرية العوامل .

ولما وجد أن إنّ تنصب المبتدأ وترفع الخبر وهذا يخالف أصوله قال : إن نصب الاسم بعد إن . جاء عن طريق الوهم والغلط، وهذه عبارته فى إحياء النحو ص ٧٠ .

لما أكثروا من إتباع إن بالضمير جعلوه ضمير نصب ووصلوه بها وكثر هذا حتى غلب على وهمهم أن الوضع للنصب ، فلما جاء الاسم الظاهر نصب أيضاً .

كما رأى الأستاذ ابراهيم مصطفى أن يجمع الفعل والفاعل والمبتدأ والخبر فى باب واحد يسمى باب المسند والمسند إليه ص ٥٣-٥٤ محتجا بأن سيبويه فعل ذلك فى كتابه .

ثم سنحت الفرصة للأستاذ ابراهيم مصطفى بالإشراف على تأليف كتب القواعد فى وزارة التربية والتعليم . ففرض هذه التسمية فرضا فى كتب الابتدائى والإعدادى، ونحن لا نقول: إن هذه التسمية خطأ ولكننا نقول : إنها لا تناسب المبتدئ فى النحو .

الفعل والفاعل والمبتدأ والخبر أوضح وأدل على المراد من المسند والمسند إليه ولو كان هذا الجمع يوحد أحكام البابين ويزيل ما بينهما من فروق لقلنا هذا تيسير طريف يجب أن نترسمه .

ولكننا نرى أن الفعل إذا تقدم على الفاعل تجرد من علامتى التثنية والجمع ، وإذا تأخر عن الفاعل لحقته ضمائر التثنية والجمع .

فالتعبير بالمسند والمسند إليه ليس فيه غناء عن دراسة أسلوب الفاعل ومعرفة أحكامه .

والأساتذة مؤلفو النحو الابتدائى قد طالبوا التلميذ المبتدئ بمعرفة هذه الأحكام فى تمريناتهم وأغفلوا الإشارة إليها فى قواعدهم وهذه هى تمارينهم .

(١) ابدأ الجمل الآتية بالمسند إليه .

خرج الصديقان فى رحلة ـ يفوز الملتفتون إلى دروسهم ـ أمسك الشرطيان اللص .

(٢) ابدأ الجمل الآتية بالمسند .

المصلون وقفوا صفوفا ـ القاربان يتسابقان

فى الماء ـ المسافرون يعودون اليوم ـ الزهرتان تفتحتا .

وسيبويه كما عبر بالمسند والمسند إليه عبر بالفعل والفاعل والمبتدأ والخبر فى مواضع كثيرة جدا من كتابه .

بل لو التزم سيبويه هذا التعبير لم يكن صنيعه هذا ملزما لنا ، إذ فى كتاب سيبويه من الاصطلاحات ما لا يناسب المبتدئ ولا غير المبتدئ .

فقد سمى سيبويه الحال خبرا (١ / ٢٠٣ ـ ٢٤١ ، ٢ / ٢١٦) .

وسمى التوكيد نعتا (١ / ١٤٠ ـ ٢٧١) .

وسمى النسق بدلا (٢ / ٢١٦) .

وسمى المقصور منقوصا ٢ / ٩٢ .

فهل من تيسير النحو أن نأخذ عن سيبويه مثل هذه المصطلحات . وقديما سئل رجل بكم اشتريت هذه السمكة؟ فقال بدرهمان فقيل له: لم قلت بدرهمان ولم تقل بدرهمين ؟ قال : لأن سيبويه قال فى كتابه ثمنها درهمان .

ألزم هؤلاء الأساتذة أنفسهم التعبير بالمسند والمسند إليه فى كتب الابتدائى والإعدادى.

عبروا عن فاعل نعم وبئس بقولهم الاسم التالى لنعم أو بئس وقالوا يسمى المخبر عنه مسندا إليه كما يسمى المخبر مسندا .

ثم جاءوا فى الثانوى وتكلموا عن حذف الفاعل وأغراضه .

وحذف المبتدأ جوازا ووجوبا .

وحذف الخبر جوازا ووجوبا .

وتقسيم الخبر إلى مفرد وجملة .

٢ ـ جعلوا ضمائر الرفع المتصلة حروفا فقالوا : ـ

تلحق بالفعل إشارات تدل على النوع والعدد وهى التاء للمتكلم أو المخاطب ـ ونا الدالة على المتكلمين ، والألف للمثنى ـ الواو ـ لجمع الذكور ـ الياء للمخاطبة ـ النون لجماعة الإناث ـ الجزء الثانى من الإعدادى ص٦٣ .

وقد نسب إلى المازنى أنه خالف النحويين وقال : إن الألف والواو والنون وياء المخاطبة حروف . ووافقه الأخفش فى الياء (ابن يعيش ٣ / ٨٨ همع الهوامع ١ / ٥٧) .

وبالرجوع إلى تصريف المازنى نجده يصرح بأن التاء فاعل . قال : وإن كانت التاء التى تجىء فاعلة فالجيد إظهارها . نحو فحصت عنه وفحصت برجلى .

(المنصف شرح تصريف[1] المازنى ٢-٢ ٣٢) .

والسادة المؤلفون لم يقفوا عند رأى المازنى ولكنهم توسعوا فيه وقاسوا عليه .

وأنا ان أرد عليهم بما رد به النحويون على المازنى .

« ١ » نشرته إدارة إحياء التراث القديم بتحقيق الأستاذ ابراهيم مصطفى وزميله .

وإنما أرد عليهم بما وقع فى كلامهم .

قالوا إذا كان المسند جملة فلابد أن يشتمل على ضمير يربطها بالمسند إليه ويطابقه فى النوع والعدد (٢ - ١٨٩) .

وإذا كان النعت جملة ، فلا بد أن تشتمل على ضمير يربطها بالمنعوت ويطابقه فى النوع والعدد (٢ / ٢٠٠) .

وإذا كانت الحال جملة فلابد أن تشتمل على رابط يربطها بصاحب الحال وهذا الرابط قد يكون الضمير أو الواو أو هما معا (٢ - ٢٠٨) ثم أعربوا الواو إشارة إلى الجمع فى قولهم :

الشبان يرفعون شأن الوطن (٢ - ١٢٣) .

وقالوا فى سئلت المسند إليه المخاطب (٣-١٢٢)

لو سألتهم أين رابط جملة الخبر فى قولهم الشبان يرفعون شأن الوطن وفى أنت سئلت وأنا تكلمت لقد اشترطوا فى الرابط أن يكون ضميرا ولا ضمائر عندهم فى هذه الأساليب . وكذلك الأمر فى جملتى الحال والنعت . إن فى هذا الكلام شيئا من البلبلة ما كان أغنى تلميذ الإعدادى عنها . وهل هذا هو التجديد والتيسير والتقريب ؟ .

٣ ــ فى المصدر الدال على الهيئة جاءوا بأمثلة من المصدر العام ولا تدل فى أسلوبها على الهيئة . قالوا .

ما أجمل العزة وأقبح الذلة ! ثم ذكروا زينة ـ خبرة ـ رشوة ـ محنة .

والمصدر العام إذا كان على فعلة لا يدل على الهيئة إلا بقرينة إضافة أو غيرها ، فإذا أردنا الدلالة على الهيئة فى الألفاظ المذكورة قلنا : ما أجمل عزة الكريم وأقبح ذلة اللئيم . وزينة العروس ، وخبرة المجرب ، وغير ذلك . وهذا محل اتفاق من النحويين لا نعلم فيه خلافا .

ولكنهم أغفلوا هذا الشرط فخلطوا بينهما

ذكروا فى مقدمة كتبهم : تيسير العربية وتقريب قواعدها قد رسمت لها بعض الآراء ولكن تحقيق هذه الأمنية كان يثير بعض التردد والخشية ، لأن الرجوع عن المألوف أمر غير يسير إلى أن جاءت الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ ومعها العزم الصادق على الإصلاح والرأى الماضى على تذليل الصعاب فهي السبيل للتنفيذ .

كل ما صنعه الأساتذة من تجديد فى النحو لا يتجاوز إطلاق المسند والمسند إليه على الفعل والفاعل والمبتدأ والخبر وأن ضمائر الرفع المتصلة إشارات .

فهل كان التعبير بالفعل والفاعل والمبتدأ والخبر واسمية ضمائر الرفع المتصلة من آثار العهد البائد؟

لا تظلموا الثورة يا سادة ، فالثورة شعارها البناء والإصلاح والتعمير .

ودعوتها للقومية العربية دعوة منطلقة مدوية قرعت جميع الآذان ، وتفتحت لها الأذهان ،

فى كل مكان على حين أنكم استفتحتم التأليف فى كتب العربية بشرشر ومشمش وملء حشوها اللغة العامية . إننا نريد تيسيرا ينفذ إلى الصميم . أما أن يكون غمغمة لا تبين ، ومجمجة لا تتضح ـ فذلك ما لا نرضاه لكم فى عهد الثورة البناءة .

وقالوا أيضاً : ولكن راعينا أن يكون أيسر وأسهل لتناول التلميذ وأكثر اتصالا بالنظريات النفسية والتربوية الحديثة .

اللهم ـ إن كانت هذه البلبلة من وحى النظريات النفسية والتربوية الحديثة فإنى أحمدك على أنى لم أعرف عنها شيئا .

ويؤسفنى أن أقول : إن هذه البلبلة قد سرت إلى مقاييس البلاغة . وسأكتفى هنا بمثال واحد :

قمين بمعنى جدير كلمة خفيفة على اللسان مقبولة فى الأسماع جاءت فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى كلام العرب ، فما استثقلها أحد ، حتى جاء مؤلفو كتب البلاغة للثانوى فقالوا عنها إنها ثقيلة الظل متنافرة الحروف مثل مستشزرات !

ويا بعد ما بين قمين ومستشزرات .

إن فى القرآن الكريم كلمة بمعنى قمين وعلى وزنها وهى قوله تعالى : «حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق» .

فلو ترفعنا إلى أذواق هؤلاء الأساتذة ، واحتكمنا إلى قواعدهم لكانت كلمة حقيق فى القرآن الكريم أكثر ثقلا وأشد تنافرا ؛ لأن فيها ، قافين والقاف من حروف القلقلة .

هل يرضى مثل هذا أساتذة جامعاتنا المؤلفين للكتاب وبينهم عميد لكلية الآداب ؟ وماذا يقول عنا إخواننا فى الأقطار الشقيقة ؟ ؟ .

محمد عبد الخالق عضيمة
مدرس بكلية اللغة العربية

(بقية مقال كلا لا ينتفع الميت بعمل الحى ؟)

بأى نوع من أنواع التصرفات التى تفيد التمليك (انظر باب القرب المهداة إلى الموتى فى الجزء الربع من نيل الأوطار) .

وقال الأستاذ البوشى أن الإمام أحمد ذهب إلى أن ثواب قراءة القرآن يصل إلى الميت وهى دعوى غير صحيحة ، بل المروى أن سائلا سأل الإمام أحمد أن الرجل يفعل الشىء من الخير فيجعل نصفه لأبيه أو أمه فأجاب الإمام بقوله يرجى أن يقبل ولم يجزم بالجواب .

هذه كلمة عمادها الكتاب والسنة وماجرى عليه سلف الأمة وكل تشريع يخالف تشريعها يخشى أن يرجع بالأمة إلى الوثنية التى جاء الإسلام لمحوها وعبادة الله وحده ؟

عمر الجنزى البهجى
شيخ معهد دسوق الأسبق

معركة بيت المقدس
وأثرها فى الأدب

للأستاذ الدكتور احمد احمد بدوى

كانت وحدة مصر وسورية تحت لواء صلاح الدين فاتحة عهد جديد فى سبيل استرداد فلسطين المغتصبة ، فإن هذا البطل لم يكد يوحد البلاد تحت لوائه ، حتى أرسل إلى جميع أجزاء امبراطوريته يستنفر الناس لقتال العدو ، ويحثهم على الجهاد ، ويأمرهم بالتجهز له . وكانت هذه الوحدة بين المسلمين سببا دفع الحماسة فى صدور الجند ، فأقبلوا من كل حدب يريدون أن يستخلصوا وطنا طال اغتصابه ، ومضى صلاح الدين على رأس جيشه ، فالتقى بالفرنج عند حطين ، ودارت عندها معركة لم يذق الفرنج مثلها ، منذ قدموا من ديارهم غازين بلاد الشام ؛ فقد مضوا بين أسير وقتيل

لم ينتظر صلاح الدين حتى يجمع العدو شمله المبدد ، بل مضى يتابع انتصاراته . وأخذت مدن العدو تسقط فى يده ، الواحدة تلو الأخرى ، حتى إذا سقطت البلاد المحيطة بالقدس ، شمر عن ساعد الجد ، وذهب إلى بيت المقدس يريد فتحه . وهنا رأى العدو أنه لا قبل له بالجيش الزاحف ، فاستكان ، وطلب الأمان ، وفتحت المدينة أبوابها لاستقبال صلاح الدين يوم الجمعة ، السابع والعشرين من رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة هجرية .

وكان لاستعادة بيت المقدس ، بعد أن ظل فى يد العدو زهاء تسعين عاما — رنة فرح تجاوبت أصداؤها فى أرجاء العالم الإسلامى كله ؛ وسجل الأدب شعره ونثره ما نبضت به قلوب المسلمين لدى هذا الفتح المبين .

— ١ —

وأول ما بدا من ذلك هذه الرسائل التى تأنق فيها كاتبوها ، يذيعون أنباء هذا النصر المؤزر ويسجلون قيمته ، ويروون أحداثه .

وكان لسان الدولة يومئذ القاضى الفاضل متأخرا بدمشق لمرض عرض له ، فكتب إليه السلطان يخبره بذلك الفتح ، ويقول له فى رسالة : « أما الفتح ... فإن الله تعالى سهل ما سجل أهل الدهر بأنه صعب ، وهب نسيم

النصر أيان يقال : ليس له مهب ، وخصنا بهذا الشرف ، وألحقنا فى هذه الفضيلة بصالحى السلف ... وفتحت بهذا الفتح من بيت الله المقدس أبواب الجنان ... وغسلت الصخرة المباركة من أوضارها بماء العيون الفائض الفائق غزارة الأمواه ، وقبلت الثغاه ، وبوشرت بالأفواه ، وطهرت بأهل العلم والحلم من أدناس أهل الجهل والسفاه ، والحمد لله ، ثم الحمد لله ... » .

والكتاب ناطق بتسجيل نظرة المسلمين يومئذ إلى فتح بيت المقدس ، وأنه كان أملا بعيداً يصعب تحقيقه ، فما إن تم حتى بهر الأبصار وملأ الصدور .

ومن كتاب آخر كتبه إليه أيضا : « نصرنا الله بملائكته المسومين ، وأوليائه المؤمنين ... وهذه موهبة مذهبة ، ومنقبة لا يبلغ إلى وصفها بلاغة موجزة ولا مسهبة ، ونوبة ما بعدها للإسلام نبوة ، وحظوة فى مذاق أهل التقوى والمغفرة حلوة ، وبشرى تجلو الوجوه ببشرها ... وتقر عين المؤمنين فى البعد والقرب بأنوار قربها ... والحمد لله على هذا الإحسان ، حمداً مستمرا على مر الزمان » .

وهكذا مضت الكتب تحمل هذه البشرى إلى القاصى والدانى من رجال الإسلام ؛ فلما برئ القاضى الفاضل كتب رسالة على لسان صلاح الدين ، وبعث بها إلى خليفة بغداد يصف له فيها الفتح وأثره ، وقد تأنق القاضى الفاضل بكل ما استطاع أن يتأنق ، ولقد كانت الصناعة والزخرف أساس الأعمال الأدبية فى ذلك الحين ، وكان الذوق يومئذ يستسيغ هذه الصناعة ويعدها المثل الأعلى للكتابة الفنية والشعر ، فلا غرابة إذا رأينا رسالة الفاضل مغرقة فى استخدام ألوان البديع ، لا تكاد تفلت ما يقع تحت يديها من هذه الألوان الزخرفية .

بدأ القاضى الفاضل رسالته بالدعاء للخليفة يومئذ الناصر لدين الله ، وكان هذا الدعاء متفقا مع الظرف الذى أنشئت من أجله الرسالة ، إذ كان دعاء بالنصر على العدو ، والتوفيق إلى اقتناء المحامد .

وأخذ القاضى الفاضل بعدئذ فى الحديث عن الهدف الذى كتب من أجله رسالته ، فبين النتيجة التى ترتبت على هذا الفتح المبين إذ قال : (... وكان الدين غريبا فهو الآن فى وطنه ، والفوز معروضا فقد بذلت الأنفس فى ثمنه ... وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمة ، فأولجت السيوف إلى الآجال وهى نائمة ، وصدق وعد الله فى إظهار دينه على كل دين ، واستطالت له أنوار أبانت أن الصباح عندها حيان الحين ، واسترد المسلمون تراثا كان عنهم آبقا ، وظفروا

يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفا على النأى طارقا ، واستقرت على الأعلى أقدامهم ، وخفقت على الأقصى أعلامهم ، وتلاقت على الصخرة قبلهم ، وشفيت بها ، وإن كانت صخرة ، كما تشفى بالماء غللهم » .

ويستمر القاضى الفاضل مبينا أن صلاح الدين لم يكن يحارب العدو من قبل إلا لكى يصل إلى هذه الغاية التى كان يرنو إليها ، « وكان الخادم لا يسعى سعيه إلا لهذه المنقبة العظمى ، ولا يقاسى تلك البؤسى إلا رجاء هذه النعمى ، لأنه كان مؤمنا بأن التقصير فى حرب العدو يزيده ضراوة ، ويشجعه على حرب المسلمين ، فضلا عن أنه تقاعس عن أداء فرض الجهاد ، ونكوص عما يجب لهؤلاء الذين اغتصبت أرضهم وديارهم وأموالهم ، وتقصير من الحاكم فيما وكل إليه من وجوب استرجاع الوطن السليب ، « فمن طلب خطيراً خاطر ، ومن رام صفقة رابحة تجاسر ، ومن سما لأن يجلى غمرة غامر ، وإلا فإن القعود يلين تحت نيوب الأعداء المعاجم[1] فتعضها . ويضعف فى أيديها مهر[2] القوائم فتقضها[3] ، هذا إلى كون القعود لا يقضى فرض الله فى الجهاد ، ولا يرعى به حق الله فى العباد ، ولا يوفى به واجب التقليد[1] الذى تطوقه الخادم من أئمة قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون ...) .

ويعلن صلاح الدين ظفره بالعدو الذى استقرت قدمه طويلا فى الأرض المقدسة ، وكثر بها عدته وعديده ، « وكتاب الخادم هذا . وقد أظفر الله بالعدو الذى تشظت قناته شفقا[2] ، وطارت فرقه فرقا[3] ، وفل سيفه فصار عصا ، وصدعت حصاته وكان الأكثر عددا وحصى ... وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة ، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كثيفة ... فبيوت الشرك مهدومة ، ونيوب الكفر مهتومة ، ... وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وبدل الله مكان السيئة الحسنة ، ونقل بيت عبادته من أيدى أصحاب المشأمة إلى أيدى أصحاب الميمنة » .

ورأى القاضى الفاضل أن يتحدث عن المعارك التى دارت قبل معركة بيت المقدس ، وكيف حاز فيها النصر على أعدائه ، (وقد كان الخادم لقيهم اللقاة الأولى فأمده الله بمداركته وأنجده بملائكته ، فكسرهم كسرة ما بعدها جبر ، وصرعهم صرعة لا يعيش معها بمشيئة

(١) المعاجم مفعول به لينين جمع معجم كمقعد : اسم مكان من عجمه بمعنى لاكه للخبرة

(٢) المهر : الغضاريف .

(٣) قض الشيء دقه .

(١) أى ما يوجبه تقلده للحكم .

(٢) تشظت : انشقت . والشفق : الخوف .

(٣) الفرق : الخوف

الله كفر ، ... وكان اليوم مشهودا ، وكانت الملائكة له شهودا ، وكان الضلال صارخا وكان الكفر مفقودا والإسلام مولودا ، وجعل الله ضلوع الكفار لنار جهنم وقودا ...) !

ويقص القاضي الفاضل في هذه الرسالة قصة فتح بيت المقدس ، كيف أراد صلاح الدين أن يستولي عليه عنوة ، فجمع حوله العدة والعديد ، ثم رأى العدو أنه لا قبل له بالجيش الزاحف ، فعرض على صلاح الدين أن يؤخذ البلد صلحا لا عنوة ، مبينا أنه إن أصر صلاح الدين على أخذه بالقوة فسوف يقضي العدو أولا على أسرى المسلمين وهم في المدينة يتجاوزون الألوف ؛ فرأى صلاح الدين أن يوافق على تسلم البلد صلحا .

كما صور القاضي الفاضل ما حاوله الصليبيون من خداع صلاح الدين حتى يكسبوا زمنا تصل إليهم فيه نجدة ربما كسبوا بها المعركة ، ولكن صلاح الدين لم ينخدع بهم .

ولنصغ إلى القاضي الفاضل يصور قصة الفتح بعد أن ذكر المعارك التي تعد مقدمات له ، فيقول : (ولما لم يبق إلا القدس وقد اجتمع إليها كل شريد منهم وطريد ، واعتصم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد ، وظنوا أنها من الله مانعتهم ، وأن كنيستها إلى الله شافعتهم . فلما نازلها الخادم رأى بلدا كبلاد ، وجمعا كيوم التناد ، وعزائم قد تألبت على الموت فنزلت بعرصته ، وهان عليها مورد السيف وأن تموت بغصته ، فزاول البلد العصي من جانب فإذا أودية عميقة ، ولجج وعرة غريقة ، وسور قد انعطف عطف السوار ، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار ، فعدل إلى جهة أخرى كان للطامع عليها معرج ، وللخيل فيها متوج ، فنزل عليها وأحاط بها ، وقرب خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه ، ويزاحمه السور بأكنافه ، وقابلها ، ثم قاتلها ، ونزلها وبرز إليها ثم بارزها ، وحاجزها ، ثم ناجزها ، فضمها ضمة ارتقب بعدها الفتح ، وصدع أهلها فإذا هم لا يصبرون على عبودية الجد عن عتق الصفح ، فراسلوه ببذل قطيعة إلى مدة ، وقصدوا نظرة من شدة ، وانتظار النجدة ، فعرفهم في لحن القول ، وأجابهم بلسان الطول ؛ فقدم المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون عصيها وحبالها ، وأوترلهم قسيها التي تضرب سهامها ولا يفارق سهامها نصالها .

وفي الحال خرج طاغية كفرهم ، وزمام أمرهم ، ابن بارزان ، سائلا أن يؤخذ البلد بالسلم لا بالعنوة ، وبالأمان لا بالسطوة . . وطرح جبينه في التراب وكان حينا لا يتعاطاه طارح ، وبذل مبلغا من القطيعة لا يطمح إليه طرف آمل طامح ، وقال : ها هنا أسارى مؤمنون يتجاوزون الألوف . وقد تعاقد

الفرنج على أنهم إن هجمت عليهم الدار ، وحملت الحرب على ظهورهم الأوزار ، بدىء بهم فعجلوا ، وثنى بنساء الفرنج وأطفالهم فقتلوا ، ثم استقتلوا بعد ذلك فلم يقتل خصم إلا بعد أن ينتصف ، ولم يسل سيف من يد إلا بعد أن تنقطع أو ينقصف . وأشار الأمراء بالأخذ الميسور من البلد المأسور » .

وبرغم طول الكتاب لم يره القاضى الفاضل كافيا لتصوير الفتح ، فأرسل مع الكتاب رسولا يشرح كيف تم النصر المبين .

وقد أعجب كتاب عصره بكتاب القاضى الفاضل ، فأخذوا ينشئون كتبا على غراره فى موضوعه ، كما فعل ابن الأثير .

وإذا كان هذا الكتاب قد ظفر بإعجاب الكتاب فى عصره فإننا نراه اليوم غير واف بالغرض الذى أنشئ من اجله ، ونرى التزام الكاتب للمحسنات قد أضر ضرراً بليغاً بالهدف الذى يقصد إليه الكتاب ، إذ قتلت هذه المحسنات حيويته ، وأعجزته عن التصوير الصادق الواضح الذى تبدو فيه العاطفة نابضة بالحياة .

— ٢ —

ومن الطبيعى أن يكون لهذا الفتح أثره فى الخطابة ، وبخاصة تلك التى تلقى على المنابر يوم الجمعة . ولعل أهم نص لخطبة بقيت لنا من عصر الحروب الصليبية هو الخطبة التى قيلت عقب فتح صلاح الدين بيت المقدس ، ولعلها ألقيت يوم الجمعة رابع شهر شعبان كما حدثتنا بذلك رسالة القاضى الفاضل ؛ قال ابن خلكان : « لما فتح القدس تطاول إلى الخطابة يوم الجمعة كل واحد من العلماء الذين كانوا فى خدمته حاضرين ، وجهز كل واحد منهم خطبة بليغة ، طمعا فى أن يكون هو الذى يعين لذلك ؛ فخرج المرسوم إلى القاضى محى الدين[1] أن يخطب هو . وحضر السلطان وأعيان دولته ، وذلك فى أول جمعة صليت بالقدس بعد الفتح [2] .

افتتح محى الدين خطبته بجميع تحميدات القرآن الكريم : استفتح بسورة الفاتحة ، وقرأها إلى آخرها ، ثم قال : « فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين » ، ثم تلا ذلك بتحميدات سور القرآن . وكان المقام يستدعى هذا الحمد الكثير ، فقد فتح بيت المقدس بعد أن ظل فى أيدى مغتصبيه

---

١ : هو أبو المعالى محمد بن على بن محمد ، كان فقيها أديبا نظم وخطب رسائل ؛ وتولى القضاء بدمشق ، وكذلك آباؤه من قبل ، وكان له عند صلاح الدين منزلة عالية . ولد سنة ٥٥٠ هـ وتوفى سنة ٥٩٨ هـ .

(٢) خطب محيى الدين هذا أربع خطب متوالية فى أيام جمع ، ولكن لم يبق من خطبه إلا هذه الخطبة التى نعرضها ونصها بكتاب وفيات الأعيان ١ : ٤٦٨

زهاء تسعين عاما . وكان المسلمون قد يئسوا من استعادته .

ولم يكتف بتحميدات القرآن ، بل أنشأ هو حمدا قدمه إلى الله . ووصفه بما يناسب هذه النعمة العظيمة ، فقال : « الحمد لله معز الإسلام بنصره ، ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره . ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكفار بمكره ، الذى قدر الأيام دولا بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله . القاهر فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر على خليفته فلا ينازع ، والآمر بما يشاء فلا يراجع ، والحاكم بما يريد فما يدافع » .

ثم عاد مرة ثالثة إلى حمد الله قائلا : « أحمده على إظهاره وإظهاره ، وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره ، وتطهير بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره » .

وبعد ذكر الشهادتين محاطتين بما يناسب المقام غير ناس عند ذكر محمد أنه أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى - اتجه إلى هؤلاء الذين تم على أيديهم هذا النصر المؤزر ، فأثنى على جهدهم الموفق قائلا (أيها الناس ، أبشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا ، لما يسره الله على أيديكم : من استرداد هذه الضالة ، من الأمة الضالة ، وردها إلى مقرها من الإسلام ، بعد ابتذالها فى أيدى المشركين قريبا من مائة عام . . .) .

ثم أخذ يعدد فضائل المسجد الأقصى : (فهو موطن أبيكم إبراهيم ومعراج نبيكم محمد عليه السلام ، وقبلتكم التى كنتم تصلون إليها فى ابتداء الإسلام ، وهو مقر الأنبياء ومقصد الأولياء ، ومهبط الرسل ومهبط الوحى ، ومنزل به ينزل الأمر والنهى ، وهو فى أرض المحشر ، وصعيد المنشر ، وهو البلد الذى بعث إليه عبده ورسوله ، وكلمته التى ألقاها إلى مريم وروحه عيسى الذى كرمه برسالته ، وشرفه بنبوته ، . . . وهو أول القبلتين . وثانى المسجدين ، وثالث الحرمين ، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه ، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه) ، وهو بذلك يبين لهؤلاء الذين كان لهم شرف فتحه مقدار ما قدموه من فضل يحمدون عليه ، ولذا قال بعد ذلك : (فلولا أنكم ممن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصكم بهذه الفضيلة التى لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم فى شرفها مبار ، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم من المعجزات النبوية ، والواقعات البدرية ، والعزمات الصديقية ، والفتوحات

العمرية ، والجيوش العثمانية ، والفتكات العلوية ، جددتم للإسلام أيام القادسية ، والملاحم اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية ، والهجمات الخالدية ، فجزاكم الله عن نبيه : محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الجزاء ، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم فى مقارعة الأعداء ، وتقبل منكم ما تقربتم به إليه من إهراق الدماء ، وأثابكم الجنة فهى دار السعداء) .

وإذا كان الله قد أجرى على أيديهم هذا الفتح المبين فإنه نعمة كبرى يجب أن يقدروها حق قدرها ، ويقوموا لله بواجب شكرها . وهنا يتحدث عن فضل بيت المقدس مرة أخرى ؛ ليبين نعمة الله عليهم فى فتحه ، فيقول : (أليس هو البيت الذى ذكره الله فى كتابه . ونص عليه فى محكم خطابه . فقال تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » . أليس هو البيت الذى عظمته الملل . وأثنت عليه الرسل ، . . . فاحمدوا الله الذى أمضى عزائمكم . . . ووفقكم لما خذل فيه أمم كانت قبلكم من الأمم الماضين ، وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى ، وأغناكم بما أمضته كان وقد ، عن سوف وحتى . . .) .

وبعدئذ أمرهم بحراسة هذه النعمة بالتقوى وترك العجب والغرور ، وبالاستعداد لإزالة ما بقى من آثار الغاصبين للديار ، فقال : (فاحرسوا ، رحمكم الله ، هذه النعمة عندكم بتقوى الله التى من تمسك بها سلم . ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى ، ومواقعة الردى ، ورجوع القهقرى والنكول عن العدا ، وخذوا فى انتهاز الفرصة ، وإزالة ما بقى من الغصة ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، وبيعوا عباد الله ، أنفسكم فى رضاه ، إذ جعلكم من خير عباده ، وإياكم أن يستزلكم الشيطان ، وأن يتداخلكم الطغيان ، فيخيل لكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد ، وخيولكم الجياد ، وبجلادكم فى مواطن الجلاد . لا والله ما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، فاحذروا عباد الله بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل ، والمنح الجزيل وخصكم بنصره المبين ، وأعلق أيديكم بحبله المتين ، أن تقترفوا كبيرا من مناهيه ، وأن تأتوا عظيما من معاصيه ، فتكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا . والجهاد الجهاد ، فهو من أفضل عباداتكم ، وأشرف عاداتكم » .

ومضى يذكى فيهم نار الحماسة ، كى يستمروا فى جهادهم ، مهونا من شأن عدوهم ، شادا عزائمهم ، مؤملا أن ينتهزوا هذه الفرصة كى يلقوا بعدوهم إلى البحر .

وفى الخطبة الثانية من هذا اليوم مضى

يدعو لقائد المسلمين فى هذه المعركة ، وهو صلاح الدين ، دعاء حاراً ، ولا عجب ، فقد كانت روحه المعنوية التى بثها فى صدور جنده سببا لهذا النصر المبين ، فقال الخطيب : (اللهم وأدم سلطان عبدك . الخاضع لهيبتك الشاكر لنعمتك . المعترف بموهبتك ، سيفك القاطع ، وشهابك اللامع ، والمحامى عن دينك المدافع ، والذاب عن حرمك المانع ، السيد الأجل الملك الناصر ، جامع كلمة الإيمان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، مطهر البيت المقدس ، أبى المظفر يوسف بن أيوب محيى دولة أمير المؤمنين . اللهم ، عم بدولته البسيطة ، واجعل ملائكتك براياته محيطة ، وأحسن عن الدين الحنيفى جزاءه ، واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه . اللهم أبق للإسلام مهجته ، ووق للإيمان حوزته ، وانشر فى المشارق والمغارب دعوته . اللهم كما فتحت على يديه البيت المقدس بعد أن ظنت الظنون ، وابتلى المؤمنون ، فافتح على يديه دانى الأرض وقاصيها ، وملكه صياصى الكفر ونواصيها . فلا تلقاه منهم كتيبة إلا مزقها ، ولا جماعة إلا فرقها ، ولا طائفة إلا ألحقها بمن سبقها . اللهم ، اشكر عن محمد صلى الله عليه وسلم سعيه ، وأنفذ فى المشارق والمغارب أمره ونهيه ، وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها ، وأرجاء البلاد وأكنافها ، اللهم ذلل به معاطس الكفار ، وأرغم به أنوف الفجار ، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار) .

وإن هذا الدعاء الحار الصادر من قلب الخطيب ليعبر أصدق تعبير عما كان يشعر به المسلمون فى عصر صلاح الدين من حب وإجلال لهذا القائد الموفق ، وما كانوا يحملونه من كبار الآمال فيه . وإن موازنة بين هذا الدعاء الحار الملىء بالأمل والقوة والتفاؤل ، وبين ما كان يدعى به لنور الدين محمود ، وهو : (اللهم أصلح عبدك ، الفقير إلى رحمتك . الخاضع لهيبتك ، المعتصم بقوتك ، المجاهد فى سبيلك ، المرابط لأعداء دينك : أبا القاسم محمود بن زنكى . . ناصر أمير المؤمنين) .

إن هذه الموازنة لتدل على الخطوة الواسعة التى خطاها المسلمون نحو تحقيق جزء من أهدافهم فى إجلاء الصليبيين عن أرضهم ، فبينما نور الدين كان مجاهداً فى سبيل الله ، مرابطاً لأعداء دينه ، إذا بصلاح الدين سيفه القاطع ، وشهابه اللامع ، جامع كلمة الإيمان ، وقامع عبدة الصلبان .

ولو أن الخطب التى قيلت يومئذ بقيت لدلتنا على ما خفق به قلوب المسلمين من فرح وابتهاج بهذا الفتح المبين .

— ٣ —

أما الشعر فقد تدفق على ألسنة الشعراء يصف المعركة حينا ، ويتحدث عن نتائجها حينا ، ويصور بهجة المسلمين بها مرة وحزن الفرنج على فقدها أخرى ، وتغنى الشعراء وأطالوا . فمن ذلك قول الشريف محمد بن أسعد نقيب الأشراف بمصر ، وقد بدأها بما ينم عن الدهشة والذهول اللذين ألما بالعالم الإسلامى . لدى سماع خبر فتح القدس، إذ قال :

أترى منـــاما ما بعينى أبصر
القدس يفتح ، والفرنجة تكسر ؟
وملـيكهم فى القيد مصفود ، ولم
يُرَ قبـل ذاك لهم مليك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتـح الذى
وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
فتح الشئآم ، وطهر القدس الذى
هو فى القيـــامة للأنام المحشر

ثم يصف الشاعر إعجابه بالبطل الذى تم على يديه هذا الفتح . فيقول :

من كان هـــذا فتحه لمحمد
ماذا يقال له ، وماذا يذكر
ملك غدا الإسـلام من عجب به
يختال ، والدنيـا به تتبختر
نثر ونظم طعنـــه وضرابه
فالرمح ينظم ، والمهنـــد ينثر
حيث الرقاب خواضع ، حيث العيو
ن خواشع ، حيث الجباه تعفر

أما أبو على الحسن بن على الجوينى فيرى الملائكة قد أعانت فى هـذا الفتح ، بعد أن مضى على سقوط القدس فى يد العدو أزمان متطاولة ، لم يستطع ملوك المسلمين فيها استرجاعه ، فكأنما كان الفتح مدخراً لصلاح الدين ، فلا غرو أن أخذ الشاعر يدعو لصلاح الدين أن يبقى للإسلام حارسا ، إذ يقول :

جند السماء لهذا الملك أعوان
من شك فيهم فهذا الفتح برهان
متى رأى الناس ما نحكيه فى زمن
وقد مضت قبل أزمان وأزمان
هذا الفتوح فتوح الأنبيـاء وما
له سوى الشكر بالأفعال أثمان
أضحت ملوك الفرنج الصيد فى يده
صيداً . وماضعفوا يوما وماهانوا
تسعون عاما بلاد الله تصرخ والإ
سلام أنصاره صم وعميـــان
للناصر ادخرت هذى الفتوح ، وما
سمت لها همم الأملاك مذ كانوا
فى نصف شهر غدا للشرك مصطلحا
فطهرت منه أقطـار وبلدان
لو أن ذا الفتح فى عصر النبى لقد
تنزلت فيـه آيات وقرآن

فالله يبقيك للإسلام تحرسه
من أن يضام ، ويلقى وهو حيران
إذا طوى الله ديوان العباد فما
يطوى لأجر صلاح الدين ديوان

ويرى أبو الحسين بن جبير الأندلسى أن السعد قد أقبل بوجهه على الإسلام بمقدار إدباره عن الصليبيين ، وأن هذا الفتح مؤذن بزوال ملكهم عن الشام ، فيقول :

أطلت على أفقك الزاهر
سعود من الفلك الدائر
فأبشر ؛ فإن رقاب العدا
تمد إلى سيفك الباتر
وكم لك من فتكة فيهم
حكت فتكة الأسد الخادر
كسرت صليبهم عنوة
فلله درك من كاسر
وغيرت آثارهم كلها
فليس لها الدهر من جابر
وأمضيت جدك فى غزوهم
فتعسا لجدهم العاثر
وأدبر ملكهم بالشآ
م ، وولى كأمسهم الدابر
جنودك بالرعب منصورة
فناجز متى شئت أو صابر
ثأرت لدين الهدى فى العدا
فآثرك الله من ثائر
وقمت بنصر إلـه الورى
فسماك بالملك الناصر
فتحت المقدس من أرضه
فعادت إلى وصفها الطاهر

وللشعراء إنتاج غزير من الشعر يطول بنا وجه عرضه ، فقد عقد صلاح الدين مجلسا استمع فيه لما أنشده الشعراء ، وقرضوه فى عودة القدس إلى أحضان الإسلام ، ومن لم يكن حاضراً هذا المجلس أرسل قصيدته إلى البطل الفاتح .

— ٤ —

وكان لهذه المعركة أثرها فى بعض الأدباء ، فأرخ لها بأسلوب أدبى مؤثر ، وألف كتابا يضع حوادث التاريخ ، مصوغة فى أسلوب أدبى مؤثر ، يراعى فى صوغها ما يراعى فى الكتابة الفنية : من الالتجاء إلى الخيال فى التصوير ، والاعتماد فى التوضيح على التشبيه والمجاز والاستعارة ، والتشبث بأذيال الزخارف ، والزينة اللفظية والمعنوية .

وأظهر كتاب أرخ لهذا (الفتح القسى فى الفتح قدسى) لمؤلفه عماد الدين الكاتب المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، وسماه كاتبه بذلك مشيراً إلى أنه نفحة من نفحات قس ابن ساعدة الإيادى الخطيب الجاهلى المشهور بالفصاحة . وقد ذكر المؤلف فى أوله الخطة

التاريخية الأدبية التى انتهجها فى كتابه إذ قال : « هذا كتاب أسهمت فيه بين الأدباء الذين يتطلعون إلى الغرر المتجلية ، وبين المستخبرين الذين يستشرفون إلى السير المتحلية ، يأخذ الفريقان منه على قدر القرائح والعقول ، ويكون حظ المستخبر أن يسمع والأديب أن يقول . .

ولما كان المؤلف قد سار على نهج إيراد الحوادث متتابعة على حسب السنين ، وكان قد بدأ بإيراد الحوادث منذ سنة ثلاثة وثمانين وخمسمائة ، وهى السنة التى فتح فيها بيت المقدس ، قال معللا سبب اختياره البدء بهذا العام : « وأنا أرخت بهجرة ثانية ، تشهد للهجرة الأولى بأن أمدها بالقيامة معذوق ، وبأن موعدها الموعد الصحيح غير المدفوع والصريح غير الممذوق ، وهذه الهجرة هى هجرة الإسلام إلى البيت المقدس ، وقائمها السلطان صلاح الدين أبو المظفر ، يوسف بن أيوب ، وعلى عاتقها يحسن أن يبنى التاريخ وينسق ، وتسفر عن أهلتها دآدىء المداد وتنشق . . وهذه الهجرة أبقى الهجرتين ، وهذه الكرة بقوة الله أبقى الكرتين ، فإن العرب كانت إذا تناهت فى وصف الرجل بالقوة قالت : كأنه كسر ثم جبر ، والحق أن نقول : إن أطول الحياتين حياة المرء إذا مات ثم نشر ، والعيان يشهد أن أمنع السورين ما عمر بعد أن ثغر . . » .

ويؤكد العماد : أنه لم يسجل فى كتابه إلا ما شاهده وعاينه ، ثم بدأ بالحوادث التى تتعلق بغزوات صلاح الدين ، وجرت منذ أول عام ثلاثة وثمانين وخمسمائة . وارتضى العماد طريقة السجع منهجا له فى كتابه ، فلم يحد عنه من أول سطر فى الكتاب ، إلى آخر سطوره . ولنعرض نموذجا لمزجه الحقائق التاريخية بالعواطف والانفعالات ، وللتعبير عن ذلك تعبيراً فنيا ، فيه صياغة وصناعة ، قال : « دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة . وكتب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الأقطار والبلاد ، يستدعى من جميع الجهات جموع الجهاد ، وأهل للاستدعاء أهل الاستعداد ، واستحضر للغزو ، من الحضر والبدو ، وبرز من دمشق يوم السبت مستهل المحرم قبل استنجاد الجنود واستحشاد الحشود ، وإصحار الأسود ، وإحضار البيض والسود . مضى والعز ماضى العزم ، صائب السهم ، ثاقب الفهم ، ثابت السعود ، كابت الحسود ، وخيم على قصر سلامة من بصرى ، وكفت يدرعبه الطولى من الفرنج اليد القصرى ، وأقام على ارتقاب الحجاج ، وقد رتب الفرنج من الأرصاد أفواجا على تلك الفجاج ، لا سيما إبرنس

(البقية على صفحة ٣٥١)

إن هـذه النظرة الخاطفة إلى الخصائص اللغوية للهجات العربية فى آسيا الوسطى يدل على مقدار جدة هذه اللهجات .

وقد أعد الاتحاد السوفياتى نشر مصنف فى أربعة مجلدات عن لغة عرب آسيا الوسطى والمجلد الأول الذى سيصدر قريبا يتضمن نصوصا من لهجـــة بخارى مع ترجمتها إلى الروسية . وسيحتوى المجلد الثانى نصوصا من لهجة قشقادريا مع ترجمتها إلى الروسية ، وسيكون المجلد الثالث قاموسا للهجتين ، أما المجلد الرابع فسيتضمن التحليل الغراماطيقى للهجتين العربيتين فى آسيا الوسطى . إن نشر هذه الوثائق سيعطى المستشرقين فكرة كاملة عن هاتين اللهجتين اللتين يشكل اكتشافهما ودراساهما ـ كما قال الأكاديمى ا . كراتشكوفسكى المستعرب الروسى المعروف ـ صفحة مجيدة فى تاريخ الدراسات العربية المعاصرة وأشياء جديدة كثيرة فى كنز العلوم العالمى [1] .

ج . تزربيتلى

عضو أكاديمية العلوم فى جمهورية جورجيا

---

(١) ا . كراتشكوفسكى — محاولة فى تاريخ الدراسات العربية فى روسيا .
موسكو لينغراد ١٩٥٠ . الصفحة ٢٠٣ .

(بقية مقال معركة بيت المقدس)

الكرنك ، فإنه كان حريصا على الدرك ، ناصبا شر الشرك ، فلما شم ذلك الذئب رائحته الأسد ، عاود دخول حصنه حذار خروج روحه من الجسد . .

فأنت ترى الحقيقة التاريخية وهى خروج صلاح الدين من دمشق مترقبا عودة الحاج قد لونت بشعور الكاتب إزاء هـذا الخروج واستدعاء الجنود ، وإزاء إبرنس الكرك ، من أنه كذئب شم رائحة الأسد .

وعلى هـذا المنوال يجرى الكاتب فى كل ما أورده من حقائق تاريخية ، يضفى عليها شعوره وإحساسه ، وينتقل من عام إلى عام ، متتبعاً حوادث الفتح وما نلاه من محاولة استرداد الفرنج لبيت المقـدس إلى أن انتهت هذه الحروب بصلح الرملة سنة ٥٨٨ هـ .

وبعـد ، فقد كان لمعركة بيت المقدس أثر كبير فى الأدب شعره ونثره . وكانت هـذه المعركة من أكبر المعارك أثراً باقياً إلى اليوم .

أحمد أحمد بدوى

وكيل كلية دار العلوم

الملامتيّة أو الملاميّة

للأستاذ أحمد عبد الجواد الدومى

الملامتية : غصن طيب قوى من أغصان التصوف المباركة امتد وأورق وأثمر بنيسابور فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى على يد مشايخ ثلاثة هم :

أبو حفص النيسابورى ، حمدون القصار ، أبو عثمان الحيرى . . .

دعانى إلى الكتابة عنهم : قسوة مناهجهم ، وعمق تفكيرهم ، وطول مراقبتهم للحق تبارك وتعالى ، وتحقيرهم للنفس واتهامهم لها على طول الخط ، لأنها - فى نظرهم - ملتقى الخبائث والرذائل ، ومبعث كل الشرور . . .

ولا شك أن هذا سلوك عنيف ، يحتاج فى تطبيقه إلى يقظة تامة ، وهمة عالية ، ومثابرة ومصابرة ! ! .

كان الملامتى أو الملامى يخفى حسنته ، أى أعماله الحسنة ، كما نخفى نحن أعمالنا السيئة ، وكان يظهر نقائصه بالوضوح والجلاء والقوة التى يظهر بها الكثير من الناس فضائلهم والجليل من الأعمال .

وهناك تعريفات ثلاثة للملامتى وطريقته ، تلقى الضوء الكاشف على هذه الفرقة العجيبة :

١ — جاء فى عوارف المعارف للسهروردى أن الملامتى هو الذى لا يظهر خيراً ولا يضمر شراً . . . .

٢ — قال حمدون القصار : « طريق الملامة هو ترك التزين للخلق بحال ، وترك طلب رضاهم فى نوع من الأخلاق والأحوال ، وألا يأخذك فى الله لومة لائم » .

٣ — وقال أبو حفص : « أهل الملامة قوم قاموا مع الحق تعالى على حفظ أوقاتهم ، ومراعاة أسرارهم ، فلاموا أنفسهم على جميع ما أظهروا من أنواع القرب والعبادات ، وأظهروا للخلق قبائح ما هم فيه ، وكتموا عنهم محاسنهم ، فلامهم الخلق على ظواهرهم ، ولاموا هم أنفسهم على ما يعرفونه من بواطنهم » .

وأول ما يكشف عنه الضوء هنا : اللوم أو الملام الدائم الموجه من الملامتى إلى نفسه ، فلا يبيح لها أن تستريح لثناء ، أو إعجاب ، كما لا يقرها بحال من الأحوال إذا اشتم منها رائحة العجب ، أو ريح الخيلاء ! ! .

ومداخل النفس - كما سيأتى الحديث عنها -

مداخل مظلمة ، وملتوية الدروب ، غامضة المعالم ، تحتاج إلى ضوء قوى جداً ، يكشف عن خباياها وخفاياها ورزاياها ... وذلك لا يكون إلا بنور الإخلاص الوهاج ، وسطوع الإشراق الربانى الفياض ! ! .

ولن يتوهج نور ، ويسطع إشراق - فى نظر الملامتى - إلا إذا فنيت النفس ، وماتت جذورها وانجلت غيومها ... .

ولذلك كان الرياء فى الأفعال والأحوال ، هو العدو اللدود للملامتى ... لا يطيقه ولا تتسع رئتاه له لا من قريب ولا من بعيد ... فهو يفر من مواضع المديح كما نفر نحن من مواضع الذم . وينفر من أماكن الاستحسان ، كما ينفر الناس من أماكن الاستهجان ! ! .

طبيعة قاسية غريبة ولكنها - فيما أرى - لذيذة . ولعلهم يجدون ظلا ظليلا فى كلمة الصديق التى كان يقولها عندما يسمع إطراء أو مديحا :

« اللهم اجعلنى خيراً مما يظنون ، واغفر لى ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون » .

فلا عجب إذن أن ينشغل الملامتى عن الخلق بالحق ، وعن الظاهر بالباطن ، وعن السطحيات بالعمق ...

ولقد ذكر السهروردى فى عوارف معارفه أن أكبر دليل يرتكز عليه الملامتية فى طريقتهم هو ما رواه الحسن عن حذيفة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فيما رواه عن ربه عز وجل :

« الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادى » .

ارتكز الملامتى على هذا الحديث وذاب فى معناه ومدلوله وفاق فى هذا جماعة الصوفية وعامة السالكين ، حتى عد ابن عربى هذه الفرقة فى أعلى الفرق وجعلها فى قمة الهرم الصوفى ، ثم تنبسط الطرق وتترتب بعد ذلك ! ! بل لقد تجرأ ابن عربى وأطلق على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أنه « ملامتى » ، وفى وصف الله جل وعز له بالنبوة والرسالة والرحمة ، الغنى عن كل وصف وبيان .

يقسم ابن عربى السالكين إلى ثلاثة أقسام :

« أولا : العباد الذين غلب عليهم الزهد وأفعال الظاهر المحمودة وتطهير النفس من مرذول الأفعال ، وهؤلاء لا علم لهم بالأحوال والمقامات .

ثانياً : الصوفية الذين يرون الأفعال كلها لله ، وأنهم لا فعل لهم أصلا ، وهم مثل العباد فى الورع والزهد والتوكل ، أهل خلق وفتوة ، يظهرون فى العامة بما ينالونه من الكرامات وخوارق العادات ، وهم بالنسبة إلى الملامتية أهل رعونات وأصحاب دعاوى .

ثالثا : الملامتية، وهم رجال قطعهم الله إليه ، وصانهم صيانة الغيرة عليهم ، لئلا تمتد إليهم عين فتشغلهم عن الله ، قد انفردوا مع الله راسخين ، لا يتزلزلون عن عبوديتهم طرفة عين ، لا يعرفون للرياسة طعما لاستيلاء الربوبية على قلوبهم ، وليس ثم من حاز مقام الفتوة والخلق مع الله سوى هؤلاء » .

وقد يكون ابن عربى مدفوعا بعاطفة الحب، أو ناظراً بعين الرضا وهى كليلة عن كل عيب . ولكن المتتبع لسلوك كثير من مريدى هذه الطريقة يعجب حقا مما أخذوا به أنفسهم ، وفرضوه على نظام حياتهم !!

* * *

هل هناك فى عالم المناهج أقسى من منهاج الملامتية ؟ .

لننظر منهاجهم ثم نحكم. وهو كما جاء فى رسالة الملامتية لأبى عبد الرحمن السلمى :

« الملامتى هو الذى يجمع بين اعتذار آدم ، وصلاح نوح ، ووفاء ابراهيم، وصدق اسماعيل وإخلاص موسى ، وصبر أيوب، وبكاء داود، وسخاء محمد صلى الله عليه وسلم ورأفة أبى بكر ، وحمية عمر ، وحياء عثمان ، وعلم على ، ثم هو مع هذا كله يزدرى نفسه ويحتقر ما هو فيه ولا يقع بقلبه خاطر مما هو فيه أنه شىء ولا أن حاله مرضى . . فإذا ما ظن أنه شىء ، أو أذاع سراً مما هو عليه ، فليطرد فوراً من الجماعة لأن الأحوال أمانات عند أهلها ، فإذا أظهروها فقد خرجوا من حد الأمناء » :

من سار روه فأبدى السر مشتهراً
لم يأمنوه على الإسرار ما عاشا
وجانبوه ولم يسعد بقربهم
وأبدلوه مكان القرب إيحاشا
لا يصطفون مذيعا بعض سرهم
حاشا ودادهم من ذلكم حاشا

* * *

وإذا كان لبعض الناس أو لأكثرهم أن يصرح أو يلمح عن أفعاله فليذكر الملامتى هذه الحقائق ليسد على نفسه هذا الباب :

« ليعلم من أين جاء هو وأين هو ، وكيف هو ، ولمن هو ، وممن هو ، وإلى أين هو » .

وأنا قد أبديت دهشتى من قسوة هذا المنهاج بادئ ذى بدء ، ولعلك تشاركنى ، ولكن قصور عزائمنا اليوم ، أو استغرابنا لهذا المنهاج العظيم لا يجعلنا نشك فى أن جماعة وجدت فعلا وطبقت هذه الأصول على أفرادها ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ووصلت فى ذلك، إلى الشأو البعيد ! !

وإذا وجد جيل لا يستطيع صعود الأهرام ، فليس معنى هذا استحالة الصعود فى سالف الزمان ولا مستقبل الأيام ! !

والمشاركة فى الوفاء والبكاء والصبر والسخاء وغيرها مشاركة وجدانية نسبية ، ليست

على قدم المساواة طبعا فى أى صفة من الصفات، فالمطلوب إيجاد شخصية تلتزم هذا المنهاج وتحاوله وتترسم خطاه ، « ومن سار على الدرب وصل » . وكانت هذ الصفات فى نظر الملامتية هى أهم الفضائل ، وأعظم الخلال .

* * *

وحاول بعض العلماء أن يوجدوا صلة بين الملامتية وبين آية المائدة « يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » . وبين آية القيامة « ولا أقسم بالنفس اللوامة » .

وأرى أن صلة الآية الثانية بالملامتية أقوى وأشد تماسكا من الآية الأولى ، فإن اللوم هو أهم مايشغل بال الملامتى ـ لومه لنفسه على الصغيرة قبل الكبيرة ، ولوم الناس إياه على هذا التشدد والتعنت ـ فالملام منه وإليه .. وإن كان المقصود فى الآية هو النوع الأول بديهيا ! ! .

والآية الأولى فيها المبدأ الذى أشار إليه حمدون القصار فى التعريف الثانى كما سبق ! !

ولو فتحنا الصفحات الأولى لطليعتنا المؤمنة المجاهدة لوجدنا الكثير من سلفنا الصالح كان يهتم بإنكار ذاته وإخفاء عمله ورد ثناء الناس ، فإنه يقطع العنق ، ومحاربة الرياء ، والعمل فى جوف الليل .. وما قصص صاحب النقب ، وتنافس أبى بكر وعمر على خدمة المقعدة العجوز ليلا ، وأمثالها عنا ببعيد !! .

وهناك خلقان للملامتى ينبغى الإشارة إليهما :

١ ــ فالملامتى يحقر نفسه ويصغر من شأنها ولكنه يحترم غيره من الناس ويقدره أعظم تقدير .

قال أبو عبد الرحمن السلمى : سئل بعض مشايخهم عن أول طريقهم فقال :

« تذليل النفس وتحقيرها ومنعها عما تسكن إليه أو يكون لها فيه راحة أو إليه ركون ، وتعظيم الخلق وحسن الظن بهم ، وتحسين قبائحهم » .

٢ ــ والملامتى لايحقر الدنيا ولا ينظر إليها نظرة سوداء ، رأى أبو حفص أحد الملامتية يذم الدنيا وأهلها فقال له : « لاتجالسنا ولا تصاحبنا بعد ذلك » .

ويعتبر هذا الخلق الثانى من أهم الفروق بين الملامتى والصوفى ، إذ أن الصوفى لاتحسن صوفيته أو لا تستقيم طريقته إلا إذا احتقر الدنيا ومتاعها الفانى القليل . وهذا شأن الكثير الأغلب من الصوفية ... وبعضهم يرى تعديل هذه النظرة ، وتقويم الحياة تقويما إيجابيا أكثر من هذا ، ولهذا المقال ، مجال غير هذا المجال ! !

كما أن من الفروق الهامة أن الصوفية فيها جذب وفناء وشطح وإباحة بالسر ونشر للكرامة ، والملامتية ليس فيها إلا الصحو وكتمان الأسرار وعدم الميل البتة إلى إظهار

الكرامات ! ! فإذا جاءت الكرامة لأحدهم دون شعور حاول نفيها والتبرؤ منها ... وهو خلق ـ لعمرك ـ حميد ... إن جاز القسم ! !

وهناك فروق أخرى يطول بها المقال !!

ومع هذه الفروق فإني أعتبر الملامتية غصنا طيبا قويا من شجرة التصوف المباركة ـ كما ذكرت .

وقد تشابك هذا الغصن بين الحين والحين بغصن الفتوة « الصوفية » .

فالقارىء لباب الفتوة فى رسالة القشيرى يجد تشابها كبيرا هنا وهناك .

ويرجع الدكتور أبو العلا عفيفى فى كتابه « الملامتية والصوفية وأهل الفتوة » ذلك التشابك إلى أن الفتوة الصوفية نشأت فى فارس حيث نبتت الملامتية وترعرعت !! .

وقد تكلم الدكتور كلاما طيبا وقيما عن الملامتية وهو الذى نشر رسالة « الملامتية » لأبى عبد الرحمن السلمى وأضاف بهذا النشر زادا كان مفقودا فى المكتبة العربية ! ! وحلل مذهب الملامتية تحليلا لطيفا . . . خرج منه إلى أن الباعث على هذا المنهاج هو تشاؤم الملامتية من النفس وجعلها مقابلة لله عز وجل . وأن البيئة الزرادشتية كان لها أكبر الأثر فى هذه التوجيهات ! ! .

ولو عبر الدكتور بكلمة « العمق فى التفكير » بدل التشاؤم كان خيرا عندى ، كما أننى أرى أن البيئة الزرادشتية ليست هى كل شىء ، بل فى الإسلام وأصوله وفروعه ، الثروة الهائلة للتحذير من النفس ، لأنها « أمارة بالسوء » وأعدى أعدائك . . .

فى البيئة الإسلامية نفسها أصل التوجيهات ، والذى زاده الملامتية الحساب المفروض . والتعمق العنيف ، مما جعل الغصن يطول ويطول حتى احتاج إلى تشذيب وتهذيب ! .

نعم : طال الغصن حتى التوى واعوج ! .

فهناك فهوم غامضة للملامتية ، نذكر منها ما فهمه شيخهم أبو حفص فى قوله جل وعز : « أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا » من أن السير لغير حج أو غزو أو رؤية شيخ أو طلب علم ، ترك للطريق وإضلال للمريد.

وواضح أن هـــذا تقييد من غير مقيد لعموم الآية الكريمة ، فكم للأسفار البريئة من فوائد ، وكم فاء الرحالون بالإيمان العميق ، والكشوفات الخارقة ! ! .

وكذلك يفلسف الملامتية الخشوع فلسفة غامضة ، نقف عندها طويلا ! ! .

سئل بعضهم عن توضيح هذه الفلسفة فقال : « أود من فهوم بعدت عن حقائق المعانى . . . الخشوع هو اطلاع الله على الأسرار فتخشع ، فتتأدب الظواهر بذلك الاطلاع ، ألا ترى إلى قوله صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى إذا تجلى إلى شىء خشع له.

أرأيت كيف تخشع الأسرار ؟ .

ومن قبيل هذه الفهوم والفلسفات أنهم يرون أن النفس كف من عجب فى قالب ظلمة مربوط بشواهد العامة ، وأنها كف من جهل فى قالب الرعونة مربوط بحبال الأطماع ، ولذلك يرون ملامها واجبا ، وإظهار شىء من أفعالها شركا ، وإظهار شىء من أحوالها ارتدادا ...

والفهم الأخير على الأخص فهم شاط وسقيم ...

وعندى أن تعريف الصوفية للنفس بأنها لطيفة ربانية مودعة فى جسم الإنسان وينبعث منها الشر ، خير بكثير من كف العجب وكف الجهل ...

ومن هنا قلت : إن الغصن فى حاجة إلى تشذيب ! .

* * *

ذكر السلمى فى رسالته عن الملامتية خمسة وأربعين أصلا من أصولهم . والحق أنها كلها جديرة بالبحث والتعليق ... ولقد هزنى وأعجبنى منها الكثير .

ولنقرأ سويا :

« أصل العبودية شيئان : حسن الافتقار إلى الله عز وجل وهذا من باطن الأحوال ، وحسن القدوة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى ليس فيه للنفس نفس ولا راحة » .

« أقل العبد معرفة بربه ، عبد ظن أن فعله وطاعته تستجلب عطاءه . وأن عطاءه يقابل فضله » .

« تقابل عبد الله الحجام مع حمدون القصار وسأله : أأترك عملى لأعبد ربى ؟ فقال حمدون : لأن تدعى عبد الله الحجام أحب إلى من أن تدعى عبد الله العارف » .

« حسن الظن بالله غاية المعرفة ، وسوء الظن بالنفس أصل المعرفة بها »

« لا تكن عبادتك لربك سبيلا لأن تكون معبودا ، واجعل عبادتك له إظهار رسم الخدمة والعبودية عليك » .

وهكذا تنتقل من زهرة إلى أخرى ، فتشم أريجا أنفذ وأزكى ! .

لقد تمتعت خراسان بهذه الجماعة أول ظهورها ، ثم انتشرت بقدر فى العراق وما حولها ...

وجزى الله السلمى والسهروردى والدكتور أبا العلا عفيفى على ما قدموا خيرا ...

وكم وددت أن أجمع بين اعتذار آدم وصلاح نوح ووفاء إبراهيم وصدق إسماعيل وإخلاص موسى وصبر ايوب وبكاء داود وسخاء محمد صلى الله عليه وسلم ورأفة أبى بكر وحمية عمر وحياء عثمان وعلم على ... ثم لا أفتخر ولا أزهو ! .

هل إلى ذلك من سبيل ؟ .

أحمد عبد الجواد الدوسى

من روائع شاعر الإسلام "إقبال"

ترجمة الأستاذ حسن الأعظمي ونظم الأستاذ الصاوي شعلان

الأرض لله

يحلق إقبال بجناحيه مطلا على الكون بنظرات العقاب ، فإذا الدنيا تبدو أمامه مجلوة الحسن بارعة الصور . هذه هي البذور تلقى فى ظلمات الأرض وتحت طيات ترابها فما تمضى غير أيام حتى ترى الأرض قد اهتزت وأورق نبتها الجميل ، من الذى صنع هذا ؟ وتلك أمواج البحر الصاخبة . من الذى أحالها بخاراً ورفعها فى الفضاء ثم رفع بها سحابا ركاما وساقها إلى الصحراء المجدبة القاحلة تحمل الماء إلى أرض ميتة مغضبة فتنبت فيها الحياة وتخرج لسكان الصحراء فاكهة وأبا متاعا لهم ولأنعامهم . وهذه الورود المفتحة بين الجنات والعيون . من الذى أرسل إليها نسيم الصبا تداعب أوراقها فتميل فى دلال وتميس فى عجب . من هذا الذى أنبت السنابل فى الحقول فبدت تشبه الأغنياء الأقزام الذين ملأوا جيوبهم بالذهب الأصفر . تلك السنابل التى تتم قصة حياتها فى أخريات الربيع وبداية الصيف . من الذى قسم العام إلى فصول يتجدد بها الزمن وتتقلب عليها أدوار الحياة فى مركزها من الكرة حول الشمس ؟ ومن الذى خلق هذه الشمس أيضا . تحتجب فإذا الدنيا ظلام . وتشرق فإذا الحياة موكب وزحام ؟

أيها الأحياء : هذه نعم الله وقدرته الباهرة فى الكون . ولكن لا تغتروا ولا تتخذوها جبروتا وملكا طاغيا . إنكم لا تملكون منها سوى ما يملك المتفرج من الفلم الذى يشهد فيه قصة معروضة ما يكاد ينتهى منها حتى يلقى الستار وتبقى العبرة . هل يملك الإنسان تراب هذه الأرض وهو ترابها . هكذا يصور إقبال الحقيقة ثم يقول : إن الأرض ليست لى وليست لكم . «إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» .

من أسكن الحب ظلام التراب
فأورق الزرع نضير الإهاب
من رفع الأمواج من بحرها
تسقى عطاش القفر برد السحاب
من قلد الورد نسيم الصبا
ومن أعاد الشمس بعد احتجاب

من أنبت السنبل حتى غدت
جيوبه تحوى النضار العجاب
من قسم العام فصولا لها
بكل دور فى الزمان انقلاب
أيملك الحى تراب الثرى
وجسمه عما قريب تراب
ليست لى الدنيا وليست لكم
فالعمر فيها مثل ومض الشهاب
الأرض لله وسكانها
ألكل منه وإليه المآب

(٢) متسول

سمعت فتى بالليل من خلف حانة
يحدث عن صحو وإن كان فى سكر
يقول لقد أزرى بنا متسول
على عرشه يختال بالنهى والأمر
يتيه على الشعب الذى قد سما به
إلى العز من سلطانه وهو فى أسر
وقلده تاج العلا وهو لم يجد
قلنسوة تحميه فى وقدة الحر
وقد نسجت أيدى العراة قباءه
حريرا ولكن فى خيوط من التبر
عصير دم الزراع يملأ كأسه
بأجمل ألوان الشقيق من الخمر
وقد بات من حقلى وحقلك يحتوى
كنوز الثرى فى كيمياء من المكر
وما قصره إلا متاحف سارق
وما السارق الجانى سوى صاحب القصر
تمتع من فقر الخلائق بالغنى
ومن عسرهم جمعا تفرد باليسر
إلى صدقات الناس أو لخراجهم
يمد يد المحتاج فى صولة الكبر
تسول من يعييه عد كنوزه
ولم يتسول مؤمن فى لظى الفقر

(٣) قبر يتحدث الى دفينه :

يا أيها الشبح الملم بحفرتى
وعليه ميسم ذلة وصغار
من أى ألوان الخليقة جئتنى
عبدا مهينا أم من الأحرار
فعساك قبل القبر كنت معودا
موت الضمير وقبر الاستمرار
يشكو التراب إلىّ حين حللته
فحللت من مثواك دار بوار
فبظلم نفسك زاد ليلى ظلمة
يطوى دجاها صفحة الأنوار
وتكاد أرض الله تلفظ جثة
جعلت ثراها مسكنا للعار
رحماك إسرافيل دعه ولا تعد
فى الحشر صورته إلى الأنظار
إن تحى هذا العبد يخلد شره
فحذار ثم حذار ثم حذار

(٤) صرخة من مهجم :

ها هنا معبد يضيق زحاما
بضحايا الأطماع صرعى الأمانى
ذكروا الله عند ما فقدوا الأو
ثان فى ظلمة الوجود الفانى
ليس بدعا تعذيب من عبدوا الأص
نام فى مارج من النيران
إنما حيرتى لهذا المصلى
ما له حاد عن طريق الجنان
عله عاش بالثناء غنيا
عن ثواب المهيمن الديان
وفقير يستنزف العين تسكابا
وفيضا من النجيع القانى
اكل الهم قلبه وهو طاو
ويعانى مرارة الأشجان
ما القصور التى بدت كالرواسى
تصحب الذيل فى ذرى كيوان
ما القلاع التى تطاول ركن
الشمس قدرا وروعة فى المبانى
غيرهم قد محا الزمان بقاياه
ويروى حديثه الملوان
وبشير العمران فى هذه الدنيا
نذير الخراب للعمران
شق فرهاد نهره العذب لكن
عاد منه بلوعة الظمآن
هذه الحكمة التى تجمع الشهد
إلى السم من فم الثعبان
والسياسات حين تطوى الرزايا
خلف ستر من زخرف الألوان
والعلوم التى بها يحفر الإنسان
قبر الهلاك للإنسان
كلها حزمة الطغاة التى لم
تبتكر مثلها يد الشيطان
ليس فى أرضى انتداب ولا
استعمار أرض ولا تحكم جان
لا ولا الغادرون من دول الغر
ب ولا السارقون للأكفان
إنما يصلح الفرنج وقودا
يا إلهى فاملأ بهم نيرانى

(٥) أسرار الحرية فى معانى الطبيعة :

أذاعت فى الربى سر الجمال
مصابيح الشقائق فى الجبال
طلائع نورها نور لقلبى
ونفح عبيرها مسرى خيالى
وفى ألوانها الياقوت يزهى
على حلل الزمرد فى اختيال
ترى الأزهار صفا بعد صف
مسبحة بقدرة ذى الجلال
يحار لها الفؤاد وقد تجلت
فنون الحسن فى تلك المجالى

عرائس من حسان الورد تحكى
قوام الحور فى ثوب الدلال
وقد نظمت يمين الطل فيها
عقوداً من لآليها الغوالى
ومن شمس الصباح بدا شعاع
يسيل بها النضار على اللآلى
وفى الغابات أسرار القهارى
سرت بين النسائم والظلال
تحرضنى أغانيها فأشدو
ليفصح عن معانيها مقالى
أطارحها الهوى شدوا بشعر
فتسبقنى إلى السحر الحلال
وجدت الحسن فى الصحراء حرا
طليقا كالنسيم فما يبالى
يطالعنى بحلوته صباحا
ويذهب ضوؤه ظلم الليالى
كمثل النيرات بلا نقاب
وكالعيش الهنىء بلا احتلال
يفر من المدائن وهى قيد
وينشد فى الربى رحب المجال
أكان يعلم الإنسان سعيا
إلى حرية ونعيم بال
تعمق فى ضمير الكون واشهد
صنوف الحسن باهرة الجلال
وعش فى عالم الروح انطلاقا
ترى الإقدام يأتى بالمحال
فدنيا الروح فيها ربح مجد
ودنيا الجسم فيها ربح مال
وإن المال قد يأتى ويمضى
وأنت وما ملكت إلى ارتحال
ودنيا الجسم إفساد وختل
وإغراء يصير إلى ضلال
ودنيا الروح سكر بالمعانى
وصحو بالرقى وبالمعالى
فعش للروح فى دنيا وأخرى
تفز بالعالمين بلا زوال
وإن أمسيت للأغيار عبدا
فقدتهما معا فى كل حال
وإن أصبحت فى الأكوان حرا
فأنت من الكمال إلى كمال
وكسب المال للمخلوق حق
ولكن لا تبع شرفا بمال

محمد حسنى الأعظمى

اللهجات العربية في آسيا الوسطى

للأستاذ ج. تزيريتيلي

تعود المعلومات عن العرب في آسيا الوسطى إلى عهد الفتوح الكبيرة. ويقول الجغرافيون والمؤرخون العرب من القرنين التاسع والعاشر أن السكان العرب كانوا يكونون منذ القرنين السابع والثامن نسبة ما في بعض مدن ما وراء النهر وخاصة في بخارى وسمرقند. وقد وردت، منذ القرن الخامس عشر معلومات عن العرب البدو، في وثائق مختلفة (فرامانات) لأمراء بخارى. وفي مطلع القرن التاسع عشر كان عرب بخارى وآكتشي يؤلفون وحدات إدارية خاصة يقوم على رأسها «أمراء هزار» (ولاة الألف).

وابتداء من القرن التاسع عشر، أخذ كثيرون من المسافرين، الذين زاروا إمارة بخارى، ينقلون أخباراً مفصلة نوعا ما عن عرب آسيا الوسطى. فكانت تعطى معلومات عن عددهم، وتجرى أبحاث تتعلق بعلم الشعوب وعلم تاريخ أصل الإنسان. غير أنه حتى الآونة الأخيرة لم يكن معروفا إلى أي حد احتفظ هؤلاء باللغة العربية، وما كانت عليه من الناحية اللغوية فيما إذا كانوا قد احتفظوا بها.

وإلى عهد قريب نسبياً أفلح العلماء السوفياتيون في أن يردوا إلى الأسرة الكبيرة للألسنة العربية، لهجات جديدة ضائعة في ظلام القرون وفي سهوب آسيا الوسطى المترامية الأطراف.

وعلى أثر تنقيب خاص ثبت أن في آسيا الوسطى اليوم لهجتين عربيتين مستقلتين: لهجة بخارى ولهجة قشقادريا. والفرق بينهما كبير إلى حد أن عرب بخارى وعرب قشقادريا لا يفهم بعضهم بعضا، فهم يؤثرون التخاطب فيما بينهم باللغتين الطاجكية أو الأوزبكية.

إن العثور في آسيا الوسطى على لهجات عربية كانت مجهولة من قبل هو أمر ذو أهمية كبيرة في علم اللهجات العربية وعلم تاريخ اللغات المقارن بين اللغات السامية. ولم يعد أي بحث في هذا الميدان. وأية دراسة للألسنة العربية، منذ الآن، يستطيع الاستغناء عن الوثائق المتعلقة باللهجات العربية في آسيا الوسطى.

لقد تطورت هذه اللهجات طوال قرون في بيئة لغات أخرى، فتأثرت بالطاجكية

والأوزبكية ، كما تأثرت جزئيا بالأفغانية والتركمانية . وبالنظر إلى ذلك حصلت تغيرات هامة فى هذه اللهجات من حيث تركيب الأصوات والصرف وكذلك النحو . وظلت هذه اللهجات طوال مرحلة مديدة دون اتصال باللغة العربية الفصحى ولا بلهجة عربية أخرى ، مما جعلها بعيدة عن التأثر بهما . وإلى هنا يعود السبب فى أن التراث السامى الذى كان يميز عرب آسيا الوسطى فى عهد ظهورهم فى وطنهم الجديد ظل محفوظا لديهم بشكل قريب من شكله الأصلى .

إن اللهجات العربية فى آسيا الوسطى تختلف عن جميع اللهجات العربية المعروفة (سواء من حيث تسرب لغات أخرى إليها ومن حيث التراث السامى الصرف) اختلافا كبيراً يجعلها تؤلف مجموعة مستقلة كل الاستقلال تحتل كالمالطية ، مكانة على حدة بين اللهجات العربية المعروفة .

ولغة عرب آسيا الوسطى تشبه ، تاريخيا ، شبها قويا اللهجة العراقية ، كما تشبه نوعا ما لهجة بدو القسم الأوسط من الجزيرة العربية . ويثبت لنا ذلك سواء من المعطيات المتعلقة بعلم اللغة أو المصادر التاريخية .

ثم إن للغة عرب آسيا الوسطى بعض الملامح التى تجعلها مشابهة لبعض اللهجات العربية الأخرى ، وهذا أمر طبيعى . فبعض أشكال هذه اللغة تصادف فى اللهجة السورية واللهجة المصرية وحتى فى لهجات بعيدة عنها جغرافيا كاللهجة السودانية والمالطية .

وقد احتفظت لهجات آسيا الوسطى ، فى بعض الحالات ، أكثر بكثير من الألسنة العربية الأخرى ، ببقايا جوهر آرامى ـ عبرانى .

واحتفظت هذه اللهجات بمعظم الأصوات العربية ، ولم تفقد سوى الأحرف الساكنة التى تلفظ ما بين الأسنان وبعض الأصوات المفخمة .

أما الضمائر والأعداد وظرفا الزمان والمكان والأدوات والأفعال ، التى احتفظت بأشكالها القديمة ، فهى ذات أهمية كبيرة ، وظهرت بالإضافة إلى ذلك صيغ لغوية جديدة .

فيمكن أن نلاحظ ، فيما يتعلق باسم الموصوف ، بقاء صيغة النكرة (دون تمييز فى الحالات) . وفى اجتماع اسم الموصوف والصفة ، يلحق التنوين باسم الموصوف وحده كما فى لهجات بدو الجزيرة العربية ، مثال ذلك : فرس أبيض . ومن جهة أخرى ، إن التنوين لا وجود له مع أشكال ظروف الزمان والمكان فى لهجة بخارى . فبعكس ما نلاقيه فى ألسنة عربية عديدة ، نجد هنا كلمة السلام «مرحبا» بدلا من مرحبا . وهكذا دواليك من الأشكال

المطابقة لأشكال الكلام عند البدو ولا نجد الشكل الظرفي مع التنوين إلا في لهجة قشقاداريا ، ولكن بشيء من التخفيف مع ذلك .

وقد احتفظت الأسماء بالجمع السالم المنتهي بـ « ين » مع مد الصوت ، مثال ذلك « موكلين » ويغلب الجمع حسب علامة جمع المؤنث السالم أي المنتهي بـ « ات » بدلا من جمع التكسير ، مثال ذلك « إيدات » (الأيدي) ، حتى في الكلمات المذكرة ، مثل « كتابات » (كتب) . ويستعمل كذلك جمع التكسير مثل « رجل » (الأرجل) وهلم جرا .

واحتفظت أسماء الموصوف أيضاً بصيغة المثنى : « ايدين » (اليدان) و « عينين » (العينان) الخ .

أما المقصود بلفظة « واحد » بمعنى النكرة فقد أصبح « فاد أو فرد » وهي لفظة دارجة في اللهجة العراقية ، كما أنها تستعمل في كلام البدو .

وتغير تركيب الجملة العربية تغيرا محسوسا فقد طرأت على لهجات آسيا الوسطى ظاهرات نحوية غريبة عن العربية وغيرها من اللغات السامية ، وهذا ما يفرق بين هذه اللهجات والألسنة العربية الأخرى .

فالتركيب السامي القديم المعروف « بالإضافة » (المضاف والمضاف إليه) ما زال باقيا ، مثال ذلك . أم البنت ، بيد أننا نصادف في كثير من الأحيان تركيبا غريبا عن اللغات السامية : نجد المضاف إليه قبل المضاف ، مثلا : « حطب مبيع » (أي بائع الحطب) .

واتسع استعمال الإضافة كما هي في التركية اتساعا كبيرا ، وهنا يوضع المضاف إليه أولا ثم يتبعه المضاف متضمنا صيغة الضمير في آخره مثال ذلك : « كتابات صاحبين » (لهجة بخارى) ، (ومعناه أصحاب الكتب ، وترجمته حرفيا : كتب ـ أصحابها) .

أما المفردات فهي بالأساس سامية . ومن هذه الناحية تقترب لهجات آسيا الوسطى من اللهجة العراقية ونوعا ما من لهجات جزيرة العرب، ويظهر الفرق أيضاً بين لسان بخارى ولسان قشقاداريا في ميدان الصرف. فكلمة « خلاف » (وخلافة) مثلا الدارجة في لهجة بخارى ، لا وجود لها في لهجة قشقاداريا حيث تستعمل مكانها كلمة « اوكوب » . وكذلك لفظة « ايزاب » (حيث) في لهجة بخارى ، ولفظة « ايزكو » في لهجة قشقاداريا وكلمة « ماد » (ذهب) في لهجة قشقاداريا هي غير معروفة في لسان بخارى . وكلمة « غاداك » (ذهب) الدارجة في لهجة بخارى تثير الهزء لدى عرب قشقاداريا .

إن هـذه النظرة الخاطفة إلى الخصائص اللغوية للهجات العربية فى آسيا الوسطى يدل على مقدار جدة هذه اللهجات .

وقد أعد الاتحاد السوفياتى نشر مصنف فى أربعة مجلدات عن لغة عرب آسيا الوسطى والمجلد الأول الذى سيصدر قريبا يتضمن نصوصا من لهجـــة بخارى مع ترجمتها إلى الروسية . وسيحتوى المجلد الثانى نصوصا من لهجة قشقادريا مع ترجمتها إلى الروسية ، وسيكون المجلد الثالث قاموسا للهجتين ، أما المجلد الرابع فسيتضمن التحليل الغراماطيقى للهجتين العربيتين فى آسيا الوسطى . إن نشر هذه الوثائق سيعطى المستشرقين فكرة كاملة عن هاتين اللهجتين اللتين يشكل اكتشافهما ودراساهما ـ كما قال الأكاديمى ا . كراتشكوفسكى المستعرب الروسى المعروف ـ صفحة مجيدة فى تاريخ الدراسات العربية المعاصرة وأشياء جديدة كثيرة فى كنز العلوم العالمى [1] .

ج . تزربيتلى

عضو أكاديمية العلوم فى جمهورية جورجيا

---

(١) ا . كراتشكوفسكى — محاولة فى تاريخ الدراسات العربية فى روسيا .
موسكو لينغراد ١٩٥٠ . الصفحة ٢٠٣ .

(بقية مقال معركة بيت المقدس)

الكرنك ، فإنه كان حريصا على الدرك ، ناصبا شر الشرك ، فلما شم ذلك الذئب رائحته الأسد ، عاود دخول حصنه حذار خروج روحه من الجسد . .

فأنت ترى الحقيقة التاريخية وهى خروج صلاح الدين من دمشق مترقبا عودة الحاج قد لونت بشعور الكاتب إزاء هـذا الخروج واستدعاء الجنود ، وإزاء إبرنس الكرك ، من أنه كذئب شم رائحة الأسد .

وعلى هـذا المنوال يجرى الكاتب فى كل ما أورده من حقائق تاريخية ، يضفى عليها شعوره وإحساسه ، وينتقل من عام إلى عام ، متتبعاً حوادث الفتح وما نلاه من محاولة استرداد الفرنج لبيت المقـدس إلى أن انتهت هذه الحروب بصلح الرملة سنة ٥٨٨ هـ .

وبعـد ، فقد كان لمعركة بيت المقدس أثر كبير فى الأدب شعره ونثره . وكانت هـذه المعركة من أكبر المعارك أثراً باقياً إلى اليوم .

أحمد أحمد بدوى

وكيل كلية دار العلوم

محمد والقرآن

فى رأى المستشرق الانجليزى نيكلسون

للأستاذ راشد رستم

الأستاذ رينولد نيكولسن Nicholson Reynold المستشرق الإنجليزى من أبرز علماء الغرب معرفة بروح الشرق ، فقد عكف وهو لا يزال مجاوراً بجامعة كمبردج على التمكن من اللغتين الفارسية والعربية حتى صار أعرف بهما من غيره ، كما تولى تدريسهما فيما بعد ، غير أنه تخصص فى الآداب العربية ، وقد تولى كرسى الأستاذية فيها منذ سنة ١٩٣٩ إلى أن توفى سنة ١٩٤٦ فى جامعة كمبردج [١] ، وكان إلى ذلك متصوفا ، ألف كثيراً عن التصوف الإسلامى وجعله قابلا لمنهج البحث العلمى . كما أنه ترجم كثيراً من آثار المتصوفين الإسلاميين . وقد حباه الله بموهبة نادرة هى قدرته على نقل الشعر الفارسى والعربى إلى شعر أوربى أصيل ، لا يظهر فيه أثر الترجمة فضلا عن المحافظة على الأصل فى سياق شعرى لطيف صحيح . وكنا قد أذعنا له ترجمات إنجليزية من عيون الشعر المثنوى وابن العربى وابن الفارض وغيرهم ، فى البرنامج الأوربى للإذاعة المصرية عند ما كنا نتولاها منذ عشر سنوات .

وفى سنة ١٩٠٧ أصدر كتابه الكبير - تاريخ الأدب العربى - الذى هو عمدة فى ذلك فى العالم الغربى من حيث الإحاطة بالموضوع ومن حيث منهج البحث والتنسيق [١] .

* * *

(١) تولاه بعده ، ولا يزال يتولاه إلى يومنا هذا ، تلميذه وصديقنا الأستاذ أربرى Arberry صاحب البحوث والمؤلفات الكثيرة عن الآداب العربية وعن التصوف الاسلامى ، وقد أصدر أخيراً ترجمة للقرآن هى أحدث ما صدر من ترجماته العصرية بالانجليزية .

(١) أشار علينا أستاذنا الجليل المرحوم الشيخ محمود أحمد البطراوى ترجمة هذا الكتاب وقد قمنا بترجمة قسم كبير منه صيف سنة ١٩١٤ م وكان الشيخ أستاذا للآداب العربية بمدرسة المعلمين العليا . وكان رحمه الله متمكنا من مادته كما كان محبا للتجديد المصرى الأصيل فى منهج تدريس الآداب العربية . وهو ما حداه إلى طلب ترجمة الكتاب . وكم أفاد الأستاذ تلاميذه الكثيرين علما وفضلا وخلقا .

ويلاحظ أنه ليس من مستشرق غربى وأوربى ، مهما كانت ناحيـــة تخصصه فى الاستشراق إلا ويعكف على دراسة حياة نبى الإسلام محمد عليه السلام . ولا غرابة فى ذلك فإن محمداً هو النبى العربى والقرآن هو الـكتاب العربى .

وقد خصص الأستاذ نيكولسن فى كتابه عن الأدب العربى فصلا قيما عن «محمد والقرآن» ، نعرض هنا كثيراً من آرائه وتعليقاته فيه ، دون ذكر ما جاء فيها مما يستوجب البحث والمجادلة إذ ليس هذا مجاله .

يقول إنه لم يكد محمد يظهر حتى زالت الغشاوة الـكثيفة ورفع ذلك الستار السميك عن ذلك العصر الذى تقدمه ، ثم نجد أنفسنا قد وقفنا فجأة على حقائق وتقاليد تاريخية صحيحة ثابتة .

ولـكى نفهم أسباب ذلك التغيير المفاجئ لابد من ذكر المصادر الرئيسية التى نستمد منها ما نأخذه من معلومات عن حياة النبى وتعاليمه .

١ ـ فالقرآن هو لاشك أول المصادر ، وهو السجل الإنسانى الـكامل البنيان والبيان ، الذى نقف منه على جميع أطوار شخصية محمد ، وعن مختلف العلاقات بينه ، فى حياته الخاصة ، وبين الحياة العامة . وهكذا نجد بين أيدينا هذا الـكتاب (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) وإنه لـكتاب عزيز ، أى فريد فى بابه نستخرج منه مادة من الحقائق لا نزاع فيها ، كما نعرف منه الأصول والتطورات التى مر بها الإسلام فى أول عهده . وإنها لميزة لهذا الدين لانجدها لغيره من الأديان الأخرى كالبوذية والمســـيحية واليهودية وغيرها .

٢ ـ الأحاديث

لم يكن للنبى رفيق يلازمه فى غدواته وروحاته يدون عنه كل ما يفعل أو يقول . على أنه ما وقف محمد يوما ليخطب أو جلس ليتحدث إلا وتوجهت إليه البصائر والأبصار ـ ذلك لأنه لم يكن رجلا عاديا . .

وإن كل كلمة ينطق بها أو حركة يفعلها يلتقطها أصحابه وصحابته ومريدوه ـ بل وأعداؤه ـ يقيمون لها الوزن والتقدير والاعتبار .

وقد عرف عن كثير من أصحابه أنهم «المحدثون» ، أى الذين أخذت عنهم الأحاديث بالرواية ، وقد وضعوا لكل حديث أصلين أساسيين ـ المتن والسند ـ ولكل من هذين الأصلين فروع ليس هذا موضعها .

٣ ـ التفاسير

إن محمداً نفسه قام بتفسير بعض الآيات . ولـكن الفضل فى وضع علم التفسير يرجع إلى ابن عباس وهو ابن عم النبى .

ولقد كانت سوق الأحاديث النبوية الموضوعة رائجة فى العصر الأول وقد اغتنمت الأحزاب ذلك واتخذوها أسلحة يستعملونها فى أغراضهم السياسية والدينية والاجتماعية .

* * *

ولما بلغ محمد من العمر الأربعين جاءه الملك فى غار حراء وقال له اقرأ . . فقال ما أنا بقارئ . . وقيل إنه قال للملك : ما أقرأ أو ماذا أقرأ ؟ (١)

ثم تولاه الخوف والرعب وخشى أن يكون به مس من الجن لولا أن زوجته المخلصة الصالحة (خديجة) قامت برعايته وهونت الأمر عليه وجعلته يعتقد جازما بأنه لا سلطان للشيطان عليه بل إنه النبى المنتظر المرسل بالحق والهدى .

غير أن الوحى انقطع زمنا طويلا كاد يتولاه فيه اليأس . وما هى إلا « فترة » امتحان حتى عاد فرأى الملك فزال عنه الشك وتولاه اليقين واعتقد بصحة رسالته وهو يقول له - يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر (٢) الخ .

ثم أخذ أنصاره يزدادون ولكنه وجدهم فى عنت كبير من أهل مكة الكفار فأمرهم بالهجرة إلى الحبشة ، حيث يدين ملكها وأهلها بالمسيحية السمحة ، فوجدوا عندهم ترحيباً وتكريما .

هذا ومن الأدلة على إخلاص هذا الرجل (محمد . .) أنه لما رأى استحالة الاتفاق الحقيقى مع أهل مكة عبدة الاصنام خشى أن يكون اتفاقه معهم دليلا على اعترافه بوضعهم وتنازلا منه عن مبادئه التى أرسله ربه من أجلها - عند ذلك عدل عن اتفاقه مع قريش وأخذ فى شن الحرب على كل صنم أو صورة أو رسم أيا كان شكله وموضوعه ، وجعل يجهر مناديا مكرراً - لا إله إلا الله - لا إله إلا الله .

وهكذا أخذ محمد يوجه كل قوته لهدم الوثنية وعبادة الأصنام والشرك بالله . ثم كان إسلام عمر بن الخطاب (رجل الدم والحديد) مبدأ للقيام بانقلاب جديد . فلم يعد عبادة المسلمين سرا بل جهروا بها وأخذوا يتجمعون جماعات حول الكعبة تصلون ويقومون بشعائر دينهم . واثقين من أنفسهم ، ظاهرين بشجاعتهم .

وهنا تولى قريشا الرعب والخوف من العاقبة ، فبيتوا لمحمد أمرا . ولكنه أفسد

---

(١) نقلا عن ابن هشام ! !

(٢) يعتقد كثير من المستشرقين المتعصبين إن كلمة « الرجز » هنا هى بمعنى عبادة الأصنام . . كما أنهم يفسرون قوله تعالى : « ووجدك ضالا فهدى » بأن الضلال هنا بمعنى عبادة الأصنام .

عليهم أمرهم وقام ومن معه بالهجرة إلى المدينة ذلك الحدث العظيم .

وفى شهر سبتمبر سنة ٦٢٢ ميلادية دخل محمد « المدينة » فاستقبله أهل العصبة من قومها استقبال الفاتحين الظافرين بالقلوب قبل الأجسام .

وقد صار هذا الحدث العظيم رمزا على زوال صولة الجاهلية وابتداء عهد محمد ، وقيام دولة الإسلام .

* * *

أما التعليم والمبادى الأولى التى دعا إليها محمد فى الحقبة التى عاشها بمكة فتتلخص فيما يلى :

أولا : لا إله الا الله .

ثانياً : محمد رسول الله ـ وأن القرآن كلام الله أنزله على رسوله ،

ثالثاً : البعث يوم القيامة حيث الحساب لكل امرئ بما قدمت يداه فى هذه الحياة .

رابعاً : الجنة للصالحين وجهنم للطالحين .

* * *

إن محمداً منذ اللحظة الأولى عرف أنه سيلقى ربه يوم اللقاء مسؤولا عما فعل بالرسالة فصار يدعو الناس وهو على يقين بعقيدته ، فجعلت من ضعفه قوة ، ومن خوفه أمناً ، ومن جزعه صبرا ، كما تحمل فى سبيل الرسالة ما تحمل من الأعباء والأرزاء والمصاعب والاضطهاد بقلب سليم ويقين ثابت

هذا ولم يكن محمد خيالياً دون أن يكون عمليا . ففى دينه من الشعائر والفروض ، ما فيه مشقة للنفوس والأجسام كالصوم والحج والجهاد وما إلى ذلك . غير أنه أضفى بروحه وروحانيته على كل هذه الأنواع من المشاق روحانية عظيمة عليها مسحة من الزهد والخضوع والنظام لا تزال رغم القرون تحتفظ بها إلى يومنا هذا .

إن محمداً بما أظهره من أول عهده من آيات العظمة النفسية ليدعونا إلى الإعجاب العظيم به . إذ هو مؤمن بيقينه مدفوع بأسمى فكرة يستطيع الإنسان أن يبشر بها بالحق الذى أوحى إليه به .

على أن محمدا كاد يكون فى تلك الحال منفردا ، ولكنه شجاع لا يعرف الخور ولا الخوف ولا الوجل أمام أقوى صرح للخرافات والمعتقدات الباطلة فلم يستسلم أبدا للتهديد والوعيد والاستهزاء ... بل أوعد وهدد وهزئ هو من أعدائه ، وتحداهم فى صميم عقائدهم رابط الجأش هادئ البال ، لا يبالى بما يفعلون .

* * *

ذلك ما كان من عهد محمد فى مكة . فلما هاجر منها إلى المدينة كان قد خلص من مهمة إرساء القواعد الأساسية للدعوة ، وصار الرجل السياسى . .

ومما لاشك فيه أن هجرة محمد أفادت الإسلام فائدة عظمى وكانت أكبر عامل فى انتشاره وعلو كلمته وتوطيد دعائمه - ذلك أن محمداً لجأ إلى قوم ليس بينه وبينهم قرابة وإنما تربطه بهم جامعة الدين ووحدة العقيدة . وقد قام بذلك خير قيام فى كياسة عظيمة وحذق كبير .

وليس من شخص آخر على الإطلاق كان أكثر من محمد قدرة على التأثير فى أمته وتكييف أحوالها ، ففى عشرين عاما زرع كل بذور التطور السياسى والعقلى التى يمكن أن يمر بها العرب عبر القرون .

هذا ومهما تمض السنون وتتسع فرجة الزمن بين محمد وأتباعه من المسلمين ، ومهما تتوالى العصور ومهما يتقدم المسلمون حضارة وتمدينا ، فإنهم لا يزالون يرجعون إليه إماما فى كل شىء وهاديا يهديهم سواء السبيل .

وإذا كانت الأحكام قد تضاربت والآراء قد اختلفت فإنى أنا (رينولد نيكولسن) أعتقد يقينا بأن محمداً ليس دجالا ولا مريضا بأعصابه ، وليس مجرد مصلح اجتماعى كما يريد بعضهم أن يصفوه ، وإنما هو رجل ، من أول أمره وفى كل شأنه وأحواله ، مخلصا متحمسا لدينه ، ملهما به عن حق ، مثل كل نبى من أنبياء « العهد القديم » .

وقال نيكولسن نقلا عن أحد الكتاب واسمه دوجوج de goeje قوله : إننا نرى فى محمد ذلك الإدراك الذى تكسوه الرزانه المعهودة فى عشيرته ، كما نرى فيه الشرف وعزة النفس والحصافة وصحة التقدير والتغلب على النفس - تلك الصفات التى لا يختص بها إلا أولو العزم وأرباب القوة فى العقل السليم والجسم السليم .

ولقد نقلته ظروف الحوادث ومقتضيات الأحوال من نبى إلى مشرع إلى حاكم . غير أنه لم يعبأ لنفسه بشىء من ذلك بل هو لا يبغى ولا يريد إلا أن يكون رسول الله رب العالمين إذ فى هذا التعريف شمول للإسلام كله .

ولقد كان محمد ، مثل كل عربى أصيل ، سريع التأثر حتى بلغت به الحال أيام كان يجاهد النفس الجهاد الأكبر إلى درجة أزعجته هو نفسه قبل الدعوة ، غير أنه لم يتأثر بالأوهام ولم يكن خياليا يهيم وراء الأحلام ، وإنما وقف يدفع عن نفسه بالبراهين المقدسة ، النهمة التى قيل فيها : إن ما يراه محمد هو أوهام وخيالات من الحواس .

ثم يسأل ويقول : والآن لا أدرى لماذا لا نؤمن به ؟ .

أما نحن فنقول : الله أعلم ؟

راشد رشدى

أضواء على تاريخ أديب :

صورة من سماحة الإسلام

للأستاذ محمد رجب البيومى

يقرأ المؤمن المتدبر قول الله عز وجل : « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوما بما كانوا يكسبون » ، فيستشعر إجلالا مهيبا لما يوحى به هذا النص الكريم ، فهو فى نبله الإنسانى يشف عن سماحة حميدة تتسع حتى تشمل المناوئين من أعداء الدين ، وإن لنا فى آيات الكتاب وأحاديث الرسول ، وسير الصفوة من قادة الإسلام لنماذج كثيرة تنحو هذا النحو الرائع ، وتسمو بالمشاعر المسلمة إلى أفق إنسانى ودود . ولم تقتصر هذه السماحة البالغة مع أهل الكتاب عن أن نجادلهم بالتى هى أحسن ، وندعوهم إلى كلمة سواء بيننا وبينهم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، بل شملت غيرهم ممن لا يرجون لقاء الله وكذبوا بما لم يحيطوا به حتى ليدعونا الكتاب العزيز أن نبرهم ونقسط إليهم إن الله يحب المقسطين !!.

وقد أفاض الكاتبون من دعاة الإسلام فى إيضاح هذه الصفحة الوضيئة من صفحات الإسلام بما لا يدع مزيدا لمستزيد ، وأنا هنا لا أحاول أن أكرر معادا ألفته الأسماع وأطمأنت إليه العقول ، ولكنى أعرض على ضوء هذا الهدى المشرق سيرة أديب صابئ من عبدة الكواكب ، وسعته سماحة الإسلام عن صدر رحب ، وبشر متهلل ، فبلغ فى دنيا الأدب - كتابة وشعرا - وهو يومئذ عربى يقتدى بعذوبة القرآن وسلاسته - مكانة رفعته إلى أسمى المراتب ، وهيأت له أن ينوب عن الوزير فيما يصرف من مهام ، ويقرر من شئون ، وكم فى تاريخ الإسلام من أمثال له وسعتهم إنسانيته العادلة فبلغوا الأوج الشاهق دون أن تطمس لهم كفاية مقدورة ، أو يجحد لعبقريتهم فضل ملموس ! ! وإذا كان كل هؤلاء من أهل الكتاب ، فإن العجيب حقا أن يصل إلى هذه المنزلة فى دنيا الإسلام صابئ لا يعترف المسلمون بشرعية دينه ، حتى لقد حاول المأمون أن يرجع تعاليمهم إلى وحى سماوى

حرف فيه الكلم عن مواضعه فلم تسعفه عباداتهم وطقوسهم بما يريد ! إن العجيب حقا أن يصل أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابئ الحرانى إلى مثل هذه المكانة فى دنيا بنى العباس ، وبغداد يومئذ حاضرة الدنيا وعاصمة الإسلام .

ونحن حين نبحث عن الصابئة فى القرن الرابع الهجرى - عصر أبى إسحاق - لا نتلمس تعليمها مما كتبه الكاتبون عنها فى القرن العشرين ! ! فأكثره مشاهد شخصية لباحثين متجولين رحلوا إلى أماكنهم المتفرقة فى العراق ، فأخذوا من تعاليمهم المستحدثة وأوضاعهم المستجدة ما حسبوه دينا أصيلا للصابئة ! قد انحدر إليهم من أزلهم السحيق ، ولكننا نرجع إلى ما كتب عنهم أيام أبى إسحاق أو بعده بقليل فنجد مؤرخى الملل والنحل قد جعلوهم فرقتين مختلفتين ؛ فرقة تقول إن خالق الكون هو الله سبحانه وتعالى ولكنه خلق الكواكب كالشمس والقمر والنجوم لتكون قبلة للدعاء ومركزا للصلاة ، فهى دلائل وجوده ، ووسائل نفعه وضره ، وفرقة ثانية ترى أن الله خلق الكواكب وحدها فقط ، ثم تركها تخلق ما أرادت من إنسان وحيوان ونبات وجماد ، وهى المدبرة لما فى الكون من صحة ومرض ، وخير وشر ، وعلى البشر تعظيمها وإجلالها ، لإنها الآلهة المدبرة المتصرفة والفرق بين الفرقتين واضح ، إذ أن الأولى تنسب الخلق والإيجاد للأشياء لا لله ، والثانية تجعلهما للكواكب ، وأرجح أن أبا اسحاق كان ممن ينتمون إلى الفرقة الأولى ، فمثله فى عقله الثاقب واطلاعه الواسع على أديان عصره أكبر من أن يعتقد هذا الاعتقاد البدائى ! ! حقا لقد كانت الكواكب مؤلهة عند أكثر الناس فى طفولة البشرية حين كانوا ينظرون فيجدون للشمس وللقمر وللنجوم من العظمة والإشراق والعلو قدرا كبيرا ، ولكن تطور الخليقة ، واكتمال النظر ، وتتابع الرسالات جعل من هذه العقيدة أسطورة مضحكة لا يجدر بكاتب مفكر أن يعتنقها فى القرن الرابع الهجرى . على أننا مع هذا التقدير لا نستبعد شيئا على الإطلاق فالأمر فى العقائد يخضع لتأثير العاطفة والبيئة خضوعا تتهافت دونه أدلة العقل ، وللتربية الأولى فى عهد الطفولة أثرها المحسوس فى تحديد المذهب وتعيين الاتجاه .

ولقد نشأ الصابئ فى عهد يزخر بأئمة البلاغة وأمراء الأدب ممن تسنموا ذرى الرئاسة والسياسة عن طريق البيان والإفصاح ، فلو كان الرجل فذا مفردا لا شريك له فى أدبه وثقافته لقلنا : إن دوله الإسلام قد احتضنته

على نشوز دينه حين افتقرت إلى سداد بلاغته وسحر مقالته ، أما وقد تألق نجمه فى سماء بزغت بها شموس وضاءة فى النثر والشعر معا مثل ابن العميد والصاحب بن عباد وأبى حيان التوحيدى وأبى الفرج الأصفهانى وأبى بكر الخوارزمى وأبى الطيب المتنبى وأبى فراس الحمدانى والشريفين الرضى والمرتضى وغيرهم ممن لايحيط بهم الحصر ، ومع هذا التزاحم الشديد على السبق فى مضمار الأدب فقد شق الصابئ طريقه ووجد من أعيان الخلفاء ووجهاء الوزراء من وضعه فى مكانه المرموق ، فإن ذلك وحده لينهض دليلا على سماحة بيئته التى نشأ فيها ، ويعطى البرهان الأكيد على أن المسلمين بعيدون عن التعصب بعداً يدعو إليه القرآن وتشيد به أحاديث الرسول .

لقد كان الوزير المهلبى ، وهو ببغداد صاحب الكلمة العليا فى دولة الخلافة صديقا حميما لأبى إسحاق ، يحن إليه إذا غاب فيستدعيه كما يأنس به إذا حضر ويستشيره ، وكثيرا ما أقامه مقامه فى الوزارة إذا ارتحل عن العاصمة فى تسكين ثائرة أو تضميد نائرة ، فلا يجد أحد حرجا من إقامة صابئ منبوذ مقام وزير مسلم فى خلافة سنية تستهدى كتاب الله فيما تقوم به من الأوامر والأحكام ، ولم يكن الوزير المهلبى ضيق الأفق قصير النظر ، فيرمى بالغفلة والحمق فى إسناد الوزارة إلى الصابئ ، ولكنه كما يقول الثعالبى نقلا عن اليتيمة جـ ٢ ص ٢٢٣ « كان من ارتفاع القدر واتساع الصدر ونبل الهمة ، وفيض الكف وكرم الشيمة ، على ما هو مذكور مشهور ، وأيامه معروفة فى وزارته لمعز الدولة ، وتدبيره أمور العراق ، وانبساط يده فى الأموال مع كونه غاية فى الأدب والمحبة لأهله ، وكان يترسل ترسلا مليحا ، ويقول الشعر قولا لطيفا يضرب به المثل ، ولا يستحلى معه العسل » هذا الوزير السياسى الأريب وجد من سماحة دينه وسمو إسلامه ما اصطنع به أبا اسحاق عن دربة واختباره فكان كما يقول الثعالبى فى موضع آخر جـ ٢ ص ٢٤٣ « لا يرى الدنيا إلا به ويحن إلى براعته ، وتقدم قدمه ، ويصطنعه لنفسه ، ويستدعيه فى أوقات أنسه ، وظل وافيا لصداقته حتى قتل فى إحدى الفتن بعمان تقطع الموت مودة حلوة هنيئة وخسر الصابئ بفقده ذخرا ثمينا وكنزاً لا تفى بقيمته كنوز .

ولم يكن الوزير المهلبى فريدا فى اصطفائه أبا إسحاق ، فقد كانت تأتيه هدايا سيف الدولة الحمدانى ، وتحف عز الدوله بختيار بن بويه ، حتى لقد عرض عليه الوزارة نفسها إن أسلم فما استجاب لعرضه ، ولم يشأ أن يجيره على ما لا يريد ، وظل يؤثره بنفائسه وألطافه ،

وما زاده تمسكه بدينه إلا رفعة وسموا فى عينه ، وهو بعد دين منبوذ لا يقوم عند غير الصابئة على أصل ولم يأت به نبى تذكره الأديان .

وكان الصاحب بن عباد تياها فخورا يرى نفسه بالمحل الأعلى من السياسة والبيان معا ، ولكنه كان يدخر لأبى إسحاق ودا كريما وتقديرا رائعا ، فهو يحرص على مودته متلطفا ويستدعيه إليه متحببا ، فيقدم تارة ، ويحجم تارة ، وما كان للصاحب وهو الوزير الرئيس التياه أن يتحمل إحجام فرد ما عن تلبية ندائه ، لو لم يكن يقدره قدره ، ويزن قيمته فى دولة البيان ، ومع أن الصاحب قد جافى أبا حيان التوحيدى المسلم ونابذه لفرط اعتداده بنفسه ، فلم تشأ له سماحته الحساسة أن يجافى أبا إسحاق الصابى لإحجامه ، بل أخذ يعترف صراحة بفضله وعقله ، ويقول : « كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة ، الأستاذ ابن العميد ، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، وأبو إسحق الصابى ، ولو شئت لذكرت الرابع » ، ويعنى به نفسه ، فتراه يذكر أبا إسحاق ، ويترك أبا حيان ! ! والتوحيدى باعتراف أساتذة النقد سيد الجميع ، فلو أن تعصبا دينيا طاف بنفس الصاحب لأسقط أبا إسحاق كما أسقط من هو أفضل منه من أبناء ملته ، ولكنه التسامح المعتدل يفرضه القرآن ، وتوجيه الأخلاق ، وبهما يعيش أبو إسحاق قرير العين مطمئن الفؤاد .

وأطرف ما يروى فى حياة الصابى هو صداقته للبيت العلوى فى بغداد ، فقد كان نقيب الطالبيين الشريف الموسوى والد الرضى والمرتضى من أصدقائه المحتفين بأدبه وذكائه . ولم يجد الزعيم العلوى غضاضة ما فى أن يتأثل وده بأديب صابئ يفد إلى داره بين الفينة والفينة فيؤاكله ويحادثه ، ويصادق شبليه الناشئين لأن الاسلام فى لبابه يحرص على مودة مخالفيه ، ويعلن كتابه الصريح أن لا إكراه فى الدين فقد تبين الرشد من الغى ، وقد امتدت صداقة أبى اسحاق للبيت العلوى حتى مات الوالد وترعرع الشريف ليؤكد الصلة ويعرق الماتة . فكانت صداقة الفتى اليافع والكهل الفانى مضرب المثل بين الناس حتى خرج الصابى عن طوره فرشح الشريف فى بعض أبياته لإمارة المؤمنين ، ولم يجد من الخلفاء من يغلظ له الحساب على وعورة المسلك وخطر المركب ، وظلت المطارحات الشعرية يتجاوب صداها بين الصديقين أمدا غير قصير ، فتفصح عن إخلاص متبادل وتقدير مشترك . ورواة الأدب يذيعونها فى كل مجلس فتتعطر بها الأندية ، وتحلو بترديدها الأسمار ، حتى مات

أبو إسحاق فجزع عليه الشريف الرضى جزعا نال منه كل منال ، ورثاه بقصيدة فريدة يعدها بعض النقاد من أبلغ مراثى الشريف إن لم تكن أبلغ ما قال ! ! ثم عاود رثاءه مرة ثانية وثالثة ، فحفظ ديوانه الذائع ثلاث مرثيات خوالد للصديق الراحل، مع أنه رثى والده الشريف الموسوى بقصيدة واحدة! فاى وفاء حى عاش فى مهجة الشاعر لصاحبه الفقيد ! إن الدنيا لتضيق فى عينيه بعده فيكرر الرثاء مرة ومرة ليستريح ، فما ينعم ببعض ما يريد بل يكون مآله كما قال فى إحدى مراثيه :

رثيتك كى أسلوك فازددت لوعة
لأن المراثى لا تسد المرازيا

وهو بيت صادق لا يقل روعة عن قوله فى مرثاته الأولى :

سلوا من الأبراد جسمك وانثنى
جسمى يسل عليك فى الأبراد

وقوله فى مرثيته الثالثة :

أمضى وتعطفنى إليك نوازع
بتنهد كصبابة العشاق

وإن صابئاً ينال هذا التقدير من رئيس دينى وزعيم علوى كالشريف الرضى وأبيه لدليل على أن أبناء الإسلام يعتنقون حكمه المسلزم فى المساواة والعدالة بين الأجناس والأديان دون تفريق .

على أن الصابى كان متشدداً فى اتباع تعاليم الصابئة ، فلم يكن ليتحلل بعض الشىء كما نلحظ فى سير أناس من الأدباء ترهقهم ملزمات الدين فيطلقون لشهواتهم العنان . وكثيراً ما اشتهروا ببغداد على عهد أبى إسحاق وفيهم شيوخ الدين كالقاضى التنوخى وابن معروف وابن قريعة وأضرابهم ، ولكن الصابى راعى حدود الدين مراعاة تحسب له لا عليه ، فقد حضر يوما مائدة الوزير المهلبى فامتنع عن لون محرم من ألوان الطعام لدى الصابئة ، فقال له المهلبى : كل ولا تبرد ، فأجاب فى أدب : لا أحب أن أعصى الله فى مأكول ، وذكر بعض مؤرخيه أن عز الدولة بختيار بذل له ألف دينار على أن يأكل الفول وهو مما حرم فى دينه فرفضها عن تعفف ، وله شعر جميل نلمس فيه هذه النزعة الدينية المتحرجة كأن يقول :

حمتنى لذتى رتب المعالى
وضنى بالمروءة والوقار
ودين ضاق فيه مجال فتكى
لخوف عقوبة وحذار نار

ولم يزده هذا التشدد إلا إكباراً فى نفوس المنصفين ، فما قرأنا فيما كتب عنه على كثرته أن أحدا من خلصائه قد ضاق بتشدده ، بل تركوه يؤدى فرائضه الدينية ، ومقدساته الشرعية، وحسبهم منه أن يجازيهم وفاء بوفاء.

(البقية على صفحة ٣٧٠)

ما اقتبسوه من الثقافة الإسلاميه . ذلك لأن الحقائق التى تلقى إليهم حقائق مشوهة حظها من الصحة قليل، فالمؤرخون يبالغون كل المبالغة فى الحط من شأن الثقافة الإسلامية، مثال ذلك ماهو شائع معروف من أن أسبانيا ظلت تحت الحكم الإسلامى عدة قرون بينما لا يذكر التاريخ الغربى قط أن صقلية والجزء الجنوبى لفرنسا كانا تحت حكم الإسلام . . ويخلص الكاتب من بحثه هذا إلى أن الغرب مدين لثقافة الإسلام ومدنيته بهذا التقدم الملموس ويعزى إنكار الاعتراف بذلك إلى تعصب المؤرخين الغربيين».

لا نكون مبالغين أبدا حينما نقول : إن الإنسانية مدينة لمحمد بن عبد الله برفع شأنها وأنه بفضل تعاليم الإسلام وصلت إلى ما وصلت إليه من هذا الرقى الذى فتح الآفاق أمامها . ومهد لها . ووجهها للعلم والكشف والاستزادة من الخير . وكل منصف لا يمارى فى هذا . وتلك حقيقة اعترف بها منصفو الغرب وقرروها وفاخروا بها . ؟

أحمد عبد المنعم البهى

(بقية ص ٣٦١)

ولا ننكر فى هذا المجال أن أبا إسحق الصابئ تعرض فى حياته الطويلة وقد جاوزت التسعين إلى نكبات سياسية قذفت به فى ظلمات السجن والاعتقال ، ولم يكن لدينه الناشز أثرا فى اضطهاده ، ولكنها السياسة ـ لحاها الله ـ دفعته إلى مناصرة فريق على فريق ثم جاءت الريح بما لا يشتهى ، فتم الأمر لخصومه فنكلوا بجميع أعدائهم ومنهم أبو إسحاق ؛ بل إننا نذكر أن غريمه الحاقد عضد الدولة قد اكتفى بحبسه واعتقاله ، استجابة لشفاعة بعض ذوى الأدب فى شأنه ، على حين قتل من خصومه المسلمين عددا غير يسير ، ولو كان أثرا للتعصب الدينى فى نفسه لاهتبل الفرصة وطاح به مع الطائحين .

ولن نختم هذا المقال دون أن نشير إلى أن الكاتب البليغ قد حفظ القرآن الكريم حفظا تاماً مجوداً ، فارتقى به معارج البيان والسحر ، واتخذه مورد إلهامه ومناط احتذائه . أفيعتبر بذلك الآن قوم من المسلمين يرون فى جزالته الفصيحة وأسره القوى ماتضيق به عقولهم الواهنة فيحاربون إعجازه الساحر بإسفافهم الشائن ، وتهافتهم الركيك! أم يكون الصابئ أكثر منهم احتفالا بروعة الكتاب واعتقاداً بأسلوبه الرصين .

محمد رجب البيومى

الإسلام والمدنية المثالية

للأستاذ عباس طه

الدين الحق والمدنية السامية يتفقان فى المبدأ والغاية ، ولما كان أمر المدنية من الشئون التى تعتبر فى الدرجة العليا من الخطورة ، لافتتان الناس بها افتتانا يسلبهم إرادتهم ويدفعهم فى سبل محفوفة بالأخطار ، ونظرا لما يفهمه بعض الناس من معنى المدنية وطرائقها وجب علينا أن نوفى هذه الناحية حقها من البحث والتحقيق والتمحيص ، وفى عرضنا لهذا الموضوع المتشابك الحلقات ، نتوخى تحليل أمهات الشبهات تحليلا علميا ، لأن بقاءها ماثلة فى بعض الأذهان على حالة شبهات لا تقبل الدحض ، وكامنة فى نفسية الدهماء وإن لم يستطيعوا الإفصاح عنها بأطراف ألسنتهم ، يجعل كل محاولة لإنقاذهم من سلطانها ضربا من ضروب العبث واللغو فما انهم المدافعون عن الأديان بأشد من كراهتهم مواجهة الاعتراضات وانقائها بالحيد عن طريقها ، وتركها تفتك بالنفوس والقلوب فتكا ذريعا .

ما الذى أوجد ما يتخيله البعض من التنافى بين الدين والمدنية ، إذا كانت المدنية ثمرة الجهود التى يبذلها الإنسان لتحسين حياته المادية وتسهيل مخاولاته المعيشية والذهاب فى ترقية وسائله الحيوية وحاجاته الأدبية والفنية إلى أبعد ما يمكن أن تصل إليه تحت ضوء العلوم والصناعات المختلفة .

ليس فى المدنية الصحيحة ما يعاند الدين الحق أو يقف فى سبيله إذا استثنينا ما تثمره من مذهب فلسفى يرى غير ما يقرره الدين فى مسائل الاعتقادات ، وهذا الخلاف مرده العلم ، والعلم الصحيح لا يعاند الدين الحق فى شىء ، فلا يلبث هذا الخلاف العارض أن ينحسم ، أو يبقى مقصوراً على طائفة لا يؤثر شذوذها على سواد الناس .

إذن فما الذى استحدث هذه الهوة السحيقة بين الدين والمدنية فى نظر بعض الآخذين بمبادئ الحياة العصرية الآلية اليوم ؟ .

أوجدها خطأ جلل تسرب إلى عقولهم ولم يفطنوا إليه . وهو أنهم خلطوا بين المدنية على وضعها الصحيح وبين ما استحدثه أهل الإباحة على العلم والفلسفة والأخلاق الفاضلة تحت ظل الحرية الشخصية وألصقوه بالمدنية

ومرد هذا الخطأ الشنيع هو ما يراه الناس بأعينهم اليوم من جرى الأمم المتمدينة قاطبة وراء المتع النفسية من مأكل ومشرب وملبس. غير مقيدين فيها بغير ما توجبه عليهم تقاليد تواضعوا على مراعاتها فى المشية والقعدة والسلام والكلام وتناول الشراب والطعام، أما ما وراء ذلك من مخالفة ما يأتونه لأصول الآداب الصحيحة فلا يأبه له أحد.

فالعلم يحرم كل ما يحرمه الدين على مقتضى وجهة نظره الخاصة، فيحرم الخمر والميسر والتبرج والهتك والزنى والمناظر المثيرة للشهوات، والسماع المميت للقلوب والتواضع على تقاليد تعتبر أدبية وليست من الآداب الصحيحة فى شىء.

ولكن الذين يعتبرون أنفسهم متمدينين لا يقيمون للعلم وزنا، ولا يعتمدون على مقرراته فيما هم مدفوعون إليه من إشباع أهوائهم النفسية، وملاذهم الجثمانية. فهذه المدنية على هذا الضرب ليست علمية، ولا هى ثمرة أى مذهب فلسفى حتى ولا المذهب المادى نفسه، فإن الملاحدة وإن كانوا يكفرون بالقضايا الاعتقادية إلا أنهم لا يبيحون لأحد أن يخرج على مقررات العلم.

فهذه الانحرافات الخلقية التى يسميها فيكون من وراء هذا النهم الثائر لتحصيل السطحيون مدنية، محكوم عليها بالتلاشى، أو ببقائها موصومة بأنها خروج على العلم، وعدوان على الحكمة.

وهناك مدنية تتفق والعلم، ومتى اتفقت والعلم فقد اتفقت والدين، لأن العلم الصحيح لا يجافى الدين الصحيح، بل يوائمه ويماشيه. فالنزاع القائم الآن هو بين المدنية والعلم، أكثر مما هو بين المدنية والدين وموضوعه:

لو التزم الناس وصايا العلم من كبح جماح الأهواء النفسية، والإباحات البهيمية، والاعتدال فى توفية المطالب الجسدية، ألا يؤثر ذلك فى إضعاف العوامل الحافزة المدنية؟ لأن الناس متى لزموا حدود الحكمة فى مطعمهم ومشربهم، وامتنعوا عن كل ما يقرر العلم إضراره بصحتهم وعقولهم، ولم يخرجوا فى ملاهيهم وملاعبهم واجتماعاتهم عما رسمه من آداب وتقاليد، بطلت المعاقرة والمقامرة والمخاصرة والمكاثرة، هذه الأمور كلها التى تستنزف الأموال، وتبيد الآداب والأخلاق، وتفسد القلوب، وتهتك الأعراض. ويظن البعض - جهلا - إلا أنها تدفع الصناع للإتقان، والفنانين للإبداع، والكتاب والشعراء للإنتاج، وتلهب النفوس كافة إلى التبارى لنيل النشب الذى يوصلهم إلى استيفاء ضروب المشتهيات، والنشب الذى هو المال لا يوصل إليه إلا بالعمل والدأب والإتقان والابتكار

المآرب المنوعة ، دوافع حافزة للتقدم فى جميع نواحى النشاط العقلى والعملى .

ولكن لو اكتفى الناس بتحصيل العيش فى حدود الاعتدال ، ووقفوا من المشتهيات عند ما هو مقرر منها فى العلم خمدت فى نفوسهم جذوة هذه النار المتأججة وراء المآرب المفرطة ، وتبع خمودها تصوح زهرة المدنية ، وبطلان سحرها الفاتن الخلاب ، وربما أدى ذلك كله إلى ارتكاس النوع البشرى إلى عهد الظلام .

ويزيدون على هذا أن العلماء والفلاسفة أنفسهم لا يعملون بما ينصحون به الناس ، فهم يعاقرون الصهباء ، ويقامرون ويفسقون ويرتكبون كل مايرتكبه الجاهلون من العدوان على الآداب العلمية الصحيحة ، والأخلاق الفلسفية السليمة . يقول المعارضون : أتريد دليلا بعد هذا على أن العالم لا يرقى إلا مدفوعا بحوافز من الشهوات مطلقة العنان ، راكبة رأسها لا تبالى فى غلوائها بقانون أدبى ، ولا ترتبط بعهد على على النحو الذى هو عليه الآن ؟.

هذه شبهة يثيرها الإباحيون على كل من يتصدى للإصلاح باسم العلم والفلسفة والدين . وهى شبهة مبنية على قصر باع وفتور نظر ، وإنا نبين ذلك فيما يلى فنقول :

إن الذين يرفعون صروح المدنية ويشيدون معالمها ليسوا هم من تقع عليهم العين من المترفين الإباحيين الذين يأكلون ويشربون ويتمتعون كما تتمتع الأنعام ، ولكنهم طبقة من الناس شغلهم ماهم فيه من العمل المتواصل لا أقول عن اللهو والقصف ، ولكن عن حاجاتهم الضرورية ، فهم يصلون الليل بالنهار دأباً كأن قيّم الوجود سخرهم له ، فهم فانون فيه لا يستطيعون عنه تحولا . فجمهور الذين يضعون العلوم ويرتأون النظريات ويقررون المبادئ الأولية من العلماء والفلاسفة لا يكادون يجدون فى عمرهم وقتاً للاشتغال بغير ما هم فيه ، وأكثرهم عاشوا فى فاقة مضنية ، أغنياء بما اختار الله لهم من الأعمال الخالدة . وجميع العباقرة الفنانين الذين وضعوا المثل العليا للفنون الجميلة والآداب العالية كانوا مرضى لا يكادون يسيغون طعاماً ولا شراباً ، ولا يستبيحون لأنفسهم لهواً وهؤلاء جميعاً مدفوعون بقوة قاهرة لعمل ما يعملون ، وكثير منهم بذل فى عمله ماله كله وبات محتاجاً إلى شروى نقير أولئك هم الأغنياء بقلوبهم الأتقياء بمبادئهم .

فالمدنية ليست مدينة للذين يتمتعون بطيباتها ويسرفون ، ولكنها مدينة لتلك الطبقة من الأفذاذ الانعزاليين الذين يبدعون فيما يعملون ، ولا يعبئون بالمعجبين واللاهين ،

بل إنهم يدأبون على ما هم فيه ولو لحقهم أذى من الجامدين والمتعصبين أولئك قوم يختارون العفاف ويعافون الإسفاف ، يدعون الطعام طاوين ويذرون الشراب صادين ، جوف خال ، ومجد عال ، وثوب بال وراءه عز وجمال ، وعقب مشقوق وذيل مفتوق يجره فتى مغبوق .

لله تحت قباب العز طائفة
أخفاهم فى رداء الفقر إجلالا
هم السلاطين فى أثواب مسكنة
استعبدوا من ملوك الأرض أقيالا
غبر ملابسهم شم معاطسهم
جروا على قلل الخضراء أذيالا

فالذين يزعمون أن المدنية لا تزدهر إلا بحوافز من الميول الإباحية التى تعارفها الناس فى هذه العصور القاتمة الحافلة بصنوف الرزايا والنكبات يخطئون أفحش الخطأ ، ويحتملون شططا زريا . إذا كان يخطف أبصارهم زبرج الحياة ولألائها إن فى المدنية من المناعة ما يقيها من توالى أمثال هذه الكوارث عليها فإنهم يغفلون عن تاريخ المدنيات البائدة .

فإذا سلمنا لهم بقدرة هذه المناعة ، فأى هدف للنوع البشرى فى أن يبقى على هذا النحو من الحياة والميول المضطرمة ، والسأم الذى أصبح يغرى بعض النفوس المريضة بنسف الكرة الأرضية لو استطاعت إلى ذلك سبيلا . ألم يقل الفيلسوف الكبير روبرت[1] دوهارتمن خليفة شوبنهور زعيم المذهب التشاؤمى : إن الحياة الأرضية ما دامت لا تعدو لفساد تركيبها هذه الحالة البشعة فليس لها إلا حل واحد وهو أنه متى وصل الإنسان فى مستقبل الأيام إلى ابتكار مادة مدمرة قوية تصلح لنسف الكرة الأرضية ، فإنه ناسفها بها لامحالة ليخلص العالم من حياة كلها شرور وآثام ، ومصائب وأهوال ، وكأن الفيلسوف الألمانى نظر بعين الغيب إلى أن العلم فى عصرنا الراهن قد تمخض عن القنبلة الذرية والقنبلة الهدروجينية والصواريخ الموجهة والعابرة للقارات .

إن مدنية تولد مثل هذا القول على لسان قطب من أقطاب الفلسفة فى مدنية فى حاجة إلى مثل أعلى ينظم حركتها ويرأب صدوعها ، وإلا لحقها ما لحق سواها وأصبحت أحاديث فى الغابرين والمثل الأعلى للمدنية هو آداب الإسلام .

عباس طه

---

(١) روبرت دوهارتمن فيلسوف وعالم ألمانى ولد سنة ١٨٤٢ فى برلين وتوفى بها سنة ١٩٠٦ .

محمد رسول الإنسانية

للأستاذ أحمد عبد المنعم البهى

الإنسانية مدينة لمحمد بن عبد الله بالمعانى السامية التى رفع بها شأنها ، وأوجد بها كيانها ، ذلك أن الحياة قبل بعثته صلى الله عليه وسلم لم تكن رتيبة ندية، يتمتع الناس فيها بالهـــدوء ، وينشدون فيها الاستقرار والطمأنينة ، ويشعرون بقيمتهم فيها .

لم يكن هناك شيء من ذلك ، كما أنه لم تكن هناك نظم ولا قوانين ترعى حقوق الإنسان وتحميها من عبث العابثين ، أو تمنع عنه كيد الكائدين والمعتدين ، وكل ما فى هذه الحياة هو الاعتزاز بالقوة ، والسيطرة على الناس بها ، فما دمت قويا ، لا تبالى بشيء من حقوق الغير وحرماته ، وفى هـذا الجو المضطرب كانت مقاييس الخير والشر ومفاهيم الفضائل والرذائل تخضع للرغبات والشهوات ومعايير الصالح العـام تمضى حسبما تتجـه إليه الأهواء .

سئل شيخ قبيلة عن معنى العـدل والظلم فى نظره فقال : العدل أن أغير على غنم جارى فآخذها ، والظلم أن يغير على جارى فيستردها . وهذا هو فهمه وفهم غيره من شيوخ القبائل لفضائل الأمور ورذائلها . والشعر العربى يصور لنا جانبا مما كان يسود هـذه الحيـاة من اضطراب وفوضى ، والتبـاهى بامتهان حقوق الناس واستباحتها ، ونلمح هذا واضحا فى شعر عمرو بن كلثوم أحد شعراء الجاهلية الفحول الذى كان يفاخر بظلمـه وظلم قومه للناس فيقول :

لنـا الدنيا ومن أمسى عليها
ونبطش حـين نبطش قادرينا
بغـــاة ظـالمين وما ظلمنا
ولـــكننا سنبدأ ظـالمينا
إذا بلغ الرضيع لنـا فطاما
تخـــر له الجبابر ساجدينا

حتى المعتدلين من الشعراء كان هـذا شأنهم أيضا ، فزهير بن أبى سلمى الشاعر المشهور بالاتزان والدعوة إلى الحكمة لم يتخل عن عادة قـومه فى الإشادة بالظلم وامتداحه فيقول .

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه
يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

على هذا النحو من الفساد والاضطراب واستباحة الحرمات كانت الحياة فى المجتمع العربى قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم. ولم تكن الحياة فى المجتمعات الأخرى خيراً مما كانت عليه فى هذا المجتمع، ذلك أن الفوضى والاضطراب والبغى والفساد فى الأرض بغير الحق كانت مسيطرة بصورة أعم وأشمل على المجتمعات الأخرى التى كانت تخضع لحكم دولتين عاتيتين هما دولتا فارس والروم اللتان كانتا تتنازعان السيادة على العالم فى ذلك العهد، لا بنشر مبادئ الحق والعدل والدفاع عن كرامة الإنسان، ولا بالاعتراف بحقه فى الحياة، ولا بإعادة حريته المسلوبة إليه، ولكن بالقهر والغلبة والجبروت وتكميم الأفواه ونكران الحقوق.

وليت الأمر كان قاصراً على الاضطراب والفوضى اللذين شملا الحياة الاجتماعية فقد تعداهما إلى شتى النواحى حتى شمل العقيدة وضلل الرؤساء الناس عن عبادة إله واحد ليعبدوا أوثانا وآلهة نحتوها وصنعوها بأيديهم، وذلك كله رغم جهود الموسوية والمسيحية اللتين سبقتا الإسلام لتصحيح العقيدة والدعوة إلى عبادة الله بارئ السموات والأرض.

كانت الأمور تسير على هذا النحو قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم، جهل فى العقيدة، وفوضى فى الأنظمة، وامتهان لحقوق الإنسان، وحكم جائر لا سبيل إلى الخلاص من كابوسه، وهيام فى الضلال.

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم
إلا على صنم قد هام فى صنم

ولقد بعث محمد بن عبد الله ليخلص الإنسانية من آلامها، وليرفع عنها إصرها ويحطم الأغلال التى كانت عليها، وفى هذا يقول الله تعالى: «الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم، والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به، وعزروه ونصروه، واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون».

ومن هذا البيان الإلهى نعرف أن رسالة محمد بن عبد الله لم تكن قاصرة على مجرد تصحيح العقيدة وعبادة إله واحد دون اقتلاع أسباب الفوضى، والقضاء على الفساد

الذى استشرى فى كل مكان ، ودون إقامة نظام شامل للحياة ، يقوم على العدالة والإنصاف ، ودون تكريم الإنسانية والنهوض بها وإعلان حقوق الإنسان .

فلقد شملت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم كل هذا وكانت رسالة عامة للناس جميعا : أجناسا وشعوبا ، فالحرية فى دينه للجميع ، والمساواة عنده للجميع لا فرق بين سيد ومسود ، والأبيض والأسود والأصفر أمام تعاليمه سواء يتمتعون جميعا فى ظلاله بالحقوق التى جاء بها ، والأخوة التى دعا إليها ، والأمان المنشود أضحى حقيقة واقعة بعد أن كان سرابا بقيعة يحسبه الظمآن ماء . فأمنك الإسلام على نفسك وعرضك ومالك فلا يجوز لأحد أن يعتدى على هذه الحرمات مهما كان قويا ومهما كان جبارا ومهما كنت ضعيفا لا حول لك ولا طول إزاءه ، حماك وجعل حمايتك حقا عليه يدافع عنك ، ويذود عن عرضك ومالك ويردع الظالمين والمتكبرين عن أن تمتد يدهم إليك بل فرض أقسى العقوبات على من يحاول العبث بشىء من ذلك ، قال جل شأنه : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساد أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض » .

وكما حطم محمد الأغلال التى كانت مضروبة على الناس فى حياتهم وعقيدتهم وتصرفاتهم ، حطم الأغلال التى كانت مضروبة على عقولهم فارتقى بالعقل البشرى وحثه على التعليم والاستزادة من العلم ، وتفهم أسرار الكون وأرشده إلى السير فى مناكب الأرض واستغلال ما فيها وتوجيه كل ذلك لخير الإنسانية « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ، وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » ، ويقول سبحانه وتعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

هذه بعض الجوانب من تعاليم الإسلام التى انتشل بها الإنسانيه من وهدتها ، ورفع بها قدرها ، وإنه مما يذكر فى مجال الإشادة بهذه التعاليم أن نقرر أن الإسلام جعل للفقراء من أهل الذمة حقاً فى الزكاة التى تجمع من أغنياء المسلمين ، شأنهم فى ذلك شأن فقراء المسلمين .

وبهذه الحقوق والمبادئ التى جاء بها الإسلام وجد الناس بغيتهم فى العدالة التى افتقدوها ، ووجدوا حقوقهم التى طالما تمنوا أن ينالوها . ولم يكن بدعا وتلك تعاليم الإسلام ، وهذه بعض جوانبها أن يدخل الناس أفواجا فى هذا الدين الإنسانى . وأن تنتشر دعوته بمثل هذه السرعة التى لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الدنيا وأن تستجيب لدعوته أمم وطوائف ما كان العقل يتصور أن تقوم الألفة بينها أبدا ، وأن ترفرف رايته فى أقل من قرن من الزمان على الأماكن

التى رفرفت عليها وأن ينهار ملك كسرى ، وأن تتحطم دولة الروم بفضل تعاليم الإسلام وسماحته .

ولم يكن انتشار الدين الإسلامى بمثل هذه السرعة عن طريق السيف ، ولا عن طريق الاستعمار كما زعم بعض خصومه وإنما كان عن طريق مبادئه وتعاليمه . وهذه شهادة عالم من علماء الغرب هو « جوستاف لوبون » يقول هذا العالم المنصف « لم ينتشر الإسلام بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها ، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التى قهرت العرب مؤخرا كالترك والمغول » .

* * *

هذه بعض تعاليم محمد صلى الله عليه وسلم للبشرية منذ أربعة عشر قرنا تقريبا ، واليوم ونحن فى عصر الذرة وغزو الفضاء ، نجد أعرق الدول فى الديمقراطية لم تصل بعد إلى القضاء على الفوارق اللونية فى شعبها .

بينما قد حل الإسلام هذه المشكلة وفرغ منها منذ قامت دعوته . وما نسمعه اليوم عن تصرفات هذه الشعوب ضد الملونين مما يندى له جبين الإنسانية خجلا لهذا الانحطاط والفهم لمعنى الإنسانية

واليوم وبعد مرور أربعة عشر قرنا من دعوة الإسلام التى حققت للإنسانية مجدها نجد الفيلسوف المعاصر « برتراند راسل » ينشد التعاون العالمى والوسائل التى يمكن أن تحققه فيقول : « لا بد لكى نصل إلى تعاون عالمى من وجود نظام مستمر ثابت ، ولا بد من إيجاد نظم ديمقراطية واشتراكية تكافح الفقر والجهل والمرض ، وتنمى فى نفوس الأجيال الجديدة نوعا من الولاء العالمى وتوفق بينه وبين ولائنا للجماعات القوميه ، ولا بد قبل ذلك من أن نقضى على أسباب العدوان » .

وما ينشده هذا الفيلسوف نجده واضحا مفصلا فى تعاليم الإسلام . فقد حققت هذه التعاليم الخير كله للعالم يوم أن كانت أوربا فى ضلالة الجهل والتأخر ، ويوم أن كانت عالة على ثقافة الإسلام وتعاليمه فتزودت منها بخير زاد وكان هذا الزاد هو النور الذى أضاء جوانبها ، ولكن خصومة علماء الغرب للإسلام نفسه هى التى تحول دون التماس وسائل الإصلاح من تعاليمه . يقول الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه « حياة محمد » : « إن الغرب يستكبر أن يجد النور الجديد فى الإسلام ويلتمس هذا النور فى « ثيوزوفية الهند وفى مختلف مذاهب الشرق الأقصى » .

هذا ومع تمسك الغرب بهذا العناد ، فإن هناك من ينصف الإسلام ، فالمستشرق الفرنسى « رينيه جينو » يعترف بفضل الإسلام على الغرب فيقول : « إن الغربيين لم يدركوا قيمه

ما اقتبسوه من الثقافة الإسلاميه . ذلك لأن الحقائق التى تلقى إليهم حقائق مشوهة حظها من الصحة قليل، فالمؤرخون يبالغون كل المبالغة فى الحط من شأن الثقافة الإسلامية، مثال ذلك ماهو شائع معروف من أن أسبانيا ظلت تحت الحكم الإسلامى عدة قرون بينما لا يذكر التاريخ الغربى قط أن صقلية والجزء الجنوبى لفرنسا كانا تحت حكم الإسلام . . ويخلص الكاتب من بحثه هذا إلى أن الغرب مدين لثقافة الإسلام ومدنيته بهذا التقدم الملموس ويعزى إنكار الاعتراف بذلك إلى تعصب المؤرخين الغربيين».

لا نكون مبالغين أبدا حينما نقول : إن الإنسانية مدينة لمحمد بن عبد الله برفع شأنها وأنه بفضل تعاليم الإسلام وصلت إلى ما وصلت إليه من هذا الرقى الذى فتح الآفاق أمامها . ومهد لها . ووجهها للعلم والكشف والاستزادة من الخير . وكل منصف لا يمارى فى هذا . وتلك حقيقة اعترف بها منصفو الغرب وقرروها وفاخروا بها . ؟

أحمد عبد المنعم البهى

(بقية ص ٣٦١)

ولا ننكر فى هذا المجال أن أبا إسحق الصابئ تعرض فى حياته الطويلة وقد جاوزت التسعين إلى نكبات سياسية قذفت به فى ظلمات السجن والاعتقال ، ولم يكن لدينه الناشز أثرا فى اضطهاده ، ولكنها السياسة ـ لحاها الله ـ دفعته إلى مناصرة فريق على فريق ثم جاءت الريح بما لا يشتهى ، فتم الأمر لخصومه فنكلوا بجميع أعدائهم ومنهم أبو إسحاق ؛ بل إننا نذكر أن غريمه الحاقد عضد الدولة قد اكتفى بحبسه واعتقاله ، استجابة لشفاعة بعض ذوى الأدب فى شأنه ، على حين قتل من خصومه المسلمين عددا غير يسير ، ولو كان أثرا للتعصب الدينى فى نفسه لاهتبل الفرصة وطاح به مع الطائحين .

ولن نختم هذا المقال دون أن نشير إلى أن الكاتب البليغ قد حفظ القرآن الكريم حفظا تاماً مجوداً ، فارتقى به معارج البيان والسحر ، واتخذه مورد إلهامه ومناط احتذائه . أفيعتبر بذلك الآن قوم من المسلمين يرون فى جزالته الفصيحة وأسره القوى ماتضيق به عقولهم الواهنة فيحاربون إعجازه الساحر بإسفافهم الشائن ، وتهافتهم الركيك! أم يكون الصابئ أكثر منهم احتفالا بروعة الكتاب واعتقاداً بأسلوبه الرصين .

محمد رجب البيومى

محمد والقومية العربية

للأستاذ عبد الرحيم فوده

القومية فى عبارة محررة محدودة هى الشخصية المعنوية للقوم والجماعة ، وشخصية القوم تتكون من الروابط والأواصر الجامعة. والخصائص المشتركة ، وهذه الروابط بعضها يدخل فى مفهوم القومية من أصغر دائرة وهى الأسرة أو العشيرة إلى أكبر دائرة وهى الدولة والأمة ، كرابطة الدين فى دولة يجمعها أو يجمع كثرتها الغالبة دين واحد ، أو فى أمة تجتمع شعوبها المختلفة على دين واحد . وبعضها يدخل فى مفهوم القومية إلى حد لا يتعداه ولا يتجاوزه كرابطة الوطنية أو المصالح المشتركة فى وطن واحد ، أو ما إلى ذلك من وحدة اللغة والآمال والآلام وسائر الروابط التى تجتمع عليها الأفراد فتكون منهم قوما أو جماعة منيعة .

وقد قلت فى بعض ما كتبت « إن إطار الدين أوسع من إطار البيئة واللغة والتاريخ والمصالح المشتركة لأنه كالعلم لا وطن له ولكنه ضرورى لصلاح الفرد والجماعة ، وقد يلتقى على الإيمان به والحرص عليه أقوام مختلفون لا يجمعهم نسب أو سبب من الأسباب الاقتصادية والمصالح المشتركة ، ولكنه مع هذا أقوى من كل نسب وسبب لأنه فوق عمله على التقريب بين الأذهان والتوحيد بين الاتجاهات يمتزج بوجدان معتنقيه والمؤمنين به ويعقد مشاعرهم وضمائرهم بمعان ترتبط بها حياتهم ويختلط بها وجودهم أتم ما يكون الارتباط والاختلاط .

إنه عقيدة ، والعقيدة كما يفهم من اسمها فكرة يقتنع بها العقل ويؤمن بها القلب . ويطمئن إليها الضمير وينعقد عليها العزم والتصميم ، وهى بهذه المثابة قوة نافعة وطاقة دافعة وراية جامعة ، وهذا الذى قلته منذ عدة سنين وجدته فيضا من فيض مما يمكن أن يفهم من قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ، قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

قد يقال مع هذا كيف يقحم اسم محمد فى الحديث عن القومية العربية وقد أرسل صلى الله عليه وسلم للناس كافة وكان كما يقول الله فيه « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ؟ وقبل الإجابة على هذا السؤال أحب أن ألفت الأنظار إلى أن لله نعما عامة ينتفع بها الناس جميعا ، كالماء والهواء والشمس والقمر والأرض والسماء . ولكن حظوظ الناس فى الانتفاع بها تختلف ، تبعا لاختلاف الظروف والأحوال والمدارك والقوى العقلية ، فالشمس نعمة عامة ولكن انتفاع الناس بها يختلف بحسب قربهم منها أو بعدهم عنها ، وبعضهم يستخدم طاقتها الحرارية فى عدة أعمال صناعية. وبعضهم لا يزال انتفاعه بها قاصرا على الطريقة البدائية وما يقال فى الشمس يقال فى الماء والهواء وغيرها من النعم العامة التى تفضل بها الرحمن جل شأنه ، وقد جاء الإسلام نعمة عامة للعرب وغيرهم ورحمة من الله للناس أجمعين فكان طبيعيا أن يكون العرب وهم أقرب الناس إلى تلقيه أول المنتفعين به وأكثرهم حظا من خيره وبره ونوره وهداه، بل كان طبيعيا وقد نزل القرآن بلغتهم . وكان رسول الإسلام منهم أو يكون لهم السبق والصدارة بين عامة المسلمين . وأن يتحملوا أكثر من غيرهم عبء الدعوة إليه والجهاد فى سبيله ، وهذا بعض ما يفهم من قوله تعالى : « وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم » .

وأعود إلى الحديث عن القومية العربية ومدى تأثرها بالرائد الأعظم الذى قاد هذه الأمة إلى أعلى مراتب المجد والخلد فأعرض على القراء أول خطبة ألقاها بمكة ودعا فيها قومه إلى الإيمان . فقد قال صلى الله عليه وسلم بعد أن حمد الله وأثنى عليه : إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم . والله الذى لا إله إلا هو إنى رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة . والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا . وأنها للجنة أبدا أو النار أبدا » .

فهذه الخطبة يستشف منها بل يستفاد منها صراحة أنه أرسل إلى العرب خاصة وإلى الناس عامة .

وقد كانت رسالته كما يقول الله « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » ولكنه مضى بها على النهج الطبيعى فبدأ بأهله وذوى قرباه امتثالا لقول الله : « وأنذر عشيرتك الأقربين » وهذا ما يفهم من قوله (إن الرائد لا يكذب أهله) ولم يكن بدؤه بذلك مما يحول بينه وبين دعوة

غير أهله حيثما وجد استجابة لهذه الدعوة لأنه أرسل كذلك للناس عامة ، ومن ثم كان إسلام سلمان الفارسى وبلال الحبشى وصهيب الرومى فى بدء الدعوة إلى هذا الدين القويم .

ومما يؤكد أن الدعوة كانت تتجه فى أول أمرها إلى العرب خاصة أن أبا لهب عقب على هذه الخطبة بقوله لمن سمعها « خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب ، فإن أسلمتموه إذن ذللتم ، وأن أبا لهب كان يخشى أن يكثر أشياعه وأتباعه ويجتمع على الإيمان به والانضواء تحت لوائه العرب جميعا فلا تستطيع قريش أن تواجههم مجتمعين ، فإن أسلمت محمداً إليهم عاد بهم لحربهم ، وإن منعته قوتلت عليه وقتلت من أجله ، وان أبا طالب أبى أن يجيب أبا لهب إلى ما طلب وكان فى موقفه من ابن أخيه وإصراره على حمايته والدفاع عنه متأثراً بعوانف القومية فى دائرتها الصغيرة وهى الأسرة والعشيرة وقد ظل أبو طالب على وفائه وإبائه فأبى أن يسلمه أو يخذله حتى ائتمر به أهل مكة وتعاقدوا على « ألا يناكحوا بنى هاشم وبنى المطلب ولا يبايعوهم ولا يكلموهم ولا يجالسوهم حتى يسلموا إليهم محمداً » وكتبوا بذلك صحيفة مختومة ثم علقوها فى سقف الكعبة ، وانحاز بنوها ثم بنو المطلب مؤمنهم وكافرهم فى شعب أبى طالب وظلوا محصورين فيه مضيقا عليهم أشد التضييق نحو ثلاث سنين كما هو مشهور . لا يخرجون من الشعب إلا من الموسم إلى الموسم ، ولا يصلهم طعام إلا ما كان يأتيهم بين الحين والحين خلسة وبعيداً عن عيون أهل مكة ، فقد كان حكيم بن حزام بن خويلد تأتيه العير تحمل الحنطة من الشام فيوجهها نحو الشعب ويضرب أعجازها فتدخل عليهم فيأخذون ما عليها من الحنطة . وقد ظل أبو طالب مع بنى هاشم وبنى المطلب على ولائهم وإبائهم مع ما عانوه وقاسوه حتى استجابت لهم نوازع الأرحام ، وانتصر صبرهم على ما كان من عمل الشيطان ، فسعى فى نقض الصحيفة أقوام من قريش كان أحسنهم بلاء فى ذلك - كما يذكر المقريزى - عمر بن ربيعة بن الحارث بن حبيب بن جذيمة ابن مالك بن حسل بن عامر بن لؤى ، وهو يلتقى - كما نرى - مع بنى هاشم فى سلسلة الآباء والأجداد ، فقد مشى فى ذلك إلى زهير ابن أمية ، وأبى مطعم بن عدى بن نوفل ابن عبد مناف ، وإلى أبى البحترى بن هشام وأبى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ومشى كذلك سهيل بن بيضاء الفهرى إلى هؤلاء واتعدوا على أن يجتمعوا فى مكان بأعلى مكة يدعى « خطم الحجون » وتعاهدوا هناك على أن يقوموا بنقض الصحيفة .

وما زالوا بها حتى شقوها فإذا الأرض قد أكلتها إلا ما كان من جمله « باسمك اللهم » وإذا عمل الله قد سبق عمل هؤلاء .

ومضى النبي صلى الله عليه وسلم يدعو قومه إلى الإسلام ، ويتحمل فى ذلك من ألوان العناء والبلاء ما لا تتحمله رواسى الجبال ، حتى اجتذب إلى دينه كثيراً من الأنصار وتألف من هؤلاء قومية جديدة ، لا تلغى القومية العربية ، ولكنها تحررها وتطهرها وتعمل على تزكيتها وتنميتها وتقويتها لتقوم بدورها الذى ينتظرها فى خدمة الإنسانية ونشر مبادئ الإسلام ، وقد تحقق ذلك بالفعل ، وصدق فيهم وصف التوراة والإنجيل لهم قبل وجودهم مما يحكيه القرآن بقوله : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا سيماهم على وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار » .

نعم ، كان هذا العدد القليل ما زال يكثر ويغزر حتى عم الإسلام جميع الأحياء والأنحاء جزيرة العرب ، كالنبات يظهر قليلا فى الحقل ثم تنبت إلى جانب سيقانه فروع تنمو وتعلو وتمتد وتشتد وتستمد غذاءها من الأصول التى تنبت حولها حتى تستوى معها فى جذوعها وفروعها ويمتلى الحقل نضرة وثمارا وأزهارا ، وهذا ما كان من عمل الإسلام فى الأمة العربية وفى قوميتها ، فقد دخل العرب جميعا فى حياة جديدة على اختلافهم شعوبا وقبائل وصارت القومية العربية من المنعة والقوة والجمال فى القمة العالية من القوميات ، وكان ذلك كله بفضل النبى الأمى الذى بعثه الله فيهم « رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » وآية ذلك من واقع التاريخ أنه كان صلى الله عليه وسلم يغادر هذه الدنيا ويلحق بالرفيق الأعلى حتى استيقظت عوامل الشقاق والفرقة بين العرب وكاد يعود إليهم الداء الذى فرقهم شيعا تتطاحن وتتشاحن وهو داء الفرقة والمنافسة على الرياسة . فقد انقسم المسلمون فى شأن الخلافة ، بعد رسول الله إلى ثلاث فرق بل ظهرت بوادر هذا الخلاف على الخلافة قبل أن يدفن عليه السلام ، فقد بلغ عمر ابن الخطاب والمسلمون لا يزالون مشغولين بتجهيز الرسول أن الأنصار مجتمعون فى سقيفة بنى ساعدة لاختيار خليفة منهم فأنهى الخبر إلى أبى بكر وتوجها مع أبى عبيدة بن الجراح إلى مكان الاجتماع .

ثم دخل الثلاثة على الأنصار وقد أوشكوا أن يجتمع رأيهم على تعيين سعد بن عبادة الخزرجى خليفة للمسلمين ، وهم عمر أن يتكلم

فمنعه أبو بكر ، وتولى بنفسه الكلام فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه . نحن المهاجرون أول الناس إسلاما وأمسهم رحما برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلمنا قبلكم ، وقدمنا فى القرآن عليكم ، فأنتم إخواننا فى الدين ، وشركاؤنا فى الفىء ، وأنصار على العدو ، آويتم وواسيتم فجزاكم الله خيرا ، نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش . فلا تنفسوا على إخوانكم المهاجرين ما فضلهم الله به ، ولكن هذا المنطق السليم الحكيم لم يكن كافيا لإطفاء شعلة الحماسة للرياسة عند بعض الأنصار - ولهم قدرهم وعذرهم - فقد قام الحباب بن المنذر يعقب على خطاب أبى بكر فقال الانصار ، أبى هؤلاء إلا ما سمعتم ، فمنا أمير ومنهم أمير ، وهاج ذلك ثائرة عمر فقال : هيهات ، لا يجتمع اثنان فى قرن ، والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ، من ذا ينا زعنا سلطان محمد ونحن أولياؤه وعشيرته . . ؟ وقام الحباب بين المنذر مرة أخرى يهدر ويزمجر حتى وصل الموقف إلى أعلى درجات التوتر فتدخل أبو عبيدة ليلطفه وقال ، يامعشر الأنصار ، إنكم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من غير وبدل ، ووقعت هذه الكلمة من قلوب الأنصار موقعا عميق الأثر ، وكان أكثرهم تأثرا بها بشير بن سعد الأنصارى فقام يقول لقومه ، يامعشر الأنصار . إنا والله وإن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين وسابقة فى هذا الدين . ما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا ، فما ينبغى أن نستطيل على الناس ، ونبتغى من الدنيا عرضا . ألا . . إن محمدا من قريش وقومه أولى به ، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ، وبهذا انطفأت نار الفتنة وبويع أبو بكر بالخلافة ، ولكنه ما كاد يتولاها حتى اندلعت ألسنة الفتنة فى جهات أخرى . فاضطر إلى أن يسير الجيوش لردعها وقمعها ، فقد امتنعت بعض القبائل عن الزكاة وتمردت على خلافة أبى بكر ، وارتد البعض عن الإسلام ، وروى لنا التاريخ موقف أبى بكر مع معارضته أصحابه فى أول الأمر - فى حرصه وإصراره على قتال مانعى الزكاة مهما كان قدرها ، وقوله المشهور فى ذلك ، والله لو منعونى عقال بغير كانوا يؤدونه للنبى صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه ، ويلوح من الأقوال التى أثبتها الرواة لبعض هؤلاء المتمردين أنهم لم يتمردوا على الإسلام ، ولم يرتدوا عنه ، وإنما أنفوا من الخضوع لحكومة موحدة يديرها أبو بكر كقول شاعر منهم .

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا
فيا لعبا والله ما لأبى بكـــر
أيورثها بكرا إذا مات بعده
وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

وكقول مالك بن نويره لخالد بن الوليد حين ظفر به فى إحدى هذه الحروب ، إنه لا يزال على الإسلام لكنه لا يؤدى الزكاة لصاحبه « يعنى أبا بكر » .

كانت الدوله العربية إذا قد أوشكت أن تنهار وتعود إلى حياة الجاهلية الأولى بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، ولكن الله عصمها به حيا وميتا ، وقرن باسمه كل ما وصلت إليه من خير منذ عرفته وآمنت بدينه ، بل إن مولده عليه السلام كان بشيرا بعهد جديد مجيد للأمة العربية ، فقد كان فى عام حادث الفيل ، وهو الحادث الذى هز جوانبها بنشوة الفرح وملأها ثقة بعون الله ، والأمل فى نصره وتأييده ، فقد أقبل أبرهة الأشرم من اليمن بجيش كثيف ليهدم الكعبة ويصرف أنظار الحجيج عنها إلى المعبد الذى بناه بصنعاء ، ولكن الفيل الذى أحضره معه لم يطاوعه فى التوجه إلى الكعبة ، فكان كلما وجهوه إلى الحرم برك ولم يبرح ، وإذا وجهوه إلى غيره من الجهات هرول وأسرع ، ثم أرسل الله على المغيرين أسرابا من الطير ترميهم بحجارة صغيرة فاتكة مهلكة ، وكان ما يحكيه القرآن بقوله « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول »

كان مولده صلى الله عليه وسلم فى هذا العام ، فكان طالع يمن وخير وبركة على العرب ، بل كان قبل أن يولد ويوجد هو الأمل المرتقب ، منذ رفع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قواعد هذا البيت وقالا يدعوان الله « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » فإن كل ما وصلت اليه هذه الأمة من مجد وقوة وعلم وحكمة كان التفسير الكبير لقوله تعالى « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ، وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . »

عبد الرحيم فوده

ما يقال عن الإسلام

الشرق الأوسط في العصر الإسلامي

للأستاذ عباس محمود العقاد

لمؤلفه سدنى فيشر Sydney Fisher

كتاب فى نحو سبعمائة صفحة ، موضوعه تاريخ بلاد الشرق الأوسط وتاريخ العوامل الفعالة التى يرجع إليها تطور الشعوب والحوادث فى هذه البلاد ، وأولها الإسلام .

ومؤلف الكتاب هو الدكتور سدنى فيشر أستاذ التاريخ بجامعة (أوهيو) الأمريكية وصاحب الدراسات المتعددة فى شئون البلاد الشرقية التى يدين الأكثرون من أبنائها بالديانة الإسلامية .

ويدل أسلوبه فى عرض الآراء والوقائع على تورع عن العصبية واجتناب للتشهير . فهو يروى ما يفهمه من المصادر المتناقضة ويحاول أن يجردها من نزعات الأهواء ودسائس الأحقاد المذهبية والقومية ، وإذا وقع فى الخطأ المتواتر فإنما يقع فيه لأنه فى حكم الحقائق المجمع عليها بين المؤرخين ، فلا ينساق إلى الخطأ حبا لترديده ومرضاة لشهوة من شهوات الخفيظة فى نفسه ، ومعظم أخطائه من قبيل المطاوعة لحركة التواتر المطبق الذى يحتاج إلى الجهد الجهيد لمقاومته . وربما شق عليه هذا الجهد الجهيد فلم يتكلف له ما هو أهله من الصبر والدأب والارتفاع بالتاريخ فوق حجاب الحوائل التى تغطى ما وراءها من الأسانيد البينة ، وإنها لبينة جداً لو استطاع الناظر إلى تلك الحوائل أن يتخذ له منفذاً منها إلى الحقيقة .

يقول فى كلامه على صفة الإله : إن الوحدانية المنزهة هى أجل مطالب الإيمان عند النبى عليه السلام ، ويوصف الإله مع الوحدانية بصفات العلم المحيط والقدرة المحيطة والرحمة والكرم والغفران .

ولا يستطرد المؤلف إلى شرح الصفات الإلهية قبل أن يقول : إن توكيد صفات البأس

والجبروت فى كتاب الإسلام إنما تقدم فى أوائل الدعوة التى واجه بها النبى جماعة الكفار الملحدين من الملأ المكى المتغطرس المستطيل بالجاه والعزة ، ولكن المسلم يعلم من صفات الله أنه واسع الرحمة وأنه أقرب إلى الإنسان من حبل وريده ، وأنه هو نور السموات والأرض ، وهى الصفة التى بثت عقائد « الصوفية » بين المسلمين وكان لها أبعد الأثر فى اجتذاب العقول إلى معانيه الخفية .

ويقول المؤلف كما يقول غيره من كتاب العصر الغربيين : إن القرآن « صوت حى » ، يروع فؤاد العربى وتزداد روعته حين يتلى عليه بصوت مسموع ، ولكنه لا يفهم هذه الروعة كما لم يفهمها زملاؤه الذين سبقوه إلى الاعتراف ببلاغة القرآن اعتماداً على أثره البليغ فى قلوب قرائه وسامعيه ثم يقفون عند تقرير هذه البلاغة بشهادة السماع .

وبعد بيان مجمل عن بلاغة القرآن وأحكامه وعباداته يضيف المؤلف بيانا آخر فى مثل هذا الإجمال عن الفضائل الإسلامية التى احتواها الكتاب فيقول ما فحواه : إنه كتاب تربية وتثقيف ، وليس كل ما فيه كلاما عن الفرائض والشعائر ، وإن الفضائل التى يحث عليها المسلمين من أجل الفضائل وأرجحها فى موازين الأخلاق ، وتتجلى هداية الكتاب فى نواهيه كما تتجلى فى أوامره فلا يجوز للمسلم أن يشرب الخمر ولا أن يقامر ولا أن يعتدى ولا أن يستسلم للترف والرذيلة ، ثم يختم كلماته قائلا : « إننا إذا نظرنا إلى مجال الإسلام الواسع فى شئون العقائد الدينية والواجبات الدينية والفضائل الدينية لم يكن فى وسع أحد إلا أن يعتبر محمدا ـ عليه السلام ـ نبيا مفلحا جدا ومصلحا موفقا ، لأنه كما قال بعض الكتاب وجد مكة بلدة مادية تجارية تغلب عليها شهوة الكسب المباح وغير المباح ويمتلئ فراغ أهلها بمعاقرة الخمر والمقامرة ـ والفحشاء ـ ويعامل فيها الأرامل واليتامى وسائر الضعفاء كأنهم من سقط المتاع ، فإذا بمحمد ـ عليه السلام ـ وهو فقير من كل ما يعتز به الملأ قد جاءهم بالهداية إلى الله وإلى سبل الخلاص وغير مقاييس الأخلاق والآداب فى أرجاء البلاد العربية » .

* * *

إلا أن الخطأ المتواتر يتسلل إلى هذا الكتاب . وإلى سائر الكتب التى فى موضوعه . من مجاراة العرف وإحجام العقول عن اختراق الحجب المتكاثفة مع الزمن حتى لا يحسب أحد أنه بحاجة إلى اختراقها ، ولعله لا يرتاب فى قدرته على اختراقها لو أنه قد خطر له أنها تستر وراءها ما هو حقيق بالنفاذ إليه .

وشفيع المؤلف فى هذا الكسل ، أو هذا الاستسلام العقلى ، أنه ينساق إلى تلك الأخطاء المتواترة فى كلامه على المسيحية وعلى الإسلام بغير تفرقة بين ديانته التى يؤمن بها والديانة التى يفهمها من مصادره الغربية أو مصادرها الشرقية الميسرة للغربيين.

يقول بعد الإشارة إلى بعض المشابهات بين آيات القرآن وآيات الزبور على حسب فهمه : « والواقع أن اليهودية وفرعيها المنبثقين منها ـ المسيحية والإسلام ـ مشتركات فى كثير من الأمور وإن كان معظم التشابه فى العبارة دون الجوهر والمعنى » .

هذا الخطأ المتواتر هو الذى يعنينا فى هذا المقال من موضوعات ذلك الكتاب ، لأنه واجب التصحيح . وسهل التصحيح ، مع إطباقه على أذهان المؤرخين الغربيين ذلك الإطباق الذى يوشك أن يشل تلك الأذهان عن الحركة المهيأة لها فى غير هذا الموضوع .

وأساس الخطأ كله اعتقادهم أن اليهود هم مصدر العقائد الدينية التى احتوتها التوراة ، وأنهم هم الذين تلقوا وحيها لأول مرة من أنبيائهم غير مسبوقين إليها فيما سلف ... وقد سلف قبلهم ، وفى عهود أنبيائهم ، كثير من الرسالات والعقائد مذكورة أو ملحوظة فى القرآن الكريم وليس لها ذكر فى أسفار التوراة .

والأمر لا يحتاج إلى عناء لإظهار وجوه الخطأ فيه ، فإن مراجعة التوراة أيسر مراجعة ترينا أن اليهود تلقوا أهم العقائد الكونية وأهم التعاليم الشرعية ممن تقدم أنبياءهم فى الزمن ، بل من الشعوب التى عاشوا بينها وكان فيها أناس من أتباع الرسل الأقدمين .

فإلى أى نبى من أنبياء بنى إسرائيل يسند اليهود عقائدهم فى سفر التكوين وهو جماع عقائدهم الكونية ؟

إن التوراة الباقية إلى اليوم تبتدىء بسفر التكوين ولا تسنده أحد من أنبياء بنى إسرائيل ، ولا حاجة بعد ذلك إلى القول بأن عقائده سابقة للنبوءات الإسرائيلية وأن اليهود تعلموه من حيث يستطيع كل من شاء أن يتعلمه أو ينقله عن مصادره الأولى ، سواء كانت من وحى الأنبياء الأسبقين أو من تراث الشعوب الموروث عن الأسلاف .

وتأتى أسفار الشريعة بعد سفر التكوين وليس منها ما هو مسند إلى نبى قبل موسى عليه السلام ، ولكننا نقرأ فى هذه الأسفار أن الكليم كان يتعلم التبليغ من نبى عربى تسميه التوراة يثرون ، فيقول الإصحاح الرابع من سفر الخروج إنه : « رجع إلى يثرون وقال له : أنا أذهب وأرجع إلى أخوتى فى مصر » .

ويقول الإصحاح الثانى عشر إن يثرون كان يصلى ببنى إسرائيل فى عهد موسى ومنهم اخوه هارون : « وإن يثرون أخذ محرقة وذبائح لله ، وجاء هارون وجميع شيوخ إسرائيل ليأكلوا طعاما مع حمى موسى أمام الله » . . . فقد كان يثرون - إذن - يقرب القرابين ، ويقيم الشعائر ، ويدعو الله بدعائه الذى دان به قبل بعثة الكليم ، ويتبعه موسى وهارون وشيوخ إسرائيل وصفوة الشعب الإسرائيلى أجمعين .

فأعجب العجب بعد ذلك أن يقرأ المؤرخون هذا فى كتب التوراة ثم يلج بهم الإصرار على أصالة اليهودية ، واعتبار المسيحية والإسلام فرعين من هذه الشجرة لا ينبتان على غير جذورها ، وهى كما رأينا فرع من أصل قديم بل فى عدة أصول .

على أننا نرجع إلى العقائد الإسلامية فلا نرى بينها عقيدة واحدة تتفرع على عقائد اليهود ، كما دانوا بها من قبل ، ويدينون بها إلى هذه الأيام .

وليس أبعد من الفارق بين العقائد الإسلامية والعقائد اليهودية كما تناقلوها عن التوراة والتلمود فى كل أصل من أصول الإيمان عن الله أو عن النبوة أو عن الحساب والعقاب .

إن الله عند بنى إسرائيل إله قبيلة واحدة يختصها بحظوته ، ولكن الله فى الإسلام هو إله الخلق أجمعين لا يفضل أحدا منهم على أحد بغير التقوى والصلاح .

وإن النبوة عند بنى إسرائيل صناعة خوارق وكشف عن الخفايا والمفقودات ، ولكن النبوة فى الإسلام رسالة هداية وتعليم ، وبلاغ إلى العقل والضمير ، يقنع الناس بالبينات والآيات ولا يجعل الإقناع موكولا إلى التهويل بالخوارق والمعجزات .

وإن الحساب عند بنى إسرائيل يأخذ الأبناء بذنب الآباء ويلحق الجزاء بالخلف البعيد انتقاما من جنايات الأجداد والأسلاف ، ولكن الحساب فى الإسلام لا يأخذ إنسانا بجريرة إنسان ولا تزر وازرة وزر أخرى .

وليس فى الإسلام سلطان للمعبد وكهانه على العباد الذين يصلون إليه فى كل مكان تحت السماء ويعلمون أنهم أينما كانوا فثم وجه الله ، ولكن « الهيكل » فى اليهودية هو الذى يتقبل القربان من عباده فلا يحسب لهم قربان بغير وساطة الكهان والأحبار .

فكيف تكون هذه العقائد فرعا على تلك الشجرة وهى تخالفها تلك المخالفة فى أصول الديانة وحقائق الإيمان بالربوبية والنبوة

البقية على ص ٣٨٥

وعاد سر النورْ لأفقه المسحورْ
فى ظل أسمى مكانْ
فجددوا ذكراه فى كل يوم نراه
وليس فى كل عامْ
واستمسكوا باليقينْ وفى الضياء المبينْ
سيروا مع الأيامْ
لعلنا أن نعيدْ أمجادنا من جديدْ
بعد البلى والفناءْ

ابراهيم محمد نجا

(بقية المنشور على ص ٣٨٠)

وموازين الحساب والتكليف وحرمات العبادة والتقديس .

إن جاز التشبيه بالأصول والفروع فقد يجوز أن يقال إن الإسلام شجرة أخرى تحمل الثمرات التى حملتها اليهودية بعد تهذيب وتجويد ، وإن ثمرات الشجرة الإسلامية لا تحملها تلك الشجرة ولا يتأتى أن تحل فيها محل الفروع من الجذور .

ولكن لا يجوز أن يقال إن اليهودية كانت جذرا أصيلا للعقائد الإسلامية ولو كانت هى المصدر الوحيد للعقائد المشتركة بين الديانتين ، فإذا علمنا أنها قد تفرعت على ما تقدمها ولم تكن جذرا لما تلاها فلا ندرى ما هو وجه التأصيل هنا والتفريع بأى معنى من معانى الأصول أو معانى الفروع .

وهذه هى طبيعة الأخطاء المتواترة فى بقائها وإطباقها على العقول ، وهى كذلك طبيعتها فى سهولة الاهتداء إلى موضع الشبهة منها إذا أعيدت إلى طبقتها الأولى ، ولا داعية إلى الأمعان فى العودة إلى ماهو أبعد من الصفحات الأولى فى أسفار التوراة .

إن المؤرخ الغربى ، وهو على اعتقاده الدينى . لا يطالب بإيمان المسلم فيما اعتقد من ربوبية أو نبوة أو تكليف ، ولكنه مطالب عند البحث فى التطور الطبيعى أن يمسك عليه عقله وأن يترفع به عن قبول الباطل البين فى جلائل المسائل ، وهى مسألة العقيدة والإيمان .

وليس من الحلال فى شرعة العقل ، كائنا ما كان دين العاقل ، أن يقيم الشجرة الباسقة على منبت الفرع المبتور ؟

عباس محمود العقاد

فى سبيل الوطن

مسرحية وطنية فى فصل واحد

للأستاذ ابراهيم محمد نجا

بقية ما نشر فى العدد الماضى

المشهد الثانى

« نفس الحجرة السابقة . . . الأم تستأنف عملها . . يطفأ المسرح رويدا . . موسيقا تصور انتقال الأم من اليقظة إلى النوم . . . فى الحلم يظهر طيف ابنها عادل » .

الطيف : أماه

الأم : من ؟

الطيف : أنا عادل

الأم : رباه . . ابنى عادل !

« تتقدم إليه لتعانقه »

الطيف : أماه لا تتقدمى إنى خيال ماثل

الأم : ولدى

الطيف : نعم أماه

الأم : كيف تعيش فى تلك العوالم ؟

الطيف : عيشة الأبرار
فى ظل نعماء الإله وبره
وجواره الفياض بالأنوار

الأم :
حمداً له . . الآن تذهب حسرتى
وتنام أحزانى ، وتهدأ نارى

الطيف :
أماه جئت الآن أعلن رغبتى
فى أن ينال أخى الذى يبغيه

الأم : أو قد سمعت حديثه ؟

الطيف : وعرفت رغ
بتـه ، ويرضينى الذى يرضيه
ولكم يسر أخى إذا وافقته
ولكم أسر ببسمة من فيه

الأم :
ولدى حسبتك ناصرى فى محنتى
وحسبت أنك لا تريد شقائى

فأتيت تطلب ما يزيد لجيعتى
نارا ، وما يغرى الأسى ببكائى
« تنهار باكية »

الطيف :

إنى لأعلم أن ذلك موقف
صعب على قلب كقلبك مرهف
ولقد حزنت لمصرعى وبكيتنى
بالدمع كالنار التى لا تنطفى
حتى تذكرت الإله وعدله
فرجعت للصبر الكريم المنصف
ووهبت نفسك للصلاة ، وعندها
تنجاب غاشية الهموم وتختفى

الأم :

إنى لأشفق أن يكون مصيره
ما ذقته من عصبة الأوغاد
قتلوك

الطيف :

لكنى قتلت جموعهم
فحميت من بغى اللئام بلادى
قتلوا وما نالوا سوى إخفاقهم
وقتلت منصورا فنلت مرادى
وأتوا من الدنيا بميسم خزيهم
وأتيت أحمل شارة استشهادى
فلقيت عند الله حسن جواره
كرما ، وباءوا منه بالإبعاد

الأم :

أبنىّ إن أخاك منذ قتلت لم
يسعد بلذات الحياة وينعم
مازال يطلب عند أعداء الحمى
ثأرا . لمصرعك الممض المؤلم

الطيف :

أماه لسنا إذ نحارب نبتغى
ثأرا لمن قتلوا من الأبطال
إنا ندافع عن مبادئنا التى
نبنى بها حرية الأجيال
أشخاصنا تفنى ، ليسعد بعدها
بخلوده الوطن العزيز الغالى

الأم :

ولدى ... تذكر أننى أم لها
حق على أبنائها لا يُنكرُ

الطيف :

وتذكرى أماه أنا أمة
تبنى الحياة كما تريد ، وتعمرُ
بجهود أبناء كرام ، عزمهم
يملى على التاريخ وهو يسطر
جعلوا الحياة رخيصة من أجلها
فاستبسلوا يوم النضال وكبروا
لولاهمو لعنت لبغى عداتها
ولظل يحكمها الفساد الأكبر

الأم :

أنا لست أطلب منه غير وسيلة
أخرى تؤدى الواجب المطلوبا

حاشاى أن أرضى له بنقيصة
يبقى بها طول الزمان معيبا

الطيف :

لكنه أدرى بما يختاره
وبما يلائمه من الأعمالِ
وهبيه آثر ما أردت ، وأقبلت
زمر الفساد ، وعصبة الضلال
أترينه متخلفا عن حربهم
مهما يكن فيها من الأهوال ؟
إنى لأعرفه يريد حياته
ملأى بكل عزيمة ونضال
هو من شباب عاش أروع حقبة
من عمره مع ثورة الأبطال
فدعيه يصنع ما يريد ، فكم له
فى صنعه من قدوة ومثال

الأم :

لك ما تشاء ، ولى رجاء صادق
ألا تسير بى الحياة طويلا
فيجيئنى النبأ المروع مرة
أخرى ليقتلنى أسى وعويلا

الطيف :

أماه ... إن حياتنا هى رحلة
تمضى ؛ لنبلغ عالما مجهولا
فإذا بلغناه التقت أرواحنا
ورأت لديه نعيمها المأمولا
والآن يا أمى وداعا ، ولتكن
نعمى اللقاء من الفراق بديلا

« يختفى الطيف ... يضاء المسرح رويداً رويدا . . الأم تستيقظ من نومها ... ثم تتلفت حولها وتهتف » .

الأم :

رباه . . هل أبصرتُ ما أبصرته
فى يقظة ، أم كان طيف منامِ ؟

« يدخل عصام فى هذه اللحظة »

الأم :

ولدى عصام . . وجدت رأيك صائبا
وعرفت أنك فوق كل ملام
سر فى طريق أخيك . . إن طريقه
مجد الحياة ، وعزة الأيام
بالأمس يا وطنى سمحت بعادل
واليوم أسمح بالوحيد عصام

(ستار) .

ابراهيم محمد نجا

من وحى المـــولد :

نور على الصحـراءْ ينساب فى الظلمـاءْ
كرنة القيثارْ
معطر الأنغـــام كأنه أحـــلامْ
سحرية الأسرارْ
حنت إليـه البيـدْ كطائر غريدْ
يهفو إلى الينبوعْ
واهتز قلب الوجودْ من سحر هـذا النشيدْ
وسار فيه الربيعْ
من أين جاء النورْ ؟ من عالم منظورْ ؟
أم عالم فى الخفاءْ ؟
من روعة البدر وطلعـة الفجـرِ
على الربا الفيحاءْ
من كل شىء جميـــلْ كالروض عنـد الأصيل
والبحر عنـد المغيبْ
لمـا أراد الإله إشراق وجـه الحياهْ
بعد الظلام الرهيبْ
ألقى إليهـا الضياءْ من عالم فى السماءْ
ومن مـكان طهورْ
أهـداه مهـدى الحيـاهْ من نوره ما اشتهـاْ
ليهـدىَ الأرواحْ
شريعـة غراءْ النـاس فيهـا سواءْ
لا سيد أو مسودْ
لا ظلم . . . لا ظـالمينْ وتردع الآثمين
إذا تمادوا .. حدودْ
لكل داء دواءْ فيهـا ، وفيهـا العـزاءْ
لكلِ روح شرودْ

وعاد سر النورْ لأفقه المسحورْ
فى ظل أسمى مكانْ
فجددوا ذكراه فى كل يوم نراه
وليس فى كل عامْ
واستمسكوا باليقينْ وفى الضياء المبينْ
سيروا مع الأيامْ
لعلنا أن نعيدْ أمجادنا من جديدْ
بعد البلى والفناءْ

ابراهيم محمد نجا

(بقية المنشور على ص ٣٨٠)

وموازين الحساب والتكليف وحرمات العبادة والتقديس .

إن جاز التشبيه بالأصول والفروع فقد يجوز أن يقال إن الإسلام شجرة أخرى تحمل الثمرات التى حملتها اليهودية بعد تهذيب وتجويد ، وإن ثمرات الشجرة الإسلامية لا تحملها تلك الشجرة ولا يتأتى أن تحل فيها محل الفروع من الجذور .

ولكن لا يجوز أن يقال إن اليهودية كانت جذرا أصيلا للعقائد الإسلامية ولو كانت هى المصدر الوحيد للعقائد المشتركة بين الديانتين ، فإذا علمنا أنها قد تفرعت على ما تقدمها ولم تكن جذرا لما تلاها فلا ندرى ما هو وجه التأصيل هنا والتفريع بأى معنى من معانى الأصول أو معانى الفروع .

وهذه هى طبيعة الأخطاء المتواترة فى بقائها وإطباقها على العقول ، وهى كذلك طبيعتها فى سهولة الاهتداء إلى موضع الشبهة منها إذا أعيدت إلى طبقتها الأولى ، ولا داعية إلى الأمعان فى العودة إلى ماهو أبعد من الصفحات الأولى فى أسفار التوراة .

إن المؤرخ الغربى ، وهو على اعتقاده الدينى . لا يطالب بإيمان المسلم فيما اعتقد من ربوبية أو نبوة أو تكليف ، ولكنه مطالب عند البحث فى التطور الطبيعى أن يمسك عليه عقله وأن يترفع به عن قبول الباطل البين فى جلائل المسائل ، وهى مسألة العقيدة والإيمان .

وليس من الحلال فى شرعة العقل ، كائنا ما كان دين العاقل ، أن يقيم الشجرة الباسقة على منبت الفرع المبتور ؟

عباس محمود العقاد

الكتب

نقد وتعريف

١ — تقويم الفكر الديني وصلته بالقومية العربية

من مطبوعات مكتبة الأنجلو بالقاهرة

مؤلف الكتاب هو الأستاذ محمود الشرقاوى سكرتير تحرير مجلة الأزهر

قدم الأستاذ الشرقاوى بتمهيد لكتابه تناول فيه أسس القومية العربية كما يجب أن تقوم ، والعلاقة بين مصر والحضارة الأوربية كما أرادها الخديو إسماعيل ، ثم كتب الورق الأصفر ، كينبوع من الينابيع الحلوة الفياضة وركن من أركان ثقافتنا وقوميتنا .

ثم جاء الكتاب بعد ذلك فى فصلين طويلين :

فى الأول منهما عرض لسير التشريع منذ الدولة العثمانية وفى عهد إسماعيل ، ثم فى مصر الحديثة ثم فى القرن العشرين ، وكيف حدثت فيه تطورات استلزمتها تطورات المجتمع نفسه وحاجياته ، ثم عقب بأن هناك طريقين لا ثالث لهما : المسايرة أو المكابرة ، والنهاية التى ينتهى إليها كل طريق واضحة ، وليس أمام رجال الدين إذن إلا أن يسيروا مع الحياة مع الاحتفاظ بجوهر رسالاتهم وغاياتها — لا أن يحاولوا تعويقها أو التصدى لها .

وفى هذا الفصل تحدث عن المذهبية والتقليد . وأكد أن التقليد لا يمت إلى الإسلام بصلة ، وعن الحجر والحرية ، وأنه لا خطر على الدين والدولة من الحرية وإنما الخطر كل الخطر من الحجر على التفكير ، كما أن الحرية لا يمكن أن تضعف العقيدة لأن حرية التفكير مقوم من مقومات العقيدة ، ولكن هناك فرقا بين الحريه المطلقة والحرية المعتدلة ، فالأخيرة تتفاعل فى حدود المنطق والعقل وليست كذلك الأولى .

أما الفصل الثانى : فقد ناقش فيه الأستاذ الشرقاوى قضايا التطور وروح الشريعة ، والاجتهاد كمبدأ مقرر فى الشريعة . وأنه باب لم يقفل وسيظل مفتوحا على مصراعيه إلى الأبد ، وقضية المرأة ، الأسرة . وضرب أمثلة كثيرة من الشريعة فى مسايرتها ومطاوعتها . وفى نهاية الفصل عقد بحثا عن محنة العقيدة ، وأنها كانت ولم تزل معرضة للأخطار ، واهتم بالعقيدة المسيحية ما لاقته وما تلاقيه

من الأهوال ، ما لاقته على أيدى أمثال فولتير ونيتشه وجرأتهما على مقدساتها ، وتوماس بين من قبل فى كتابه عصر العقل ، وأوجست كونت فى فلسفته التى أقامها على أن المسيحية قد استنفدت أغراضها ، ثم ما نلاقيه الآن على أيدى الشيوعية فى أوطانها والإلحادية فى شتى البلاد .

والذى لاشك فيه أن الأستاذ الشرقاوى فى كتابه هذا أجهد نفسه وذهنه وقدم لنا خلاصة من الثقافة الفكرية الإسلامية لاسيما حين تعرض لحرية التفكير وقضية الاجتهاد والتقليد ، وحين قدم أمثلة حية لمسايرة التشريع الإسلامى لحاجيات المجتمع ، وأمثلة حية من فقه أعلام الفكر الإسلامى .

ولكننا نود أن نتساءل : لم أراد أن يكون عنوان كتابه (تقويم الفكر الدينى . . وصلته بالقومية العربية) مع أن الكتاب لم يتناول القومية العربية إلا فى بضع صفحات فى أوله ، ومع أن مهمة تقويم الفكر الدينى يجب ألا تكون إقليمية ، حيث أن هذا التفكير الدينى فى حاجة إلى التقويم فى شتى بلاد المسلمين .

وفى صفحة ٤٠ قال الأستاذ الشرقاوى : ليس أمام رجال الدين إذن إلا أن يسيروا هم مع الحياة ـ مع الاحتفاظ بجوهر رسالاتهم وغاياتها ـ لا أن يحاولوا تعويقها أو التصدى لها . . . فإنها فى هذه الحال ستتخطاهم وتتركهم . . »

الأستاذ الشرقاوى يقصد برجال الدين : « رجال الفكر الدينى » ، ولكن الذى أتساءل عنه : ماذا يقصد بأن « يسير رجال الدين مع الحياة مع الاحتفاظ بجوهر رسالاتهم وغاياتها » ، كنت أود أن يضيف كلمة « الصحيحة » إلى كلمة « الحياة » ، أما الحياة مجردة وفى هذه الانطلاقة الهوجاء فلا يمكن لرجال الفكر الدينى أن يسيروا معها مع الاحتفاظ بجوهر التشريع وغاياته .

وفى التمهيد للبحث ذكر الأستاذ الشرقاوى « إن القومية العربية من الممكن أن تكون وسيلة للوحدة الإسلامية . وفى الظروف القائمة الآن من الاعتبارات ما يجعل تحقيق الوحدة الإسلامية أمراً بعيد التحقيق فى المستقبل القريب » ، ونحن نعتقد أن الوحدة الإسلامية التى يريدها الإسلام قائمة على أسس متينة ليست أمرا بعيد التحقيق ، والمسألة لا تحتاج إلى أكثر من أن يحسن النيات من بأيديهم نواصى الأمور فى شتى البلاد الإسلامية ، أما الاعتبارات التى لم يوضحها المؤلف فمشهورة وهى مجرد وهم لا يمت إلى الحقيقة بصلة .

وفى نهاية الكتاب تحدث الأستاذ الشرقاوى عن محنة العقيدة ، ولكنه لم ينوه إلا بالعقيدة

المسيحية السابقة والحاضرة ، وموجات الإلحاد التى سلطت وتسلط الآن عليها ، ولست أدرى هل لايعتبر الأستاذ أن العقيدة الإسلامية مرت وتمر الآن بمحنة حتى فى بعض فى بعض البلاد الإسلامية نفسها ، وإلا فالمحنة التى أصابت وتصيب الآن العقيدة الإسلامية من الشهرة والوضوح بحيث لاتحتاج إلى مجرد ذكرها . .

هذه مجرد ملاحظات ، ويبقى الكتاب بعد ذلك دراسة طيبة صال وجال فيها الأستاذ الشرقاوى مساندا حرية الفكر وسعة الأفق .

* * *

٢ — منهج التربية الإسلامية . مطبوعات دار القلم بالقاهرة

قدم الأستاذ محمد قطب لكتابه ببحث موجز عن الوسائل والأهداف فى مناهج التربية ، وذكر أن منهج التربية الإسلامية منهج متميز منفرد فى وسائله وأهدافه بشكل ظاهر لافت للنظر .

ثم فى الحديث عن خصائص المنهج الإسلامى وأنها : الشمول للكيان البشرى كله ومسايرة الفطرة والتوازن والإيجابية السوية والواقعية المثالية ، ولتوضيح وشرح هذه الخصائص قدم دراسة عن منهج لعبادة وتربية الروح والعقل والجسد . وأوضح فى هذه الدراسة ترابط الكامل بين جوانب الكيان البشرى فى حقيقة الواقع وفى منهج الإسلام .

وفى الفصل التالى تحدث الأستاذ محمد قطب عن الخطوط المتقابلة فى النفس البشرية ، فالروح والعقل والجسد خطوط عريضة واسعة المدلول ، ولكن فى النفس البشرية إلى جانب ذلك خطوطا دقيقة أو قل أوتارا دقيقة ، والإسلام يوقع عليها جميعا أنغامها المناسبة فى آن واحد ، ليستخلص منها السيمفونية ، البشرية الكاملة المتناسقة الألحان ، هذا وقد ذكر من هذه المتقابلات : الخوف والرجاء ، والحب والكره ، والواقع والخيال ، والحسية والمعنوية ، والفردية والجماعية ، والإلزام والتطوع ، ثم السلبية والإيجابية .

وفى الفصل الثالث تحدث عن وسائل التربية وذكر ألوانا منها : القدوة والموعظة والعقوبة والقصة والعادة ، وتفريغ الطاقة وملء الفراغ والأحداث ، وفى الفصل الرابع تحدث المؤلف عن المجتمع السليم وأنه الهدف الأخير من التربية الإسلامية ، وأنه الأداة الموصلة إلى تثبيت المفاهيم الإسلامية ، وفى الفصل الخامس تحدث عن ثمرة التربية وأنها تتلخص فى إيجاد إنسان صالح يعيش

بأقصى طاقته فى عالم الواقع ويحاول فى الوقت ذاته أن يحقق المثال. ثم ختم الكتاب ببحث موجز عن الواقع والمثال. فالإسلام لا يلزم الناس بصورة مثالية معينة، وإنما يطلب إلى كل إنسان أن يبلغ حدود الكمال الممكن فى حدود الإطار المثالى العام.

والكتاب بعد ذلك فى مجموعه دراسة شاملة للتربية الإسلامية، بذل المؤلف فيها جهدا مشكورا إلا أن هذه الدراسة كانت فى حاجة إلى الدقة فى التخطيط والتنسيق لإبراز عناصر البحث الفرعية، كما أن المؤلف فى بعض الأحايين كان يعمد إلى عدد عديد من الآيات استغرقت فى بعض الأحيان صفحات دون أن يكلف نفسه محاولة الربط بينها.

٣ ـــ جهود المسلمين فى الجغرافيا مطبوعات الألف كتاب :

مؤلف الكتاب هو أستاذ الجغرافيا بالكلية الإسلامية بكلكتا بالهند، وقام بالترجمة الأستاذ محمد فتحى عثمان أحد كتاب مجلة الأزهر، وكتب بحثا تمهيديا فى المقدمة عن سعة اطلاع وتوافر الإلمام بالموضوع الذى ترجم له، جاءت هذه المقدمة فى صفحات عشر ولكنها كانت ـ بحق ـ مفتاحا لدراسة موضوع الكتاب. وأبانت أن للمسلمين السابقين جهودا فى شى ميادين العلم، ولكن الجيل الإسلامى المعاصر لا يكاد ـ إلا القلة النادرة ـ يفهم أو لا يحاول أن يفهم عنها شيئاً. والكتاب يقع فى فصول خمسة. فى الأول نظرة عامة على الموضوع. وفى الثانى سجل للجغرافيين المسلمين ومدى ما أحرزوه من تقدم فى المفاهيم الجغرافية. وفى الثالث معرض لفن الخرائط الجغرافية لدى المسلمين، وفى الرابع مآثر المسلمين فى الجغرافيا الفلكية، وفى الخامس والأخير أثر هذه الجهود فى النهضة العلمية الحديثة فى الغرب.

إن الذى يقرأ هذا الكتاب يسر من جانب، ويتألم من جانب آخر:

يسر حين يقرأه لأنه يضم إلى ثقافته وإلى مكتبته لونا من المعرفة جديدا. ولأن جوانحه ستهتز طربا وفخرا، حيث إن للمسلمين السابقين جهوداً فى ميادين الفكر اعترف بها الغرب على ما فيه من اعتداد وغرور.

ويتألم القارئ ويتأسف لأنه يرى أن جهود المسلمين السابقين فى ميادين الفكر لم يهتم بها إلا علماء الغرب، وهذا الأسف أبداه المؤلف نفسه فى فاتحة كتابه حيث يقول:

«لا يزال تاريخ الفكر الجغرافى عند المسلمين فى حاجة لأن يكتب، وإن تعددت المحاولات للتعرف على مدى الجهود التى بذلها المسلمون فى ميدان الجغرافيا وتقديرها، ونذكر فى هذا الصدد أعمال بعض المستشرقين الغربيين

ممن هم فى مستوى (رينو ودى جويه ونالينو وسخاو وبارتولد ولى سترينج وكريمو ومينورسكى) فقد أعان هؤلاء على كشف الجوانب المتعددة مما قدمه المسلمون فى سبيل التقدم العام للفكر الجغرافى والمعرفة الجغرافية».

الكلبى والكندى والخوارزمى واليعقوبى والمروزى والبلاذرى وابن رسته وقدامة ابن جعفر وأبو دلف والأصطخرى والبلخى والمهلبى البيرونى والعبدرى وابن جبير والإدريسى وياقوت الحموى وعشرات من أمثال هؤلاء العلماء المسلمين الأفذاذ أسدوا إلى العلم والفكر جهودا مشكورة مرموقة ولكن آثارهم لم يعن بها ويكشف عنها إلا علماء الغرب، والذى ندعو إليه ونعتبره واجبا متقدما على إدارة الثقافة الإسلامية بالأزهر أن تؤلف لجنة لإحياء هذا التراث العلمى الضخم، ليكون فى متناول الجميع، ودليلا على أن المسلمين الأولين فى شتى ميادين العلم والفكر جهودا ضخمة لها أثرها فى الشرق والغرب، وقد ساهمت إسهاما فعليا فى تقدم الإنسانية.

إن تقديرنا لهذا الكتاب ومؤلفه الذى بذل جهدا مشكورا، يجعلنا نقدر جهد الأستاذ فتحى عثمان المترجم، لأن تعليقاته على الكتاب كانت ضرورية، أضفت إلى معلومات الكتاب وضوحا، أو زادت عليها معلومات جديدة.

٤ — التشريع الإسلامى وأثره فى الفقه الغربى

منشورات المكتبة الثقافية بوزارة الإرشاد

أستاذنا الدكتور محمد يوسف موسى المستشار الدينى لوزارة الأوقاف من الأعلام المبرزين فى موضوع هذا البحث.

تناول الدكتور نشأة التشريع الإسلامى وتدرجه فقال إن عماده كان القرآن والسنة خلال سنوات البعثة وما بعدها إلى نهاية القرن الأول الهجرى، حيث أضيف إلى هذين الأصلين: الإجماع والقياس، وفى دور النضج والكمال منذ أوائل القرن الثانى نشأ الاجتهاد ونشأت معه المذاهب الكبرى، وأقفل بعد ذلك باب الاجتهاد فى منتصف القرن الرابع وبدأ دور التقليد، واستطاع ابن تيمية وتلميذه ابن القيم أن يثورا عليه، ويفتحا معا باب الاجتهاد من جديد، ثم من بعدهما أبو محمد بن عبد الوهاب الذى ظهرت حركته فى نجد فى القرن الثانى عشر.

ثم تناول الدكتور أصول التشريع وأسسه العامة وطبيعته وخصائصه، كما تناول وضع التشريع الإسلامى بالنسبة للقانون الرومانى ودحض الفرية القائلة بأن التشريع الإسلامى

تأثر بالقانون الرومانى مستعيناً بآراء بعض المستشرقين المنصفين من أمثال «فنزجيرالد» وبعد ذلك تناول الدكتور وضع القانون الفرنسى بالنسبة للتشريع الإسلامى حيث أكد تأثر الأول بالأخير ، وساق حججا من القوة بمكان .

وفى آخر البحث تحدث الدكتور عن مستقبل التشريع الإسلامى : حاله بالأمس القريب ، وحاله اليوم ، وكيف نصل إلى مانريد ، وهل أصبح الاجتهاد ضروريا ؟

يقول الدكتور : إن كل ما نريده هو أن يكون التشريع الإسلامى مصدرا أول لتشريعاتنا الحديثة ، ولا علينا أن نفيد من كل خير نجده فى التفكير القانونى لأية أمة أخرى ، ثم قال عن الاجتهاد : (لا بد من فتح باب الاجتهاد فى الفقه ، لأن الجمود على القديم من سمات الموت) .

إن أستاذنا الدكتور قدم فى هذا البحث خلاصة قيمة عن التشريع الإسلامى ، ولا ريب فى أن القارئ سيجد نفسه أمام بحث مركز يفيد منه كثيراً .

إلا أننا كنا نود من أستاذنا أن يكون بحثه تطبيقا لعنوان كتابه الذى اختاره له ، وهو عنوان يحتاج إلى مجلد ضخم ، نحن فى مسيس الحاجة إليه ، ولكن الذى حدث أن نصيب العنوان من البحث كان بضعا وعشرين صفحة من مائة وثمان وعشرين صفحة .

محمد عبد الله السمان

ملاحظات على كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار

نشرت كلية الآداب بجامعة الإسكندرية كتاب (الاستبصار فى عجائب الأمصار) لمؤلف مجهول . نشر وتعليق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد مدرس التاريخ الإسلامى بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية فى (٢٥٢) صفحة غير المقدمة والتصويبات . وألحقت به ترجمة فرنسية فى (٩٠ صفحة) ولا أريد هنا أن أعرض لجميع ما فى الكتاب من مآخذ . بل سأكتفى بأهم الملاحظات التى وجدتها وذكر الأخطاء فى التعليق .

١ — ص ٤ — س ١٧ — تعليقة الدكتور رقم ٢ (الحرمان) صوابها (الحرمين) .

٢ — ص٧ — تعليقة رقم ٥ — ذكر الناشر أن (أيام التشريق) هو الاسم الذى تعرف به الأيام العشرة الأولى من ذى الحجة .

٣ — ص ٩ — هامش ٦ — ذكر الدكتور ما نصه عن الصفا والمروة (فبينهما يجرى طقس من أهم طقوس الحج والعمرة ألا وهو السعى) ولست أدرى ماذا كان يضير الدكتور لو استعمل تعبير القرآن الكريم فقال (شعيرة من أهم شعائر الحج) هذا مع ملاحظة أن كلمة (طقس) لم ترد لا فى لسان العرب ولا فى تاج العروس شرح القاموس .

٤ — ص ١٠ هامش ٥ — كلمة (المسجد) صوابها (البيت) فالكلام عن الكعبة المشرفة وليس عن المسجد الحرام وقد تكرر هذا فى ص ١٥ — هامش ٢ .

٥ — ص١١ — س ٧ — (٢٩ ذراعا) صوابها (١٩) فقد مر أن طول الجدار الخارجى ٢٧ ذراعا فى الصفحة السابقة وأنه من الداخل ينقص مقدار السلم ، فيجب أن يكون (١٩) لا (٢٩) ولا يمكن اعتبار هذا من الأخطاء المطبعية فقد ورد نفس الرقم الخطأ أى (٢٩) فى ص ٧ من النص الفرنسى .

٦ — ص١٨ — س ٢ (اللهم إيمانا بك).

٧ — ص ١٨ — هامش ٢ — ذكر الأستاذ نقلا عن ياقوت فى معجم البلدان عند الكلام على الحجر (بكسر فسكون) ما نصه : (ولقد أحاطوه بحائط من حجر ولذلك سمى الحجر) وهذا خلط عجيب فكلمة (حجر) بفتحتين لا علاقة لها (بالحجر) بكسر فسكون . والذى فى معجم ياقوت هو (وحجرت على الموضع (يعنى قريشا) ليعلم أنه من الكعبة فسمى حجراً لذلك) وفرق كبير بين هذا وبين ما زعم الناشر أنه منقول عن ياقوت .

٨ — ص ٢٣ — س ١١ وفى المسجد الحرام (أربع أئمة) صوابها (أربعة) بزيادة تاء المربوطة فهم رجال .

٩ — ص ٢٤ تكلم الناشر فى الهامش ٤ عن الميل الأخضر باعتباره يبين حدود الأرض الحرام مع أن الميل المذكور فى الصلب هو الخاص بابتداء الهرولة فى السعى ولا شأن له بحدود الحرم .

١٠ — ص ٢٤ ذكر المؤلف أن أبواب الحرم (١٧ بابا) وعند بيانها لم يذكر سوى (١٤) وكان ينبغى للناشر الإشارة إلى ذلك فى أحد هوامشه الكثيرة .

١١ — ص ٣٠ هامش ٣ — قال الناشر (فالملاك جبريل الخ) والذى فى اللغة (فالملك) بدون الألف .

١٢ — ص ٣٠ هامش ٤ — ذكر الناشر ما نصه (وإلقاء الحصيات من مناسك الحج والعمرة الرئيسية) قلت : هذا وهم فرمى الجمار من مناسك الحج فقط — وأما

العمرة فهى طواف وسعى بلا رمى جمار .

١٣ — ص ٣١ — س ٤ (ولا ذم عليه) صوابها (دم) بالدال المهملة أى ذبيحة ولا شأن بالذم ضد المدح هنا .

١٤ — ص ٣١ هامش ـ ٢ ـ عند الكلام على (مزدلفة) ذكر الناشر ما نصه (وهو المكان الذى يقف فيه الحاج ليلة وقفة عيد الأضحى) وهنا خطآن : أولها أن الحجاج يبيتون ليلة الوقفة فى (منى) لمن أراد السنة ومنهم من يبيت فى (عرفة) رأسا : والثانى أنهم لا يقفون فى (مزدلفة) وإنما يبيتون بها ليلة العيد فإذا صلوا الفجر فى أول وقفته وقفوا إلى الإسفار ثم أفاضوا إلى (منى) فالوقوف فى (مزدلفة) هو بعد صلاة فجر عيد الأضحى .

١٥ — ص ٤٠ ـ س ٧ ـ (والشمس وضحها) صوابها (وضحاها) وفى هامش ٤ أخطأ الناشر فى رقمى السورتين .

١٦ — ص ٤٢ ، ص ٤٣ ـ ورد لفظ (قبا) خمس مرات بالقصر والصواب (قباء) بالمد كما نصت كتب اللغة .

١٧ — ص ٤٦ فى هامش ٢ ذكر الدكتور الناشر (نهر الإندوس) قلت : ماذا عليه لو قال (السند) .

١٨ — ص ٤٩ س ٦ قال المؤلف إن (الغطاس ليلة ١٠ يناير) وسكت الناشر وكان يجب أن يقول إن الصواب ليلة (١١ من شهر طوبه) وذلك يوافق غالبا ليلة (١٩ يناير) .

١٩ — ص ١٤٢ ـ س ١٧ . ضبط لفظ (مذحج) بضم أوله وفتح الجيم قبل الحاء والصواب (مذحج) بفتح الميم وبكسر الحاء وبعدها الجيم .

٢٠ — ص ١٩٤ ، ورد ذكر (مدينة سكوما) وفى الهامش ما يفيد أنها عن معجم البلدان لياقوت ، والذى فى ياقوت (سقرمى) بفتح القاف وسكون الراء ، وفرق كبير بين اللفظين .

٢١ — ص ١١٨ . وأخيراً : ذكر المؤلف (قصر لخم) بالخاء المعجمة ـ قلت فات الناشر أن يقول إنه (قصر الجم) بالجيم وهو مسرح رومانى قديم يقع على الطريق الرئيسى بين « سوسة » و « سفاقس » بقطر « تونس » وفى منتصف المسافة بين البلدتين ولا يزال شامخاً ضخما كما شاهدته منذ سنتين ، ويوجد تحت الأرض فى وسطه سراديب لحبس الوحوش بها أيام الرومان .

هذا بعض ما وجدته من الملاحظات ، أما أخطاء الطبع وأخطاء أرقام سور وآيات القرآن ، فقد أعرضت عنها خيفة الإطالة ، وحبذا لو كان الناشر استعان فى كلامه عن المناسك ببعض العلماء بدل مصدره الإفرنجى إذاً لعصمه ذلك من هذه الأخطاء ، والله ولى التوفيق .

عبد السلام النجار

بريد المجلة

العربية لغة إفريقيا :

عقد فى شهر أغسطس الماضى فى ليوبولدفيل عاصمة الكونغو ، مؤتمر وزراء الخارجية لدول إفريقيا المستقلة كلها ومن القرارات التى أصدرها المؤتمر اختيار لغة ثالثة تقرر للتعليم والمحادثة بين سكان تلك البلاد تشمل الدول الإفريقية المستقلة كلها إلى جوار اللغتين الإنجليزية والفرنسية اللتين أرغم الاستعمار الأوربى سكان تلك البلاد على استعمالها .

وأول ما يتبادر إلى الذهن عند مطالعة هذا القرار أن تكون اللغة العربية هى تلك اللغة الثالثة ، فشعوب شمال إفريقيا لغة التعليم والتخاطب فيها هى اللغة العربية . وهى لغة الثقافة والعلم فيها أيضا وما بقى فى تلك البلاد من أثر للغة الفرنسية خلفه الاستعمار ، سيقضى عليه ، ويمحى أثره فى زمن قصير ، بحكم سيطرة الوعى القومى العربى عليها ، واستلام أبنائها مقاليد الحكم فيها .

واللغة العربية هى لغة السودان ، والجمهورية العربية المتحدة ، تعليما وتخاطبا وثقافة . وفى الجمهورية العربية المتحدة الأزهر ووزارة التربية والتعليم ، وكلاهما يضم مئات من المجندين لخدمة اللغة العربية وتدريسها وإذاعة ثقافتها فى البلاد الإفريقية التى قررت لأهلها لغة ثالثة .

والمسئولون عن الأزهر وغيره من الهيئات الثقافية فى الجمهورية يسرهم أن يبادروا بتلبية رغبات هذه الدول . فى سبيل تعليم أبنائها وتثقيفهم . وأن تبذل هيئاتهم فى هذا السبيل كل ما تستطيع من جهد .

وعند ما تكون اللغة العربية هى لغة سكان إفريقيا . فى شمالها كله ، ووسطها وغربها سيجد سكان هذه الدول الإفريقية الجديدة أنه قد تيسر لهم عامل من أهم المؤثرات الثقافية والتعليمية . ومن أهم أسباب الرواج الاقتصادى أيضا ، وسنفيد من ذلك فوائد كبرى .

م . الشرقاوى

١ - حول معركة المنصورة :

سيدى رئيس تحرير مجلة الأزهر الغراء

لقد كان لمقالكم القيم ، المعركة التى أنقذت الإسلام والعروبة ، الذى نشر فى عدد

(شعبان - فبراير) الماضى أثر كبير فى نفسى وخاصة تعليق سيادتكم على قصيدة جمال الدين ابن مطروح بقولكم الكريم «وقد أجاب الله دعوة الشاعر فعاد حفدة لويس إلى ديارنا يرتكبون الجرائر، وانتقلت دار ابن لقمان وقيدها وطواشيها من مصر إلى الجزائر».

فعنت لى بعض خواطر أوردها فيما يلى :

أولا: مؤامرات لويس التاسع ضد سوريا :

قد يتوهم البعض أن لويس التاسع قد رحل يجرر أذيال الخيبة والفشل إلى وطنه فرنسا الذى كان النظام الإقطاعى ينخر فى عظامه وأنه أخذ يبذل الجهد لجمع شتات مقاطعات بلاده المتفرقة ويجمعها تحت حكمه وسلطانه. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث. فقد ولى لويس التاسع وجهه شطر الإمارات الصليبية بالشام واستقر بإمارة عكا الصليبية. وأخذ يتحين الفرص للنيل من وحدة الأمة العربية ويحتضن كل حركة ترمى إلى تفريقها بالاشتراك فى المؤمرات ولكن خاب أمله. فقد قيض الله للأمة العربية رجالا عاهدوا أنفسهم على الجهاد والكفاح. فهذا قطز يهزم التتار فى موقعة عين جالوت «رمضان سنة ٦٥٨هـ - أغسطس ١٢٥٩م» وهذا الظاهر بيبرس السلطان المملوكى يرسى دعائم سياسته العربية على طرد الصليبيين من الشرق الأدنى.

وقد استطاع الظاهر بيبرس أن يقضى على الأحلام التى كانت تراود البابوية بنشر نفوذها مستعينة بدول فارس المغولية. ولما كانت دمشق قلب العروبة النابض مركزا لهذه المؤامرات تحت حكم المغول فإن يقظة الظاهر جعلته يستطيع أن يرد للأمة العربية قلبها الخفاق سنة ٦٥٩هـ - ١٢٦٠م. وبين عامى ٦٦٠ - ٦٧٠هـ، ١٢٦١ - ١٢٧١م اتسمت سياسة الظاهر بيبرس إزاء الإمارات الصليبية بالقوة والعنف ولا عجب فإن الحديد لا يفله إلا الحديد. فقد أخذت إغاراته العنيفة تتوالى على المدن والإمارات الصليبية. وخرب الظاهر عدة مدن بعد الاستيلاء عليها مثل قيسارية وأرسوف مخافة أن تتخذ معاقل للصليبيين مرة أخرى.

وليس هنا مجال الحديث عن الظاهر بيبرس وسياسته العربية إزاء القوى الدخيلة على الشرق الأدنى ولا مدى شجاعته وإقدامه فإن هذا كله تذخر به كتب التاريخ بل وبه تفخر.

ولنتساءل ماذا كان من أمر لويس التاسع وهو يرى توالى الهزائم على الصليبيين بالشام؟ أجل. كان لابد للويس التاسع الذى تعتز به البابوية أن يقوم بعمل إيجابى إزاء تلك الانتصارات وأن يبحث عن ميدان جديد للقتال يثق فيه من نصر مؤكد أو على حد تعبير رجال الحرب كان لا بد من فتح جبهة جديدة ومن ثم قام لويس بحملة على تونس.

ثانياً :

حملة لويس على تونس وموقف مصر منها :

وبرغم تقدم لويس فى السن فقد حشد حشوده وولى وجهه شطر تونس العربية . وقد اختار تونس لعدة أسباب فهى قريبة إلى حد ما من فرنسا مركز الإمدادات ثم إن أحوال تونس الداخلية كانت تشجع على التدخل فقد كان النزاع محتدما بين أفراد الأسرة الحفصية . فإن الحاكم على تونس فى ذلك الوقت وهو المستنصر بالله أمير المؤمنين أبى عبد الله محمد ابن الأمراء الراشدين كان قد اعتلى العرش بعد أن اطلخ يديه بدماء عميه . ووصلت الحشود الفرنسية إلى تونس . فماذا كانت النتيجة ؟ . هل يترك الظاهر بيبرس ـ السلطان المملوكى فى مصر تونس وهى قطعة عزيزة من العالم العربى فريسة لأطماع الفرنسيين الذين هزمهم أبطال المنصورة ؟ .

يحدثنا المقريزى عميد المؤرخين المصريين فى العصور الوسطى فى كتابه السلوك فى معرفة الدول والملوك عما أعده الظاهر بيبرس من استعدادات لمعونة حاكم تونس ، وكيف أنه كتب إليه بأنه أعد جيشا سيصل نجدة له . كما استنفر عربان برقة وبلاد الغرب بالمسير إلى نجدته .

وتدخل القدر فأصيب جيش لويس بالطاعون ، بل وتوفى لويس نفسه بالطاعون فى ١٨ أغسطس سنة ١٢٧٠ م ، واضطرت الحملة الفرنسية إلى رفع الحصار عن تونس والجلاء عنها . بعد أن تأكدت أن مصيرها الهزيمة المحققة وبعد أن عرفت بوصول الجيوش والإمدادات العربية إلى تونس الشقيقة .

وهكذا كانت سياسة مصر فى عهد الظاهر بيبرس سياسة عربية خالصة تتوخى العمل على حماية الأقطار العربية ضد أى اعتداء أجنبى . وهى نفس السياسة التى يسير عليها السيد الرئيس جمال عبد الناصر حفظه الله بعد أن حطمت مصر أغلالها . واستعادت عزتها وكرامتها .

٢ حول إبراهيم بن أدهم :

نشرت مجلة الأزهر فى عدد شهر المحرم مقالا للأستاذ الدكتور محمد غلاب عنوانه : « دراسات فى التصوف » نورد عليه الملاحظات الآتية :

مجرى البحث عن هذا العارف بالله لم يكن يعتمد فى لبه على نقل صحيح بل إن الكاتب ـ سامحه الله ـ حين يقعِّد لهذا الصوفى الكبير مقامه فى التصوف يقول : (إن إبراهيم ابن أدهم لا يعرف ما بين أيدينا من تاريخ الحركة التنسكية الأولى عن مبدإ حياته شيئاً

ذا بال إذ هو يحدثنا أنه حين رغب فى التزهد اتخذ . . .) على أننا لو رجعنا إلى كتاب واحد من كتب التصوف المعتمدة ككتاب (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء) للحافظ أبى نعيم الأصبهانى نجده قد خص هذا الصوفى فى كتابه بما يقارب التسعين صفحة[1] يتحدث فيها عن أصله ونشأته وتنسكه وكراماته ومروياته .

ثم أريد أن أصحح جملة واحدة - إن سمح لى - من جمل الدكتور غلاب وذلك حين يقول : (إذ هو يحدثنا أنه حين رغب فى التزهد) وتصحيح هذا الكلام (أنه حين حبب إليه التزهد) لأن إبراهيم رضى الله عنه لم يرغب فى التزهد عن طواعية وإنما بتوفيق المولى سبحانه وتحبيبه إليه وذلك عن طريق الاجتباء الذى حصل له أو بعبارة أخرى عن طريق — الجذب — الذى ألم به وصدق الله العظيم إذ يقول . والله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب .

سعد الدين ابراهيم الفطريفى

خريج كلية الشريعة من الأزهر

(١) أواخر الجزء السابع وأوائل الجزء الثامن من المرجع نفسه .

٣ — نشر الصور بالمجلة

وبعد فقد ظهر العدد الأخير من مجلة الأزهر « صفر » وقد سررت من المباحث المهمة التى نشرت فى هذا العدد .

وفى العدد مقالة عن المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم ، تمنيت لو صحبتها صورة للشيخ الإمام الراحل كى يستعيد القارئ ملامح الراحل إذا كان قد رآه ، ويعرفه من لم يره . ومعروف أن فكرة بعض الناس عن الصور من جهة التحليل والتحريم غير واضحة ، مع أنها أصبحت اليوم ذات قيمة ، سواء من جهة وسائل الإيضاح أو فى تحقيق الشخصية .

وقد قرأت فى مذكرة التفسير بكلية الشريعة ، أثناء دراستى فيها فى شرح أوائل سورة ص ، ما يفيد إباحة مثل هذه الصور ولذا جئت مقترحا أن تنشر مجلة الأزهر بعض الصور التى تعين فى إيضاح الأمور . أو فى التعرف على أشخاص الكاتبين وخصوصا المقالات التى تتناول مواضيع عن بلاد نائية عنا ؟

عزت عبيد الدهاس

المدرس بإعدادية سعيد العاص بحمص

الاقليم السورى

٤ حول نشأة النحو العربى :

قرأت ما كتبه الفاضل الدكتور تمام حسان فى الجزء الأول من المجلد الثانى والثلاثين من مجلة الأزهر الغراء الصادرة فى محرم سنة ٨٠ هـ بعنوان (نشأة النحو العربى) وقد أعجبت ببحثه القيم وعرضه الممتع ومع هذا فإن هناك بعض الملاحظات على ما جاء فى بحثه .

(١) جاء فى صفحة ٤٨ س ١٢ (ولسنا نعرف منهم من طلب العلم حقيقة إلا الحارث ابن كلدة الطبيب الذى تلقى العلم فى جنديسابور وأدرك الإسلام وداوى سعدا بأمر النبى . والحارث هذا سيد سمية أم زياد وأبو النضر ابن الحارث الذى أمر النبى بقتله) .

ولكن الصحيح بإجماع ثقات المؤرخين أن النضر بن الحارث بن كلدة من بنى عبد الدار قرشى بينما الحارث بن كلدة الطبيب ثقفى [1] .

(٢) ثم نقل الدكتور تمام عدة روايات لنشأة النحو العربى عن أبى البركات الأنبارى فى كتابه (نزهة الألباء فى طبقات النحاء والأدباء) فقد استعرض الروايات التى ذكرها الأنبارى . وإليك خلاصة تعليقه فى صفحة ٥١ قال : (تقول أولاها وآخرتها : إن غيرة علىّ على لغة العرب دفعته أن يكلف أبا الأسود بوضع النحو ورواية أخرى تنسب ذلك إلى عمر وغيرها إلى زياد بينما رواية أخرى تنسب فكرة نشأة النحو إلى عبد الرحمن ابن هرمز الأعرج وغيرها إلى نصر بن عاصم . وقد ناقش رواية نسبة النحو إلى على ابن أبى طالب وجزم بأن تقسيم الكلام إلى اسم وفعل وحرف يحمل دعوى ضمنية بنسبة قدر من المران العلمى والممارسة للبحث إلى على ، وتلك أمور تقتضى فراغا وعدم انشغال وتلقى دراسة ثم أوضح أن عليا كان طوال وقته مشغولا فى مكة والمدينة بالدعوة ثم الجهاد . وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وتولى أبى بكر وبعده عمر ثم عثمان شعر بشىء من الظلم فى تخطى شخصه وقد انعكس هذا الشعور فى تقاعسه عن نصرة عثمان ، ثم شغله معاوية عن كل شىء إلا التفكير فى استتاب الأمن الداخلى .

ولقد راجعت كتاب أبى البركات الأنبارى (نزهة الألباء فى طبقة النحاء والأدباء) وأرى أولا أن نستعرض تعليق الفاضل الدكتور على الروايات التى نقلها كما أسلفنا فقد ذكر أن أولاها وآخرتها تقول إن غيرة على على لغة العرب دفعته أن يكلف أبا الأسود بوضع النحو إلخ . وواضح أن هذا ليس إلا شقا واحداً ، مما تقول الروايتان

---

(١) نسب قريش لأبى عبد الله المصعب الزبيرى ٢٥٥ ص سيرة بن هشام تحقيق الاستاذ مصطفى السقا وأصحابه ج ١ ص ١٢١ ـ ٣٢٥ وجمهرة ابن حزم ص ١١٧

والشق الآخر أن عليا وضع حدود النحو وأسس قواعده وهذا هو الأكثر أهمية بالنسبة لموضوع بحثه كما أنه إذا كان للفاضل الدكتور تمام كامل الحرية فى تكوين رأيه الخاص عن نشأة النحو أو ترجيح رأى معين فإن أمانة النقل تقتضى أن ينقل رأى أبى البركات الأنبارى كاملا . إذ أن العلامة أبا البركات بعد أن استعرض روايات نشأة النحو قال : (فأما من زعم بأن أول من وضع النحو عبد الرحمن بن هرمز الأعرج أو نصر بن عاصم فليس بصحيح لأن عبد الرحمن أخذ عن أبى الأسود ويقال عن ميمون الأقرن والصحيح أن أول من وضع النحو على بن أبى طالب رضى الله عنه لأن الروايات كلها تسنده إلى أبى الأسود وأبو الأسود يسند إلى على فإنه روى عن أبى الأسود أنه سئل فقيل له من أين لك هذا النحو ؟ فقال لقفت حدوده من على بن أبى طالب [١] .

٣ — ولنعد إلى إثبات نسبة وضع النحو إلى على التى ينفيها الفاضل الدكتور تمام

يقول الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد (وإذا قيل فى قضائه لم يكن أقضى منه بين أهل زمانه صح أن يقال عن علم النحو أنه لم يكن أحد أوفر سهما منه فى إنشاء هذا العلم . وقد أمر أبا الأسود الدؤلى حين شكا إليه اللحن فى ألسنة العرب فقال اكتب ما أملى عليك . ثم أملاه صوراً منها أن كلام العرب يتركب من اسم وفعل وحرف . ثم قال وهذه الرواية تخالف روايات شتى تسند إلى المقابلة بين اللغات الأخرى فى اشتقاق أصولها النحوية ولا سيما السريانية واليونانية ولكن الروايات العربية لا تنتهى بنا إلى مصادر أرجح من هذا المصدر [٢] .

كما أن الأستاذ محمد سعيد العريان فى تعليقاته على تاريخ آداب العرب للرافعى رجح نسبة نشأة النحو إلى على بن أبى طالب[٣] أما الافتراضات التى ذكرها الفاضل الدكتور فى عدم نسبة المران العلمى إلى على وعدم فراغه للبحث إلى آخر ما ذكره فإن هذه مجرد افتراضات لا تستند إلى مصدر يوثق به وكما هو معلوم أن التاريخ (نقل) وإننا نكتفى بما كتبه الأستاذ العقاد فى هذا الموضوع (يقول لقد لبث على بن أبى طالب زهاء ثلاثين سنة منقطعاً أو يكاد أن ينقطع عن جهاد الحكم والسياسة متفرغا أو يكاد

(١) نزهة الألباء فى طبقات النحاء والأدباء لأبى البركات الأنبارى ص ١٣ ، ١٤ .

[٢] عبقرية الإمام للأستاذ عباس محمود العقاد ص ١٨٢ ط دار الهلال

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية للأستاذ مصطفى الرافعى الهامش للأستاذ محمد العريان ج ١ ص ٣٣ .

يتفرع لفنون البحث والدراسة يتأمل كل ما سمع ويراجع كل ما قرأه ممن يلقاه ويستطلع أنباءه وآراءه وقضاياه ومهما يكن قسط الثقافة العالمية قليلا فى بلاد الإسلام على تلك الأيام ففيه ولا ريب الكفاية للعقل اليقظان والبصيرة الواعية)[1] ومما سبق نرى أن ما ذكره الفاضل الدكتور تمام من افتراضات يكتنفها الغموض ولا تستند إلى مصدر ثبت . والقول بأن نسبة النحو إلى على بن أبى طالب من وضع الشيعة لم ولن يكفى لنفى ما سجله التاريخ من قيام على بأوفر سهم فى نشأة النحو العربى .

بقى لدينا مدى تأثر النحو العربى بالنحو السريانى وقد أخذ هذا قدراً كبيراً من بحثه فقال فى صفحة ٥٥ (والظن عندى أن واضعى النحو قد أخذوا التقسيمات السريانية أو قلدوها فجعلوا كلامهم اسما وفعلا وحرفا كما جعله السريانيون قبلهم) .

ومع تقديرى لهذا الظن أحب أن أسأل هل يوجد مصدر عربى أو سريانى يؤكد هذا الظن ؟ أما المصادر العربية التى راجعتها فلم تشر إلى شىء من هذا النقل أو التقليد . ومن المؤكد أن المؤرخين العرب كانوا على جانب كبير من دقة الملاحظة وأمانة النقل . ولقد أشادوا بفضل الطب والفلسفة والمنطق الذى أخذوه عن اليونان بل وأطروا ثقافة بعض من علماء السريان مثل حنين بن اسحاق. ثم ما هو المانع لمؤرخى السريان أنفسهم أن يسجلوا هذا الاقتباس أو النقل ويفخروا به لو كان صحيحا ؟ ؟ .

نعم إن بعض المستشرقين أشاروا إلى هذا الاقتباس أو النقل من النحو السريانى إلى النحو العربى ولكن الكلام معهم كالكلام مع الدكتور تمام مع أن منهم من يقول إن نشأة النحو عربية وإن تقسيم الكلام إلى اسم وفعل وحرف تقسيم عربى خالص . وليت الفاضل الدكتور تمام دعم ظنه بشاهد من نحو اللغة السريانية وحدد وجه التشابه بينه وبين مثيله من النحو العربى .

وأحب أن أوضح أن البحث عن نشأة النحو فى الصدر الأول عصر على وأبى الأسود ومن فى طبقتيهما . ولإثبات أن تقسيم الكلام إلى ثلاثة أقسام تقسيم عربى وأن نشأة النحو فى الصدر الأول نشأة عربية نستدل بما يلى عن أحد كبار المستشرقين .

يقول الأستاذ ليتمان Littmann اختلف العلماء الأوربيون فى أصل هذا العلم فمنهم من قال إنه من اليونان إلى بلاد العرب وقال : آخرون ليس كذلك وإنما كما تنبت الشجرة فى أرضها ، كذلك بلت علم النحو عند العرب وهذا الذى روى فى كتب العرب من زمن

(١) عبقرية الإمام ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

ونحن نذهب فى هذه المسألة مذهبا وسطا ونقول كما أثبته العالم (Josph, Blranc) وهو أن العرب أبدعوا علم النحو فى الابتداء وأنه لا يوجد فى كتاب سيبويه إلا ما اخترعه هو والذين تقدموه ، ولكن لما تعلم العرب الفلسفة اليونانية من السريان فى بلاد العراق تعلموا شيئا من النحو ، وهذا النحو هو الذى كتبه ارسطاطاليس الفيلسوف ، وبرهان ذلك أن تقسيم الكلمة يختلف عما قاله سيبويه .

فالكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل .

وهذا التقسيم أصلى ، أما الفلسفة فتقسم الكلام إلى اسم وكلمة ورباط . أى الاسم هو الاسم والكلمة هى الفعل كما فى اللغات الأوربية (verb) والرابط هو الحرف كما يقال فى اللغات الأوربية . هذه الكلمات اسم وكلمة ورباط ترجمة عن اليونانى إلى السريانى ومن السريانى إلى العربى وسميت هكذا فى كتب الفلسفة لا فى كتب النحو .

أما الكلمات اسم وفعل وحرف ، فإنها اصطلاحات عربية ما ترجمت ولا نقلت[1] .

وهذا الرأى يؤكد أن نشأة النحو العربى وتقسيم الكلام إلى ثلاثة أقسام عربية محضة وهو يتفق مع ما ذكرته المصادر العربية ، وموضوعنا هذا هو نشأة النحو كما أسلفنا ، فأما ما قد يكون اتفق لبعض النحاة بعد الصدر الأول من الاطلاع على بعض اللغات القديمة وتأثير ذلك فى آرائه فى النحو العربى فلا ننفيه .

وآخراً وليس أخيراً فإن الفاضل الدكتور تمام قد أفادنا بمعلومات قيمة فى بحثه وسيكون من المصادر المهمة عن نشأة النحو العربى .

هارون أحمد العطاس

---

(١) ضحى الإسلام للدكتور أحمد أمين ج ٢ ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

أنباء الثقافة

من أنباء الجزائر أنه عثر على أصغر مصحف فى العالم ، وجد فى زجاجة صغيرة ملقاة على رمال الشاطئ فى مدينة الجزائر . وحجم هذا المصحف سنتيمتران طولا فى سنتيمتر ونصف عرضاً

* يشتغل الأستاذ بطرس البستانى الآن بترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية ، عن اللغة اليونانية مباشرة . وقد أوشك على الانتهاء من الترجمة ، وراعى فى ترجمته استخدام الكلمات والتعابير المتداولة الآن فى اللغة العربية .

* أصدرت دار الكتب المصرية قائمة ببليوجرافية — مكتبية — القومية العربية الاستعمار ، الصهيونية ، الشيوعية . مع ملحقات بأسماء المؤلفين لكل موضوع على على حدة مرتبة على الحروف الهجائية . وتشمل القائمة أسماء المراجع الموجودة فى الدار بمختلف اللغات .

* صدر فى القاهرة الجزء الرابع من تاريخ ابن إياس المعروف باسم « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » يتضمن هذا الجزء تاريخ مصر من سنة ٩٠٦ إلى ٩٢١ (١٥٠١ ١٥١٥ م) .

أشرفت على إصداره ، ٤٩١ صفحة ، جميعة المستشرقين الألمانية وقام على تحقيقه الدكتور محمد مصطفى .

وكان فى الإمكان إخراج الكتاب على تحقيق أكمل وبعناية أتم من الصورة التى أخرج بها.

* يقوم المستشرق الألمانى الدكتور روم بنشر سلسلة من المخطوطات التى تبحث فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى .

* نشر المجمع العلمى العربى فى دمشق ، بتحقيق الدكتور شكرى فيصل ، كتاب « فريدة العصر » للأصبهانى .

* تقوم وزارة الثقافة فى إقليمى الجمهورية العربية المتحدة باصدار دائرة معارف تقع فى خمسة عشر مجلداً ، فى كل مجلد منها ألف صفحة .

* يصدر الأستاذ سعد عفرة كتابا مصوراً عن الآثار الفرعونية والقبطية والإسلامية فى الإقليم الجنوبى من الجمهورية العربية المتحدة ، يضم ٤٠٠ صورة ملونة عن هذه الآثار .

وسيطبع الكتاب فى سويسرا باللغات العربية والانجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية .

* يقوم المستشرق الألمانى فاجنر بتحقيق ديوان أبى نواس ، وتصدر فى ألمانيا ، طبعة جديدة من الديوان .

* صدر ، بالفرنسية ، مؤلف يجمع مختارات من الآداب القديمة والشعبية لثقافات العجم والعرب والهند والصين واليابان وتايلاند وكمبوديا وأندونيسيا .

قام بتأليف هذا الكتاب الباحث الهندى ألدون هينجرا وتصدر له طبعة أخرى بالانجليزية فى الولايات المتحدة

* بدأت وزارة التربية والتعليم فى الهند تضع برامجها لتنفيذ مشروع يجعل التعليم إجباريا لجميع أبناء البلاد من الجنسين حتى سن الحادية عشرة .

* أعلن المجمع العلمى فى العراق عن عدة جوائز لأحسن المؤلفات فى بعض الموضوعات . منها : « تقريب العامية من الفصحى » و « أصول الأدب العربى » .

* صدر فى بيروت كتاب جديد للأستاذ لبيب الرياشى هو : « نفسية الرسول العربى » .

* أنشأت حكومة غانا معهدا فى العاصمة : « أكرا » . وقررت إنشاء مركز آخر فى كوماس ، عاصمة الإقليم الأوسط من الجمهورية ، والمعهدان يقومان بتدريس اللغة العربية لأبناء غانا .

* تلقى فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر رسالة من الدكتور عبد الله العقيل المقيم فى هامبورج بألمانيا الغربية يشكو فيها من أزماته النفسية ويرجو من فضيلته أن يرسل له مؤلفاته . فأمر فضيلته بإرسالها له .

وتلقى فضيلته بعد ذلك رسالة شكر من الدكتور العقيل يقول فيها إنه شفى من أزماته النفسية بعد قراءته كتب فضيلته .

* انتهت من عملها اللجنة التى سافرت إلى المملكة العربية السعودية لوضع منهج « جامعة الملك سعود » فيها .

كانت اللجنة مكونة من الدكاترة مديرى جامعات القاهرة ، والإسكندرية ، وعين شمس ، ودمشق ، وعميدى كليتى الحقوق والتجارة بالقاهرة .

* من أنباء الكويت أنه تتخذ فيها العدة الآن لإنشاء جامعة كبرى بها تسير على أحدث النظم العلمية .

* تشتغل بعثة دانمركية بالبحث عن الآثار فى البحرين ، وقد عثرت فى منطقة « قلعة البرتقال » بالمنامة على آثار ترجع إلى عهد إسكندر المقدونى .

* طلب عدد من الدول الإفريقية التى استقلت حديثا إلى الجمهورية العربية المتحدة أن تهدى إليها عددا من المصاحف . وقد بادرت الهيئات المختصة بتلبية رغبتها .

ومن هذه الدول : النيجر ، والصومال ، وتوجلاند ، والسنغال .

* صدرت عن إدارة الثقافة بوزارة الثقافة والإرشاد بالإقليم الجنوبى سلسلة كتب هدفها تيسير الثقافة العربية وتقديمها للقارئ فى أسلوب عصرى وعنوان هذه المجموعة هو « مختارات من تراثنا » وتشمل الكتب الآتية : مقدمة ابن خلدون إخراج رضوان إبراهيم وكتاب الصناعتين إخراج محمود أبو ريه ، وثمرات الأوراق إخراج يعقوب عبد النبى ، وحسن المحاضرة إخراج محمد محمود صبح ، والمستطرف إخراج محمد عبد اللطيف الخطيب وولاة مصر وقضاتها إخراج إبراهيم العدوى .

* * *

* صدر فى دمشق كتاب : « ملخص أبطال القياس والرأى والاستحسان » لابن حزم الأندلسى ، بتحقيق الأستاذ سعيد الأفغانى الأستاذ فى جامعة دمشق .

* صدر الجزءان الأول والثانى من كتاب « الدين الخالص للسيد محمد صديق حسن القونجى البخارى ملك بوهبال وصاحب المؤلفات الكثيرة ، بالعربية والهندية والفارسية . المتوفى سنة ١٣٠٧ هـ .

وقد طبع هذان الجزءان على نفقة صاحب السمو الشيخ على بن الشيخ عبد الله آل ثانى حاكم قطر .

* طلبت لجنة التأليف والترجمة بجاوة الوسطى بأندونيسيا إلى وزارة الثقافة بعض الكتب عن الثقافة العربية المعاصرة والقديمة لترجمتها إلى الأندونيسية .

* تصدر الإدارة العامة للثقافة بوزارة الإرشاد فى الإقليم الجنوبى سلسلة كتب جديدة عن الحضارة المصرية ، يصدر منها جزء كل شهر وتتناول الحضارة المصرية من مهدها حتى العصر الحاضر .

* يعقد فى دمشق بين ١٣ — ١٩ نوفمبر القادم مهرجان الإمام حجة الإسلام الغزالى لمناسبة مرور ٩٠٠ سنة على مولده (ولد فى سنة ٤٥٠ هـ ١٠٥٨ م) .

وقد اختارت مشيخة الأزهر الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود أستاذ الفلسفة فى كلية أصول الدين لتمثيل الأزهر فى المهرجان .

* يقام ما بين أيام ٤ — ١٠ أكتوبر القادم فى مدينة القيروان بالمغرب احتفال بذكرى مرور ألف ومائة سنة على إنشاء جامعة القيروان .

وقد أجابت مشيخة الأزهر الدعوة التى وجهت إليها للاشتراك فى الاحتفال ، وتقرر أن يمثلها فيه فضيلة الأستاذ الشيخ محمد نور الحسن وكيل الأزهر والأستاذ الدكتور محمد البهى المدير العام للثقافة الإسلامية .

* يصدر قريبا كتاب : « تاريخ الفاطميين فى مصر » لابن الدوادارى السورى المصرى يشرف على تحقيقه وطبعه الدكتور صلاح المنجد مدير معهد المخطوطات بالجامعة العربية .

* عقد فى موسكو يوم ١٩ أغسطس الماضى

THE MEMORY OF THE PROPHET'S BIRTH-DAY

by
AHMED HASSAN EL-ZAYAT
Editor - in - Chief

The memory of the birth-day of our prophet Mohamed - peace be upon him - is in fact the memory of the rise of the spirit, the birth of liberty and the establishment of the morals. His brith was the first resurrection that purified the souls, constructed the worled and initiated the rights of man. In that it acts as well as the last resurrection which will save the spirit, commence the hereafter and announce the sovereignty of God.

The world was then in a turmoil wherein people were enslaved by materialism, subjected to lust and ruled by force. It led a life without ideals, a life void of noble impulses, human values and heavenly guidance. As such it was reigned by the animal side in man. Bestiality was the dominant factor. Conquering was man's aim in life. Lust was his guidance. Egoism was his law. He was nothing but, lust, prejudice and animality. Siffed to ears in lust he went too far to make intercourse with any woman permissible to any man. Conquered by materialism he deified stone and wood. Driven by Egoism he went to the extent of killing his sons in fear of poverty and need.

Such was the world before the advent of Mohamed - peace be upon him. By his advent a door leading to heaven was opened through the cave of Hirraa. From whence the angels of God have descended and the word of God has been revealed to such disintegrated and misguided world. Consequently the secret of life, the meaning of immortality and the truth of God were instilled into man's mind. Hence the man of the world felt that he has affinity with Heavens which was cut down by a long period of neglect and that he is promised a letter life which he was unable to look for because of his ignorance. Being enlightened in such matters he looked to the far horizon, aimed at coming to the high summit to realise his hopes in a better life through heavenly guidance. This led him to follow the guidance of the prophet revealed to him in the silence of Hirraa at the top of the hill, to ponder upon the secrets of the universe as shown in the inspiring valley and the dreadful space, to praise and glorify the existing grandeur and to dissolve in the absolute existence.

The creed before the advent of

Mohamed was either the annihilation of the soul or the annihilation of the body. It was either the judgement of God or the judgement of man. It was either the predominance of religion or the predominance of the temporal life. But to institute a relation between the subjectivity and the objectivity, between the lamp and the light, between this world and the hereafter and between the human will and the divine will was in fact the real purpose of Mohamed's mission to this universe and its realization was Mohamed's duty as ordained to him by God.

Before the advent of Mohamed the world was crippled by an intellectual slavery which killed initiative and deprived man of his right to think and a corporeal slavery which deprived him his right to act. There was no system to govern family affairs. Neither was there any law to govern the tribe nor any constitution to govern the nation, nor any legislation to regulate the creed. It was an oppressive tyranny which had exceeded all bounds and to which both the society and the indevidual submit. It was up to the father to decide the life and death of his sons as a rule of nature. The head of the clan had by traditions the right to enforce his people to do or to abstain from doing according to his will. The king as well had the right to subjugate his people in the name of religion. The priest too was allowed to mislead the people depending upon their ignorance. Those four only were the leaders who enjoyed their rights while all others were followers, slaves and neglected.

When Mohamed had been sent by God to guide the people to the way of Allah and to be a mercy to the whole universe, he gave birth to liberty, set minds free and ordered people to vie with each other in doing good, to co'operate in the welfare of the society and to compete to win priority by piety. He strengthened the ties amongst people by encouraging love and friendships. He instituted equality to realise fair dealing. He had won the hearts of his People by love and justice in a way that made the weak feel that he is supported by all the powers of God, the poor that all the wealth of the government is at his disposal and the lonely that all the moslems are his brethren. The prophet too obliterated all racial distinctions and territorial demarcations. He made the whole world one country for all the people and all the nations one united family governed by mutual love and directed by equality and justice. In such family every member has the right to see his Caliph at any time without intervention or permission. As well he is free to pray and to perform his religions duties without any interference.

God bless the cave of Thor for it was the birth place of liberty. God

bless as well the cave of Hirraa for it was the place of the Solu's inspiration. No wonder for Thor is in the mount of salvation and Hirraa is in the mount of glorifications.

The world was before the birth of Mohamed suffering from the disintegration of morals and manhood, and the reigning of egoism and falsehood. The force was subduing justice, relationship was subjugatin rights, the authority of capital was degrading humanity and the excess of luxuries was annihilating bravery. Commercial dealings were most unfair. Breach of faith was prevalent. People were behaving like beasts of prey. They were always waging wars, and disputes. Their deads were governed by deceit, prejudice and avarice. But when the great hero and the perfect man had appeared, his manners and good deeds became a striking example of perfect behaviour. He behaved in compliance with religious institutions to teach people by the force of example, to train them by practice and to regulate their instincts by offering the model. His character and call impressed his people and reformed their ways of life. After indulgence in sanguine deeds, animosity and disunity they were reduced to love, friendship and unity. He guided them by the light of the Koran and ruled them by his traditions. He moved them to attack the corruption and immorality of the world. Therein they succeeded in reforming a corrupted world, in cvilizing and educating its people.

Such are the trains of thought which the memory of the birth-day of the prophet excite in the minds of true and grateful believers. Such memory moves us in the meantime to ask what is now remaining in the hearts of moslims, of the spirit, liberty and moral of Mohamed peace and blessings be upon him! Alas Moslems are now leading a life of no importance. They are no more than playthings. They are no more than the serfs of the land. They are no more than the barbarians of the age of ignorance! Could that be their status if they had followed the teachings of their religion and made it their guidance in life and if they had made the sa ings of the prophet their directive and the life of their forefathers their example?

The memory of the birth-day of the prophet is the memory of the liberation of humanity from the bondage of illusions, tyranny, and ignorance. As such it would be incumbent upon the free and conscious hearts to bow in reverence and to glorify the memory of the prophet of monotheism and unity, the messenger of democracy and freedom and the propagator of peace, love and brotherhood.

ISLAM: THE RELIGION OF MIND AND KNOWLEDGE

by

His Eminence Shaykh Mahmoud Shaltout

Rector of Al-Azhar University

The strong appeal of the Qur'an to reflect on the dominion of the heaven and the earth is a handsome demonstration of the status of both mind and knowledge from Islam's point of view. This is simply because mind is the means of thinking which produces fruitful knowledge. Accordingly all the Qur'anic verses instigating the believers to such reflection are meant to declare the value of the mind and draw the attention of the people to elevate and strengthen it. These verses also declare the value of knowledge and the importance of acquiring it in order to enable man to conceive facts, to rid himself of the fetters of ignorance and to emancipate himself from the servitude of fallacies and superstitions.

By so doing Islam has been the religion of thinking, mind and knowledge. The attitude of the Messenger of God is quite satisfactory to account for this argument. He did not prove his message through supernatural signs as vehemently demanded by his people, but only through reasoning and sound reflection. In this respect God the Almighty says; : " Yet they say : ' why are not signs sent down to him from his Lord ?" Say : ' the signs are indeed with God : and I am indeed a clear warner; And is it not enough for them that We have sent down to you the book which is rehearsed to them ? Verily, in it is Mercy and a reminder to those who believe. " (Surah. 29, Vs. 50-51).

Moreover, Islam has honoured the mind and stated that whoso neglects it will be punished on the day of Resurrection. It narrates what would be the discourse of those who disregard their mind and missed the straight path by saying : " They will further say :'had we but listened or used our intelligence, we should not (now) be among the companions of the blazing fire " (Surah. 67. Vs. 10). It as well has honoured knowledge and classified its possessors

n the third category after God and Angels; "God bears witness that there is no God but He-and the angels and men possessed of knowledge uPholding justice." (Surah. 3, Vs. 18); and confined the fear of God only to them because they have conceived God's power and greatness; "only those of His servants fear God who have knowledge." (Surah. 35, Vs. 28). Being as sush depicted Islam has prohibited the following of conjecture and instead has erected faith on an unequivocal proof as well as on conclusive arguments; say : 'have you any (certain) knowledge ? If so, produce it before us. You follow nothing but Conjectu you do nothing but lie (S. 6, Vs. 148 "But most of them follow nothing but fancy : truly fancy can be of no avail against truth ". (Surah. 10, V. 36);

"But they have no knowledge therein. They follow nothing but conjecture ; and conjecture avails nothing against truth." (S. 53, V. 28) and "And pursue not that of which you have no knowledge ; for every act of hearing or of seeing, or of (feeling in) the heart will be enquired into (on the Day of Resurrection). (Surah 17, V. 36).

To ascertain the importance and value of knowledge, Islam has called it authority in many Qur'anic verses; "Those who dispite concerning the signs of God, without any authority come to them, very hateful is that in the sight of God and the believers." (Surah. 40, Vs 35) and "Those who dispute about the signs of God without any authority bestowed on them - there is nothing in their hearts but (the quest of) pride, that they shall never attain" (Surah. 40, Vs. 56).

The Qur'an opposes imitation and blames the imitators :

There are too many verses in the Qur'an which denoun blind imitation and imitators whose chief interest is only to follow the same course of their fore fathers and to inherit their old dogmas and tradition without any merits save they are olny fathers or ancestors as if priority of time gives holincss to the old systems, beliefs and interpretations of texts. Accordingly they stick to the old opinions depriving themselves of men's specific characteristic; that is mainly searching and meditation. In this respect God says : "When it is said to them : 'follow what God has revealed' they say :f 'nay ! we shall follow the ways o our fathers ; what ! even though their fathers were void of wisdom and guidance" [Surah. 2, V. 170] and also says : "When it is said to them 'come to what God has revealed;: come to the messengers, they say : 'enough for us are the ways we found our fathers following., what ! even though their fathers were void of knowledge and guidance." (Surah. 5, V. 104).

Immutability hinders the principle of evolution.

Thus the Qur'an tells us that such People had been sticking to the inherited thoughts and dogmas and had been regarding such abstract ideas as the inheritance of land or of any other material property. Those people were completely satisfied of what they had inherited without causing themselves any trouble to evolve or promote their standard of both knowledge and action. There is no doubt that such an attitude contradicts the nature of the universe as well as the nature of every being which is basicly characterized by growth and generation.

However, the intellcctual reproduction tike that of man, animal and plant-is envitably needed in life. And if the intellectual faculties of man stop functioning, he will be confronted and puzzelled by the copious reproduction of other organisms and, in sequence, will be unable to organize or make use of these creatures which were principally created to be in his service. Consequently he would fail in his mission for which he has been chosen since the dawn of humanity; that is to be God's regent on earth.

Sticking to old opinions is a plunder to man's specific quality.

Sticking to the old opinions is a manifest plunder to man's specific cheracteristic i.e., mind which differentiates between right and wrong, and between the proper and the improper. Such plunder puts man in a state of indifference; so he does what he likes and abstains from what he deslikes without any religious background. Man, accordingly, has no choice but only submitts to the images of his fathers and his fore-fathers which always drag him back without having any intrinsic energy to make him advance but is only whir'eled by the current flood of life; 'When they do ought that is shameful, they say: (we found our fathers doing so)" (Surah. 7, V. 23).

In fine sticking to the old opinions of the fore-fathers, to what they have had of knowledge and to their way of thinking is an offense against human nature, a plunder to the dynomism of mind which is man's specific characteristic, a flagrant misrepresentation of God's signs to His bondmen and a false belief which God absolutely disregards.

It is noteworthy to state that the first Muslims had followed what

Islam ordains and what the Qur'an calls for; so they reflected, reacted, reasoned, sought evidence and rejected blind imitation. Consequently they became masters of the world and all nations under their rule enjayed justice, equality and prosperity. By the elapse of time they diverted into the vicious extreme, abandoned the sound teaching of Islam and fell under the ferule of imitation. They ignored the essence of man, of the universe and of life. They dissected the integral religion of God, became scattered groups and cancelled God's authorization on His creation, and assumed to be the only authorities in God's religion and law.

They related infallibility to their father's opinions as to place them above criticism. Thus religion was represented through different and inconsistent interpretations. Consequently this divergence of views gave rise to the spread of innovations and superstitions which aroused dark clouds over the firmament of religion in such a way that made people so disgusted and sick of it that they accused it of having no straight attitude and of being fluctuated between permissible and forbidden, between sound and unsound and between strength and weaknees. Eventually they began to seek salvation from this desperate situation as an expression of their vengeance on the religions factions who seperated religion from life.

Such groups have to realize that life is so wide and dynamic that it can by no means be confined to narrow opinions of short-sighted individuals or to the fetters of old legacy.

They ought to consider carefully the land on which they are standing and the method which they are using in order to preserve the law of God and remain steadfast in His commandments.

Man's regency on earth.

Man was neither created just to make fun or rejoice nor to exercise tyranny and despotism. But he was endowed with the faculties of knowledge, conception and the tools of action. The universe as well including earth, sky, water and air was rendered subservient to him for sublime wisdom that is manifestation of God's glorification and beauty. By such an endowment man was prepared to be God's regent on earth to inhabit it and to bring about its reformation, the development of its civilization, the exploration of God's secrets and the maintenance of good and prosperity therein. By an achievement it will be a demonstration of God's mercy to His bondmen and a great sign of His power

and wisdom. Many Qur'anic verses guide us to such wisdom such as the following verse which deals with the initiation of man. This respective verse reads as follows: "Behold, your lord said to the angels: 'I will create a viceregent on earth.' They said; 'will you place therein one who will make mischief therein and shedblood ? Whilst we do celebrate your praises and glorify your holy (name) ?' He said: ') I know what you know not.' And He taught Adam the nature of all things; then He placed them before the angels, and said: 'Tell Me the nature of these if you are right.' They said: 'Glory to you: of knowledge we have none, save what You have taught us: in truth it is You Who are perfect in knowledge and wisdom.' He said: 'O Adam! tell them their nature.' When he had told them, God said; 'Did I not tell you that I know the secrets of heavens and earth, and I know what you reveal and what you conceal?" (Surah 2, Vs. 30-33).

Through such a logical discourse, the wisdom of man's creation was cleary conceived by the angels and they recognised man's superiority over all creation. In this connection God the Almighty says: "It is He Who has made you (His) agents, inheritors of the earth: He has raised you ranks, some above others: that He may try you in the gifts He has given you." (Surah. 6, Vs. 165).

"Believe in God and His messenger, and spend (in charity) out of the (substance) whereof He has made you heirs." (Surah. 57, Vs. 7); "O David¡ We did indeed make you a viceregent on earth: so judge you between men in truth and (justice)." (Surah. 38, Vs, 26).

Knowledge and Health:

If what we have just mentioned has been the mission of man in life, the wisdom of his creation, of bestowing on him faculties of knowledge and action and of rendering the universe subservient to him, then he should fortify himself by knowledge-to distinguish good from evil, the usful from the harmful and the constructive from the destructive - and protect himself by sound health to integrate his mind, maintain his activities and render his efforts fruitful.

Knowledge and health thus are two elements inevitable for men to lead a perfect life in order to realize the wisdom of the Creator in His creation. All beings, however, are dependent on and in need to both knowledge and health. In as far so we are concerned there is nothing on earth that destroys happiness, disso-

lutes the bonds of co-operation and terminates dignity and authority other tqan ignorance and illness. These two defects are the sources of all evils and the omen of destruction and annihilatisn.

Islam launches a war against ignorance :

This is simply why Islam has taken great interest in all means which purges society of ignorance and illness. It compats ignorance in all its aspects. It compats the most heinous form of ignorance represented in polytheism by means of implanting the seeds of monotheism in men's hearts, of drawing their attention to its signs and evidence and of urging them to think of and scrutinize in these signs to believe that greatness is God's only and to proceed on the way leading to perfection without being hindered by any false greatness.

Islam also conpats another form of ignorance that is blind imitation and therefore it has denied man's dependence on any autority other than his own mind and will, and has blamed him for his stagnant attitude towards dogmas, knowledge, illusion and superstition bequeathed by his for-fathers.

Learning of writing and reading:

It tackles illiteracy by recomming the learning of reading and writing, and by exalting the status of education. Here we should stop for a short while just to see to what extent Islam cares for putting an end to illiteracy. It is quite enough for us to assure this argument to observe that the first Qur'anic verse sent down from God to His messenger Mohammed was this glorious verse which reads as follows : "Read in the name of your Lord and Cherisher, Who created-created man, out of a (mere) clot of congealed blood : Read ! And your Lord is the Most Bountiful, He Who thaught (the use of) the pen." (Surah. 96, Vs. 1-5).

In this verse God the Almighty commands His messenger to read. And it is noteworthy to state that reading is the means by which man can attain glory and knowledge. Next He guides him to pray in the name of the Lord for succour because He is the Bestower of education and its means on all human beings. Then man can realize that knowledge has a significent status in life. Finally He mentions man's creation and of what he was made combining this with the blessing of knowledge as He says : " Who thaught (the use of) the pen. Taught man that which he knew not. " (ibid V. 5).

Thus God equalizes the blessing of man's creation and that of knowledge as a hint that the ignorant man has no real existence in this life. To exalt *the pen* and its rôle in the field of knowledge. God the Almighty has sworn by the pen when He refuted the grievous charge that God's messenger was mad. In this connection He says : " Nun. By the pen and by the (record) which men write, - You are not, by the grace of your Lord, mad or possessed" (Surah. 68, Vs. 1 — 2).

The Pen is not confined only to the knowledg of religion.

As God demands reading as such He also demands knowledge as such without any limitation to certain branch of knowledge; " Are those equal; those who know and those who know not. " (Surah. 39, V. 9). This unlimitedness guides us that *knowledge* from the Qur'anic point of view is not confined to that of religioues injunctions. It goes to any branch of information that may benifit man and help him in the great mission he is showldering since his creation. He was appointed viceregent on earth to inhabit it, to extract its treasures and explore God's secrets therein.

Knowledge, however, comprises all branches of science such as batany, agronomy, veterinary, economy and investment of properties. It also includes industry and industrial resources, medicine and its implications, worfare and so forth. The Qur'an has ascertained this attitude and made knowledge as such a principal element in the life of the Muslims.

Our ancestors conceived the value of knowledge in all its aspects.

The early Muslims had conceived the value, significance and enivitability of knowledge and the role it can play in the creation of individual as well as universal happiness. Thoug they had been an illiterate people yet they were so ardent to expunge all signs of illiteracy that they released any prisoner who could teach certain number of the children of the Muslims how to read and how to write. Furthermore they considered the memorization of the holy Qur'an as a dowery in marriage.

It is advisable to say that Knowledge has elevated and honoured the ranks of those who have no social background or wealth or authority. And if we go back to the past to consult history we will find books of outstanding merit, Islamic and non - Islamic alike. These bear witness that early Muslims were characterized by their profound academic concentrations and that each generation had had its own method

as well as its own discoveries not to stick altogether to what predecessors had bequeathed. So they pondered, searched, verified, chose and ultimately invented. By so doing they had been masters of all scholars and were worthy of God's description : " you are the best of peoples, evolved for mankind, enjoining what is right, forbidding what is wrong ", (Surah, 3, V. 110).

Our hope for a new scientific renaissance.

This is the rôle of Knowledge in the construction of society as ordained by the holy Qur'an. Therefofe I earnestly hope that time would bring the Muslims once again to an era of vigilance and awakening : an era full of progress and good understanding in order to make up for the sordid past, lead a course of dignified life as set by their fore - fathers and realize that Knowledge has been the first and foremost element in their mastery and strength. They must Know that their humiliation and backwardness are due to ignorance and the wasting of time in false theories, illusive hypothesis, fancies and superstitions.

I strongly feel that scientific renaissance would take place through the unflagging efforts of the sincere and persistent individuals who devate their life to extirpate the seeds of illiteracy and realize the welfare for their people in a bid to live prosperous and happy, and never feel the pains of adversity or develop a sense of inferiority. Thus dignity and honour will be as God wished them to be : " For God and His messenger and the believers" (Surah. 63, Vs. 8).

ISLAM AND SOCIAL DEVELOPMENT

by

Dr. Muhammad El Bahay
Director General of The Islamic Culture Administration

It seems appropriate before dealing with such a subject to explain what is meant by social development in the light of the requirements of the age.

The meaning of social development.

The social developemet is the development of the mutual relations amongst the individuals in a way to ensure that social welfare is no less in the individual's consideration than his own or in other words that the care the individual takes for his fellow individual is no less than his care of himself. Thus the social development is the growth of the mutual relations amongst individual in the fields of reciprocal sympathy and co-operation in fruitful deads which realise the commion weal of the people at large instead of letting loose the individualism and egoism to guide the affairs of the people for individualism and egoism are the characteristics of the childhood of both the individual and the society.

To understand the real meaning of social development we have to pay a retrospective glance upon the status of the primitive peoples who are unconscious of the mutual relations and mutual co-existence amongst the individual. Those primitives who have not yet realised the common purpose at which th People should aim and to which they should work to establish a society to unite them all. To maintain such a society they have to work together to realise its aim and to co-operate to keep it alive.

However, a primitive man never Co'operated with his fellows to build a society. He is only looked upon as one in a groups wherein the relations amongst the individuals are governed only by egoism and the instincts of self existence and self - defence. They have nothing to do with the social instincts inherent in man because they have failed to develop them through lack of

guidance and education. Thus their relations never tend to Peace except when a weak individual faces a strong man. They never come in contact with each others in their dealings except by sheer coincidence when they meet in their search for sustenance to heap them alive or in their hankering after pleasures to satisfy the call of the flesh In fact there are no relations whatsoever amongst the individuals of such a group except in their struggles and contacts to attain the aforesaid ends. They have no family relations. No fatherly or mothery or filial relations exist among them. They have no other ties as such which depend upon common blood, mental and material inheritance and the status of the family. Although, the individuals give birth to children as a result to sexual indulgence between the male and female which is a natural reaction between the two different sexes, they are so doing without the innate feeling of familial kinship. In other words they never feel that it is incumbent upon them to look after their sons and their wives. They are deprived of any sense of sympathy. They are aimless and have no common purpose to live for such as the maintenance of the family by trying hard to supply it with food, to defend its individuals against famime and annihilation and to keep its existence by all means. On the contrary the father almost attachs the mother as well as the son in their search for food. In a likewise manner the brother wages war against his brothes. In his sexual indulgece he never knous any limit or any forbidden degrees of consanguinity. He marries his mother, his sister, as well as any other woman without any heed to the illegality of such deed and without paying any care to the traditions of the society which forbid such intercourse. Thus polygamy is practised without any limit and there is no any degree of forbidden marriage. We can go too far to say-that the offsprings of a certain from the so many women he marries are countless and hardly recognisable.

When individuals begin to set limits for their mutual relations and to feel consciense of the scope within which they display such relations. Then it is the beginning of the rise of a society. The more the relations are limited, the more the scope of its displayment is clear, the stronger the society becomes - for under such circumstances the aims and purposes become likewise so clear.

If the members of a family realise the common relations that

bind them and begin to work together collectively with a co-operative sense and mutual care and love for each other, to unite in face of any danger or crisis from within or without, to differentiate between what should be done and what should be left to make such co-oPeration effective and if such family is full aware that it has a common purpose that is to keep their family strong and united in the face of other families, that will mean that the social conscience of such family has arisen and is paving the way to realise its end gradually and through stages. At every stage such conscience becomes stronger until it reaches maturity wherein they become one block or unit.

If a mutual response takes place between two or more families in their relations and if in the meantime they agree to work for one purpose then the big society will be created. As well when such mutual relations extend to embrace numerous families and so many individuals and when they are bound with a common tie, the human society at large will be going ahead in the way of asserting its existence and revival.

The social development in the light of the aforesaid premises paves its way in two directions : It aims at extension and enlargement at one hand and at attaining depth on the other hand. The social growth while it aims at embracing so many individuals it seeks to deepen the relations amongest the individuals and to strengthen their mutual human ties. The depth of individual relations and the strength of human ties appear in their fruitful co-operation and in love and brotherhood. In other words they appear in their endeavour to realise the human aims which are the freedom from the ferule of animality, the command of instincts and the predominance of infancy.

The requirements of the age.

However, if the social development is the liberation from the rule of animality, instincts and human infancy is the freedom from the command of individuality an egoism, the requirements of the age will be another factor in the social growth if they prove to be helpful and inciting to such liberation. Hence the development will be considered as pushing through normal paths to attain its end that is the assertion of humanity with all its known traits of love, sympathy and mutual friendship amongst its individuals.

Thus the definition of the requirements of the age is subject to the definition of the meaning of social development. It is by no means

subject to the wishes proposed by certain writers or thinkers who endeavour to guide the society towards realising them.

Thus sectarianism, partisanship, fanaticism, bigotry and tribalism could not be considered as requirements of the age.

The emancipation of woman in the sense of enabling her to fulfil her duties as a mother in the family and as a member in the society who is shouldered with certain responsibilities derived from her natural status in the society; is no doubt one of the requirements of the age. The call to the co-operation of both husband and wife, to the prevention of tyranny and the subjugation of the powerful to the weak, to righteousness and good behaviour in their dealing with each other, is as well a requirement of the age. The call to curb from misusing one's rights in treating one's neighbours or in dealing with them is also one of the requirements of the age.

On the contrary the call to the emancipation of woman in the sense that it would be treated as a man in the guise of a woman is not a requirement of the age because it is against the nature of the woman itself and against the aims of the social development. It is against the aims of social growth because love, friendship and co-operation amongst individuals which are the ultimate ends of social development can not be realise except when there is harmony or agreement between the individuals at first. Such harmony will be developed by the lapse of time into friendship, love and co-operation. The harmory however does not happen between two who are completely similar. The more they differ, the more there is certain points of contrast between them the more they are liable to sympathise with each other and to harmonise with each other. That is simply because every one of them will be then in obvious need of the other. Everyone of them has something which the other lacks. By coming in touch they will complate each other. This asserts the principle of compensation which is a recurring principle in life because it responds with another principle that is the principle of duali sm wich is the origin of life itself: the doer and the done, the active and passive. But for this dualism and but for the contact of the doer and the done, the passive and the active, none would have met in life at all and none would have shown harmony with each other.

The close similarity is in fact a cause to friction and combat and not a cause to attraction and harmony. On being Similar none of them will

be in need of the other. None of them will feel that he lacks something which the other can satisfy. Thus the equality in the will between man and woman is a reason for separation and disunity and not a reason for agreement and attraction although there is a contrast between them from the point of view of manliness and womanhood.

The similarity between man and woman in the form of the body corporeal features and physionomy is another cause of disunity in spite of the contrast between them as a male and a female. The moman doth want a man who stands in psychological and physical traits in contrast to his.

Their meeting on that basis will be then natural. The mutual sympathy will of course emanate as a result of such natural meeting. I wonder if there is a man who wishes to marry a woman with a manly muscles or who likes to have as his wife a woman who is deprived of all feminine emotions and who has the iron will of an experienced man who has gone through the ups and downs of life and who has been trained by facing the situations and hardships of life. I wonder as well if there is a woman who aims at having a husband whose physical constitution is womanly and frail, a husband who is governed by his whims and who is always hestitant in all his acts and deeds, prejudiced unsteady and easily moved like a feather in the face of wind.

The idea of having a president or a leader in the socity to guide and to lead the society is in fact a natural consequence to the application of the principle of contrast. This principle emanated to satisfy a necessity for whenever there is a herd there must be a shepherd to look after them and whenever there is a leader or a president there must be subjects to be guided by his directives and to follow his leadership. If it happened that all the individuals yearn to be heads and leaders then there would be no order and nothing would reign but chaos and struggle and if it happened that all the individuals admitted to be followers without a leader to plan and dircet there would be no society and there would be no common cause to unite their efforts add to make them march towards one target and to make them work to attain a common purpose. As such there would be no relations to tie them together and there would be nothing but friction, war and struggle.

Such reasoning makes it quite clear to our minds why we worship one God and why it is incumbent upon all people to submit to the guidance of one leader the guidance of God.

This natural principle, the principle of contrast guiding our existence makes it incumbent upon us to worship one God. We all seek to complete ourselves and we can only achieve that end by applying that principle which is the origin of harmony in life. No doubt it is the ultimate wish of man to be harmonious with himself and with all the folk around him whether in his own domain or in the public domain.

The industrial development in our time if it is in the service of humanity it will be as well in the service of social development. Thus if it realises both ends, it will be one of the requirements of the age. To be in service of humanity means to allow man to keep his mastery and not to be enslaved by the machine. This implies that man should make use of the machine to raise his standard of living, to better his social status, to mitigate the maladies, to combat ignorance and illiteracy and to propagate enlightenment and knowledge of life. He should not be at all a submissive slave to the machine, sulyngated to its influence and reduced to slavery and bondage under its impact. If he fails to keep his mastery and liberty as a result of its interference in his life then it will be a source of choos and anxiety and it will stand as a stumbling block in his way hindering the realisation of the ultimate aim of social development which is co-operation, love and friendship between all people.

The attitude of Islam towards social development according to the requirements of the age.

Islam is a heavenly message revealed to human beings living on this earth. It is the word of Allah sent to humanity at large without any discrimination between arabs and non arabs. It is a message for all people. It is adressed to everyone without any distinction to guide humanity to the right path leading to the realisation of the full sense of humanity in man's life.

If the ultimate aim of humanity in its full sense is, as we have mentioned before, to make people join one another love one another, be brothers and co-operate with one another it is the message of Islam to awaken these good points and to develop them and to convince man to keep these ideals and to follow

them in both his behaviour and actions.

Islam came to raise man from the stage of infancy and ignorance to the stage of maturity and knowledge. It came to develop the human sense in man as well as the social sense. The human sense is nothing but the social solidarity, the co-operative relations amongst individuals based upon love and sympathy. We have already seen that primitiveness doth mean the disintegration of all ties binding the individuals together or doth mean the predominance of egoism and individuality or doth mean in other words the rule of animality and instincts over all the other traits of man which distinguish him from the other creartures which are living, moving and sruggling for existence.

Islam came to urge people to co-operate "Help you one another in righteousness and piety, but help you not one another in sin and rancour." (Surah. 5, Vs. 3). It also came to urge people to be righteous "It is not righteousness that ye turn your faces to the East and the West; but righteous is he who believeth in Allah and the Last Day and the angels and the scripture and the prophets; and giveth his wealth, for looe of Him, to his kinsfolk and to orphans and the needy and the wayfarer and to those who ask and to set slaves free. It urges people to be good in their treatment to each other " If you did well, you did well for yourselves. If you did evil (you did it) against yourselves." (Surah, 17, Vs. 7). It order people to be righteous and just in their dealings with their wives " Either take them back on equitable terms or set them free on equitable terms." [Surah : 2, V. 231]. It urges people to stick to justice " Whenever you speak, speak justly, even if a near relative is concerned; and fulfil the covenant of God." (Surah. 7, V. 152). It stresses the importance of safegua rding humanity against tyranny and injustice " And let not the hatred of others to you make you swerve to wrong and depart from justice. Be just : that is next to piety " (Surah. 5, Vs. 9).

By so doing Islam was pushing forward the social relations and social development towards maturity. However the message of Islam is nearly limited in realising two ultimate ends: the curbence of egoism and the inhibition of individuality on one hand and the awakening of the common feeling and the development of social relations on the other hand. The message of Islam aims at saving human actions from

being governed by human infancy and to subjugate these actions to the guidance of maturity to keep for man his peculiarities and to save his dignity and superiority.

When Islam says "we have honoured the sons of Adam." it doth really mean that it has give man significant human traits to distinguish him from all other ereatures Really God on sending his messengers to the peopls, He was aiming at enabling the people to seek the right path by their help, the path which leads them to follow these traits in their personal behaviuor and in their dealing with others.

If it is admitted that the meaning of social development is such as that we have previously mentioned, and if the requirements of the age is looked upon in the light of social development we undoubtedly shall find out the Islam is a source of drive to the advancement of social development and a source of appreciation to the requirements of the age which shall push forward the wheels ofprogress.

But if social development is meant to be a call to a certain political institution or to back a certain political ideology, Islam has nothing to do with such trends. It is an independent institution which fits in with any other iustilution which agrees with it in the aim and the plan to realise that aim. It does not accept as well any other institution wich doth differ from it in both the aim and plan.

If on the other hand, the requirements of the age are taken to be ce tain behaviours and actions as uisualised in certain societies which are existing to-day it will be more appropriat befor announcing the judgement of Islam and its attitude towards such tendencies to discuss fully the aims and obgectives of such tendencies.

In a word Islsm is the light which guides to the right path. The right path is the road leading to the realisation of humane objectives such as love, bratherho od, co-opration and mutual friendships.

THE INFLUENCE OF SUFISM ON THE HUMAN LITERATURE AND THOUGHT

BY

Dr. Gamal Addin Arramadi

Sufism is a form of pantheistic mysticism within Islam. The word "Sufi" is derived from the word "Suf" which means wool. Sufistic people were accustomed at the dawn of sufism to be clad in wool. The quintessence of sufism is to take the way of truth, and salvation, to be assiduous in piety, to be indifferent to all the pleasures and follies of mankind, to renounce wealth, powr, and ambition, and to pick the threads of a lonely life, thinking of nothing but heaven and leading calmly a life devoted utterly to the service of God.

Some researshers noticed the roots of sufism in the life of Mohamed the prophet. In reality Mohamed was not a sufi, but he led a spiritiral life which met in many respects with the mottos of sufism. For instance he says: "Be indifferent to the world to be beloved by God, and be indifferent to that in the hands of people to be beloved by them.

In this way the point of view of Mohamed meets with that of sufic people, but it is essential to refer to the fact that sufism is not only an Islamic Feature. It is known in Christianity and other religions. Vaughan in his book: "hours with mystics" noticed many ressemblances between the beliefs of sufic people and those Christianity such as Tauler, Eckhart, and St. Therese.

Nicholson sum up the sources of sufism in christianity, New platonism, Gnosticism, and Buddhism. He adds that the speculative and philossphicaf side of sufism, spread out through Egypt and Syria bore remarkable signs of Hellenistic influence.

Hassan of Basra was one of the famous suffic people who left to the Arabic Literature and thought an immortal inheritance. He attached much importance to spiritual righteousness and paid no head to the follies of life. He was not merely

satisfied with external acts of devotion. He believed that the real faith lies in the spirit. He cites for inistance that a grain of genuine piety is better than a thousand weight of fasting and praying.

Rabaa El-Adawia, a woman, is another sufi whose words are still remembered despite the centuries that separate us from her. Her sufism was an unbounded and enduring ove for God, a love neither Prampted by the promise of heavenly reward nor sought out of a dread of eternal fire, but Pure and untained, inspired only by his eternal beauty.

Muhyi Eldin El-Arabi who lived in Spain and was the auther of several works on sufism, namely the "Ifada" or information, speaks of the fundamental branches of knowledge, God, the rational world, and the world of senses.

In 1201 he published a collection of poems under the title "Turguman El Ashwaq" or Interpreter of love". Later he wrote a commentary on the same work in order to refute the accusation of extolling the pleasures of the flesh in the place of divine love.

On the Persians sufism had a stronger appeal than on the Arabs, and indeed its influence on Arabic literature, though great, is not to be compared with the extraordinary hold it has exercised on Persian thought from the IIth century to the present day.

Ibn El Farid, for example, earned the title of "Lord of all lovers" among the suffis of Persia, and many of their teachings can be traced to him, as well as to Muhuy Eldin El Araly. Awhad Eldin El Karamany in the seventh, and Abdel Rahman El Agamy in the niuth, century, owe a great deal to them.

Sufism, as Sahrawardi says " is neither the creed of poverty nor that of ascetism. It embraces both and something else besides. It introduced a spirit of exaltation in Arabic literature, a spirit that purifies the heart while at the same time it sustains the soul against all earthly pollutions.

مؤتمر المستشرقين ، وقدم الأستاذ أمين الخولى إلى المؤتمر بحثا عن الصلات التاريخية والثقافية بين نهرى النيل والفولجا .

ويتضمن بحث الأستاذ الخولى آراء جديدة فى تاريخ حكام مصر من المماليك وأصلهم وجنسياتهم .

* نشر المجمع العلمى العربى فى دمشق الجزء الأول من كتاب « الإبدال » لأبى الطيب اللغـــوى ، بتحقيق الأستاذ عز الدين علم الدين التنوخى . كما نشر : « رحلة أحمد ابن فضلان إلى أرض الروسيا والبلغار » بتحقيق الدكتور سامى الدهان

* قررت حكومة مالى - الدولة التى نالت استقلالها حديثا فى غرب إفريقيا - تدريس اللغة العربية إجباريا فى المدارس الثانوية ، واختياريا فى المدارس الابتدائية .

* نشرت مجلة : « دعوة الحق » المغربية أنه قد افتتح فى استامبول معهد عال للدراسات الإسـلامية ، مهمته تخـريج مدرسين لتدريس الدين الإســـلامى فى المدارس التركية ووعاظ وأئمة فى المساجد .

* ينشأ فى خلال العام القادم معهد للدراسات الإسـلامية والعربية فى السنغال ، بعـد استقلاله ، وقد اتصل المسئولون فى السنغال بالجمهـورية العربية المتحدة للمساعدة فى إنشاء المعهـد على أن يوضع ذلك تحت إشراف الأزهر .

وسيحضر من طلبة السنغال عدد لتلقى العلم فى الأزهر على أن يقوموا بعـد ذلك بالتدريس فى المعهد الجديد الذى يقبل الطلبة من جميع الدول الأفريقية ويعلمهم بالمجان .

* بدأ فى ٢٠ سبتمبر الحالى امتحان طلبـة معهـد الإعـداد والتوجيه التابـع لإدارة الثقافة الإسلامية فى الأزهر .

والمعهد يضم خمسه أقسام تدرس فيها اللغات الانجليزية والفرنسية والألمـانية والأردية والأندنوسية لطلبة الأزهـــر وخريجيه . والمتخرجون فى المعهد يرسلون فى بعثات ثقافية أو تعليمية .

* أقيم فيما بين يومى ١١ ، ١٧ من شهر سبتمبر فى دمشق مهرجان الشعر العربى الثانى برياسة السيد كمال الدين حسين رئيس المجلس الأعلى للآداب والفنون واشتركت فيه طائفة من شعراء إقليمى الجمهورية وباحثيها .

وألقيت كلمة للأستاذ عباس محمود العقاد تضمنت دفاعا عن الشعر التقليـدى ودعوة للحرص على قافية الشعر العربى وأوزانه .

واشترك فى المهرجان من الدول العربية مندوبون من السودان والجزائر وفلسطين والمغرب واليمن .